م. توفيق دياب

اللمحات

سياسيات
روحيات
اجتماعيات
خلقيات
أدبيات

المجموعة الأولى

[ملتزم التوزيع والنشر]
دار التوزيع والطباعة والنشر
٥٣ شارع ابراهيم باشا — أمام شبرد


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO
من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

اللمحات

سياسيات
روحيات
اجتماعيات
خلقيات
أدبيات

المجموعة الأولى

بقلم
محمد توفيق دياب بك

الثمن
٤٥ صاغا

القاهرة
مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية
٤٠ شارع نوبار باشا (سابقا شارع الدواوين)
١٩٤٧

هديّتى

إلى ولدى صلاح

فى عليّين

نفحة مشكورة

بقلم الصديق الجليل أنطون الجميّل باشا

محمد توفيق دياب بك — كاتباً وخطيباً

إذا كان لابد للكتاب عادةً من توطئةٍ أو مقدمة تعرّف كاتبه وتمهّد لموضوعه ، فما كان أغنى هذه « اللمحات » — التى بين يديك ، أيها القارىء — عن كل توطئة أو مقدمة . فمؤلفها — وهو الكاتب المشهور والخطيب المفوّه — غنىٌّ عن التعريف . وموضوعها أو موضوعاتها — وهى مجموعة مقالات نشرت فى الصحف السيارة ، ومحاضرات أُلقيت فى الأندية العلمية والسياسية ، وبحوث وأحاديث أذاعها المذياع فى البلدان العربية — تقدّم نفسها بنفسها ، فلا تحتاج إلى تقديم ولا إلى تمهيد . فما كان أحرانى بأن أُحجم عن كتابة هذه الكلمة ، فلا أتعرّض للتقصير ، ولا أحول دون بلوغ القارىء توّاً إلى ما هو واجدٌ فى الصفحات التالية من طرائف . على أن زمرة الأدباء التى تضمّ المؤلف وتضمّنى فى ناديها أرادتنى على ذلك ، فصدعت بإرادتها متهيباً فى أول الأمر ، ثم أقدمت مرتاحاً إلى التحدُّث عن أخ كريم .

* * *

منذ ثلاثين عاماً أعلنت الصحف أن شاباً مصرياً عاد من انجلترا ، وقد تلقى فيها ، إلى جانب ثقافته الجامعية ، دروساً فى فن الخطابة والكلام ، سيحاضر فى الجامعة المصرية القديمة عن فن الالقاء . فأقبلنا على سماع المحاضر الشاب ، فإذا هو يلقى دروساً مفيدة فى مخارج الحروف والجمل ، ونبرات الصوت ، والتعبير عن المعانى بحركات اليدين وملامح الوجه ، مما لاغنى عنه لكل من ينبرى للكلام فى المواقف العامة ، بل للتحدث فى المنتديات الخاصة ، إذ من الثابت أن الأسلوب الذى نعبّر به عن المعنى كثيراً ما يؤثر فى السامع تأثيراً أبلغ من المعنى نفسه . وكان المحاضر اللبق

يقرن دروسه النظرية بأمثلة عملية تزيد فى طرافة درسه وترسيخ فائدته فى الأذهان .

ولم يلبث هـذا الشاب النابه أن أدرك مكانة ملحوظة بين مواطنيه فى مواقفه الخطابية ، سياسية كانت أو ثقافية أو اجتماعية . ونزل فى الوقت نفسه إلى ميدان الصحافة فكانت له فيه جولات موفقة ، كبيرة الأثر ، بعيدة الصدى .

هكذا عرفنا توفيق دياب أول ما عرفناه .

ثم أخذ نجمه يلمع و يتلألأ ، حتى اقتعد مكانة عالية بين لداته من أبناء الجيل . وكانت شباة قلمه فى بلاغتها تنافس لهاة لسانه فى صدق لهجتها وفصاحتها . فنبه ذكره خطيباً فى مواقف السياسة والمحاضرة والمناظرة ، كما استطارت شهرته كاتباً فى الصحافة بنظراته فى « السياسة » ثم بلمحاته فى « الأهرام » . ولم تشـأ نفسه الطليقة الوثابة وروحه النزوع إلى الحرية التقيُّد بخطة صحيفة يصدرها غيره ، بعد استقالته من الجامعة المصرية سنة ١٩٢٨ — فأصدر صحفاً استقل بتوجيه سياستها بلغ عددها اثنتى عشرة صحيفة نالتها يد التعطيل ، حتى أصدر جريدة « الجهاد » التى استمرت ثمانى سنوات إلى قبيل الحرب الأخيرة . وقد نشر فيها فصولا رنانة فى مختلف الشئون القومية والدولية ، كان لها دوىّ كبير ، وحملت اسمه إلى كل بلد يقرأ اللغة العربية .

ثم كانت الحرب الأخيرة وما صاحبها من رقابة شديدة على كل ما يكتب ويقال ، فألقى قلمه وحبس لسانه ، وعكف على داره يدرس ويطالع ، ويرتاد فى المساء بعض المنتديات الأدبية يسمر مع رهط من خلانه ، إلى أن أطلقت الأقلام وفكّ عقال الألسنة بعد الحرب فعاد إلى الكتابة فى الصحف والمجلات ، وإلى الكلام من أعلى المنابر وأمام المذياع . هذا هو الجانب المعروف لدى الجمهور عن توفيق دياب .

أما الجانب المجهول فقد أزاح هو الستار عنه قليلا فى بعض فصول هذا الكتاب .

قال عن نشأته الأولى فى مقاله «طريق الهدى» (صفحة ١١٨) :

« نشأت تقياً نقياً كالأبرار من أبناء المسلمين ، عيوفاً حيياً كالأطهار من أبناء الريف ، ربما سنحت لى سانحة الهوى ، وأنا فتى مشبوب الصبا ، فأزويها بالكبت

فى زوايا النفس الباطنة ، لاعجزاً عن الفرصة ، ولكن صوناً للمروءة ونزاهة عن الدنس . ومازلت كذلك حتى رمتنى الأيام برفيق السوء . كان أصبر منى على الدرس ، وأسبق فى السن ، وأجرأ على المغامرة . كان فى العشرين يكبرنى بعامين ، وكان يعجبنى ذكاؤه ، ويزدهينى اخاؤه ، ويسحرنى منه مظهر الأريب العليم بأسرار الحياة . لقد اتخذته إماماً ومرشداً ، فكان لى إماماً ، ولكن فى غير مسجد ولا محراب . وكان لى مرشداً ، ولكن إلى غير هدى ولا صواب . ثم افترقنا كل إلى سبيله ، ولولا صحبته لظل عهدى بالشباب مرآة صافية » .

واسمعه بعد ذلك ، وقد رحل إلى لندن ، ينشد العلم والمعرفة يقول : « فإذا أنا فى بحرلجى ، أمواجه ملايين من الخلق ، لهم علوم وفنون ، وحضارة ومجد تليد وطارف ، وفيهم جمال وفينا شباب » .

وهناك تفتحت لنفسه الفتية مغاليق الدنيا بما فيها مما يردع وما يغرى ، وتكشفت له أسرار الحياة بما فيها مما يسوء وما يرضى ، فعاد من لندن فى حالة نفسية وصفها أروع وصف فى مقال له وجهه إلى الإنجليز فى شخص « جون بول » (صفحة ١٠٢) فقال : « أعرنى سمعك ، فإذا أعرتنى سمعك فإنما تعيره رجلا تعلم لغتك وهو غلام ، ودرس فى عاصمتك وهو شاب ، ثم عاد إلى بلاده وفى صدره شعلة من نار الحماسة ونور المعرفة . أما الحماسة فللمثل العليا التى قرأها فى كثير من كتبكم ، وأخذها عن كثير من علمائكم . وأما المعرفة فبوجوه الإصلاح التى لا بد منها لكل شعب يريد النهوض ، أعنى إقامة نهضته على أساس متين من الأخلاق ، وإشعار ذوى السلطان أو العلم أو المال بأن سلطانهم وعلمهم ومالهم إنما هى أدوات فى أيديهم لخدمة المجتمع ، وأن قوام الحياة لأدنى المواطنين يجب أن يكون : غذاء يكفيه ، ومسكناً صحياً يؤويه ، ورعاية طبية تحميه أو تشفيه ، وطرفاً من التربية والتعليم يسمو بإنسانيته ويحقق نفعه لنفسه وللوطن » .

« بهذه الروح الفتية النقية عاد صاحب هذا الحديث من بلادك ، — يا مستر جون بول — وعاد قبله و بعده عشرات بل مئات من إخوانه المصريين . وقد أعجبهم

من دياركم وعلومكم وآدابكم ما أعجبه ، وخلبهم من سحر تقديسكم للحرية الفردية والإرادة القومية والعزمات الصادقة الشعبية ما خلبه — وهى تطمح كل يوم إلى مزيد من العدل ، ومزيد من المساواة فى نعم الحياة .

« عدنا من معاهدكم ومجامعكم ، لا أوعية من فخار صبت فيها علوم ومعارف ، بل عدنا مشاعل حرارتها من القلوب ، وضوءها من الرؤوس . عدنا نحمل إلى أمتنا رسالة الحياة ، لا حياة الرضى بالواقع الذليل ، و إحالة الذنب على المقادير ، بل حياة أرواح خلقت لتفطن ، وتجدّ ، وتعلو ، لا لتغفل ، وتلهو ، وتلصق بالتراب » .

فى هذه السطور التى اقتبسناها من « اللمحات » ، صورة دقيقة لابن الريف الهادىء الوادع الطاهر ، وربيب العاصمة البريطانية الدائبة الحافلة بصنوف الحياة ، وهى صورة معظم شبابنا الذين رحلوا ويرحلون إلى عواصم أوربا وأمريكا للتثقف والاستزادة من العلم والعرفان .

كان إذن شأن الفتى توفيق فى ذلك شأن غيره من الشبان . ولكن نفسه كانت كاللوحة الحساسة يرتسم فيها ما ينعكس عليها من الصور ، وكان خياله كالشمع اللّين ينطبع عليه ماتطبعه يد الحياة . فظل فى كتاباته وخطبه يضرب على وتر الأخلاق ، وقد اقتبسها من ريفه ، وعلى وتر المُثُل العليا ، وقد أخذها من دراساته ومطالعاته . وهو لايزال كثير الارتياد لمزرعته فى الريف ، وكثير الإقبال على القراءة ، يغذّى حياته المعنوية من هذه وتلك ، فيجمع إلى روحانية الشرق ثقافة الغرب ، مع نزوع ظاهر إلى الصوفية والأخذ بالمذاهب الروحية . يبدو لك ذلك فى خطبه ومقالاته ، وترى أنه يسود ما يكتب وما يقول إيمان متين وطُموح إلى المثل العليا . فهو مؤمن بتطور الناس ، طَموح إلى تحسين حالهم المادية والمعنوية . وهو مؤمن بطبائع الأشياء ، طَموح إلى تسييرها فى سبيل الخير والصلاح .

ويغلب على كتابته الأسلوب الخطابى ، حتى لاتكاد تستطيع أن تتحدث عنه كاتباً إلا تمثلته خطيباً . وهو لا يكتب ولا يخطب إلا إذا هزته العاطفة ، واستثاره الشعور ، فتنبض أقواله بالحماسة . وقد قالوا إن الإنسان المجرّد من الحماسة لا يفيده

تفكيره إلا زهداً فى الحياة ، و إن أعضلَ أمراض النفس وأفتكها جمودُ العاطفة .
والأستاذ توفيق دياب فى منجاة من هذا المرض .

وقد ساعده فى أسلوبه الكتابى و بيانه الخطابى ما ادَّخره من مطالعة كتب الفرنجة من الأفكار والمعانى العصرية ، وما اكتنزه من مراجعة كتب العرب من ثروة لفظية قلما ظفر بها كاتب . فهو و إن لم يتعرض ، فيما نعرف له من بحوث ، لشؤون اللغة ، عالمٌ بأسرارها ، خبير بمفرداتها وأساليبها ، يناقش فى ضبط الألفاظ وتركيب الجمل مناقشة اللغوى البصير . وهذا ما مهد له تأدية ما يريد من المعانى ، كاتباً أو متحدثاً ، بلغة فصيحة وعبارة مليحة . فهو يكتب و يملى ، و يحاضر و يرتجل ، بالسهولة التى يقرأ بها ، فيندفع كالسيل الذى لا تستطيع شواطئه أن تضبط أمواهه المتدفقة .

و إذا عمد إلى صورة من الصور أو شكل من أشكال البديع ، خُيل إليك أنه ماضٍ لاستيفائها ، أو أنه ذاهب فيها على سبيل الترشيح فى الاستعارة ، كما يفعل غيره ، ولكنه سرعان ما يتركها إلى سواها ، غير آبه لاستقصائها ، لأن هناك صوراً شتى تزحم خياله وتتدفق على لسانه أو قلمه .

لا أعرف هل نظم الشعر فى صباه ، ولكنى لا أستبعد ذلك لما فى أسلوبه من موسيقية اللفظ ، ووزن العبارة ، وتقطيع الجمل . كما أنه لو انصرف إلى المحاماة لكان المحامى المدره ، لما له من ذلاقة اللسان ، وسلامة اللهجة ، ولباقة الحجة ، حتى إذا لم تجدِ حجة المنطق والفكر أسعفته حجة العاطفة والشعور . ولكنه آثر أن ينصرف إلى المرافعة فى القضايا العامة ، فكان فيها من المحامين المعدودين . ولقد كان لهذا الذى أسميناه حجة العاطفة والشعور كبير الأثر فى تحول مجرى حياته فى غير مرحلة من مراحلها .

* * *

هذه صفحات عابرة شاء لها التقليد المعروف أن تتصدر هذا الكتاب بمثابة تمهيد أو مقدمة « للمحات » . فإن كنت أيها القارىء ممن سمعوا الأستاذ دياب بك خطيباً أو قرأوه كاتباً ، فإنها لن تنبئك بجديد . و إن كنت ممن لم يقرأوه ولا سمعوه — وهذا ما أشك فيه — فإنها سترسم لك عنه صورة تتضاءل خطوطها ، وتنصل ألوانها ، إذا ما سمعته وقرأته فى « اللمحات » التى بين يديك .

أنطون الجميل

الى القارئ الكريم

لبث هـذا القلم المتواضع يعـالج الـكتابة فى الصحف عامة ، وفى الصحف التى أصدرها خاصة ، أ كثر من ثلاثين عاما من الزمان ، حتى ليربو ما كتب على ألفى مقال .

ولم يقف جهده طيلة هذه الحقبة الجديدة على الـكتابة ، بل كثيراً ما خطب ، وحاضر ، وأذاع .

ولمـا كان جمع بعض ما تفرق من هذه الآثار ، مما قدم به العهد أو لا يزال ماثلا فى الأذهان ، عملا قد لا يخلو من نفع قل" أو كثر — رأيت أن أختار للقارئ الـكريم فصولا من نتاج القلم واللسان ، منها الطوال ومنها القصار ، ولـكنها لا تعدو أن تكون « لمحات » — بالقياس إلى البحوث المستفيضة التى قد يستنفد علاج أحدها كتابا برمته .

وقد رأيت أن لا أتقيد فى عرض هذه اللمحات بتاريخ إلقائها أو كتابتها ، ولا بتشابه موضوعاتها ، فأقرن كل نظير إلى نظيره ، فى باب للسياسات ، وباب للاجتماعيات وآخر للتربية والأخلاق مثلا — وإنما سقتها مساق التخفيف على القارىء ، والترويح عنه ، بسرعة التنقل به بين أجواء الفـكر وألوان العاطفة .

هذا — وقد تحريت أن لا تكون هذه اللمحات مما تذوى ثمرته بانتهاء مناسبته وانقضاء ساعته . فلم أنشر منها إلا ما ينطوى على معنى صـــالح للبقاء مستقلا عن طوارئ الحدثان .

فإن تصادف هذه اللمحات — على تواضعها — من قراء العربية قبولا حسناً أردفتها بمجموعات أخرى من قطوف الماضى والحاضر إن شاء الله .

محمد توفيق دياب

بأى ميزان نزن الحياة [1]

سيداتى وسادتى :

ذلك السر الغامض ، الذى يبدأ بالميلاد و ينتهى بالوفاة ، ذلك السر الغامض الذى نسميه الحياة ، ونرى أنفسنا فى غماره متدافعين إلى الأمام أو متراجعين إلى الوراء .

ذلك البحر الخضم ، الذى تُلقِينا بين أمواجه يوم نولد قوة خفية ، حتى إذا سبحنا فيه شوطاً قصر أو طال ، نزَعتنْا منه تلك القوة الخفية حين يحل الأجل .

هذه المعركة التى نساق إليها غير مختارين ، ونفصل عنها غير مختارين ، هذه الحياة ما هى ؟ وما غايتها ؟ ولماذا ولدنا ولماذا نموت ؟

ليت أحداً يستطيع الجواب عن هذا السؤال فى كلمة أو كلمات . إذن لاستراح الفلاسفة وأصحاب المذاهب المختلفة فى كنه الحياة . فقديماً كان، و إلى اليوم مازال هذا السر الرهيب موضوع البحث الملحّ ومثار الجدل العنيف بين العلماء والمفكرين .

وليس عجباً أن يفكر الفلاسفة فى مرمى الحياة ، و إنما العجب أن لا يفكر فى مرمى الحياة جميع الناس ! نولد أجنة وندرج أطفالا ، وننشأ صبية ونراهق فتياناً ، ونستوى رجالا ، ونبلغ الكهولة ، وتدركنا الشيخوخة إن قدر لنا أن نُعمّر . ثم ماذا ؟ ثم تجف الشجرة وتذوى الأزاهير و يتساقط الورق ، وما هو إلا نفس أخير نلفظه فإذا نحن رفات ! وذلك دون أن نفكر يوماً لماذا ولدنا ، ولماذا حيينا ، ولماذا نموت . ودون أن نفكر من أين جئنا و إلى أين نعود . وهل جئنا من عدم لنعود إلى عدم ، أم جئنا من وجود لنعود إلى وجود ؟

***

وأنت مع ذلك إذا أخذتك سنة من النوم ، ثم استيقظت فوجدت نفسك فى غرفة لا عهد لك بها ، فلن تستقر على حال من الدهش ، حتى تعرف ما هذا المكان ، ومن ذا جاء بك إليه ، وكيف جاء بك ، ولماذا ؟

---

(١) محاضرة ألقيت فى يناير سنة ١٩٣١

ستطل من نوافذ الغرفة لترى على أى حديقة أو فناء تشرف .

ستفتح الباب ، فإن كان موصداً عالجتـه حتى ينفتح أو يتحطم . فإذا خرجت من الغرفة جعلت تنظر يمنة ويسرة فى ذهول وحيرة ، ثم جعلت تطوف بأرجاء الدار مسائلا نفسك : أين أنا ؟ وما هذه الدار ؟ ولمن ؟ وفى أية مدينة ؟ ولن يهدأ لك بال أو يستقر لك حال حتى تلقاك سيدة هى أشبه ما تكون بالممرضات ، فتنبئك بأن هذه الدار — عافاك الله — مستشفى ، وأن إغماءة طارئة غشيتك ، فخاف عليك والدك ، فأسرع بك إليـه ، حتى إذا بشر الطبيب أباك بأن الأمر هين لاخطر فيـه ، آثر لك الإقامة هنا أياماً ، إلى أن تستعيد صحتك فترجع إلى دارك سليما معافى !

حينئذ تدرك حقيقة المكان ، ومن جاء بك إليه ، وما السبب !

فإذا عرفت أن الغاية هى استشفاؤك مما بك ، لم يزدك علمك بهذه الغـاية إلا أخذاً بأسبابها واستيفاء لشرائطها ، حتى يتم لك منهـا ما أراده والدك وما أصبحت تريده لنفسك .

***

هذا شأننا من الدهش والتساؤل إذا طوحت بنـا الطوائح إلى مكان نجهله ! فما بالنـا تبعثنا إلى هذه الدنيا قوة خفية ، على غير قصد منا ولا اختيار ثم تتوفانا مستضعفين على غير قصد منا ولا اختيار— نظهر ونختفى على ظهر هذا المحيط الهائل ، كالفقاقيع تتفتح وتتفجر فى مثل لمح البصر— دون أن يأخذنا دهش يدعونا إلى الحيرة والتساؤل والتفكير ؟

لماذا بعثتنا القوة الخفية القديرة الجبارة إلى هذه الدنيا ؟

ألنقضى فى هنائها أو عنـائها ، فى صحتها أو فى مرضها ، فى غناها أو فقرها ، فى عدلها أو ظلمها ، فى إخائها أو لددها ، فى رفقها أو جفائها ، أو فى مزيج من هذا كله ستين أو سبعين عاما إذا طال بنـا العمر ؟ وما ستون أو سبعون عاما فى امتداد الأزل الذى لا أول له ، وفى امتداد الأبد الذى لا نهاية له ؟ إن العلماء ليحصون السنين التى سلختها الإنسانية على هذا الكوكب بالملايين لا بالألوف . ويقدرون لهـا البقاء فيه ملايين أخرى تربو على الإحصاء !

فما أنا وما أنت ، وما نصيبى وما نصيبك فى هذا السرمد الذى تحار فيه الألباب ؟ ذرة ضئيلة من جبل أشم ، قطرة هينة من محيط مترام !

و إذن فما حياتك وما حياتى وما حياة هـذا الجيل كله وما حياة الأمم الحاضرة كلها ، حتى نجعل موضوع هذه المحاضرة (بأى ميزان تزن حياتك ؟) .

إن التاريخ المدون أو المكتوب لا يعدو ستة آلاف من السنين ! وهى التى شغلت أقلام المؤرخين ، وهى التى ظهرت فيها حضارات واختفت حضـارات ، وارتفعت أمم وانحطت أمم .

وهى التى وقع فيهـا من المظالم والحروب ، وطغى فيها من الرق والاستعبـاد ، وتقلب فيها من العقائد والأديان ، واختلف فيها من طرائق الخير والشر ، وتعاقب فيها على الجماعات والأفراد من السعادة والشقاء ، وأظلم فيها من الضلالات والجهالات ، وأضاء فيها من المعارف والعلوم — ما تضيق عن الإحاطة به مئات الألوف من المجلدات ومئات الألوف من العقول! وهذا كله تراث ستة آلاف من السنين !

وما هى من ماضى الإنسانيـة المجهولة ومن تاريخهـا غير المكتوب ! وما هى من مستقبل الإنسانية الذى لا تترامى إلى حدوده عين الخيال ! — إلا بمثابة الدقيقة الواحدة من ألوف الأعوام !

إذن أليس من الغرور أن أتكلم عن حياتك وحياتى وعن ميزان حياتك وميزان حياتى ؟ ما حياتك وما حياتى إذا قستها بهذا المقياس المخيف ؟ .

إنك لو نظرت إليها بالمكرسكوب لعزّ على المكرسكوب أن يكشفها لمن ينظر إليها من أفق الأزل القديم والأبد الخالد !

ألا تصدق ؟ إذن ألا تعلم أن كوكبك هذا الذى عاش فيه أجدادك من البشر ملايين السنين ، وسيعيش فيـه أحفادك ملايين أخرى لا يحصيها العـد ، إن لم يصطدم به جرم سماوى آخر فإذا أرضك هباء فى مثل قصف الرعد أو خطف البصر ؟ ألا تعلم أن هذه الأرض بماضيها الزاخر ومستقبلها العظيم الباهر إنما هى شظية تطايرت من الشمس كما تتطاير الشرارة من التنور الهائل المستعر ، فجالت شرارتك فى الفضاء

حتى أخذت مدارها من نظامنا الشمسى واستحالت حصاة (مستقلة ذات سيادة) .

أنا وأنت وهى وهو وهم وهن آحاد فى عداد ملايين الأمة المصرية . والأمة المصرية إحدى العشرات الكثيرة من أمم هذا العصر ، وأمم هذا العصر حلقة قصيرة من سلسلة ترجع إلى ماض لا يدرك الخيال مبتداه ، وتمتد إلى مستقبل لا يدرك الخيال منتهاه على هذه الأرض . وهذه الأرض شظية كانت ملتهبة تناثرت من الشمس فدارت من نظام الكون حيث تدور !

فماذا عسى تكون حياتى وماذا عسى تكون حياتك ؟ لا سيما وأنت تعلم أن نظامنا الشمسى ليس إلا واحداً من نظم كثيرة تماثله ، لو أطلنا التفكير فى كنهها وفى تلك القوة الخفية التى تسخرها لقضينا أعوامنا الستين أو السبعين فى التفكير دون أن تزداد فى تفهمها إلا ذهولا وحيرة .

***

سيداتى وسادتى :

هل تحتملون منى كلمة جريئة ؟ إذن تفضلوا فاسمعوها .

إذا كانت الحياة هى الأعوام الستون أو السبعون التى نعيشها فى هذه الدنيا ، من غير أن نكون مرتبطين قبل قدومنا بقوة هى التى بعثتنا لحكمة ، ومن غير أن نكون مرتبطين بعد رحيلنا بقوة هى التى استدعتنا إليها لحكمة ، إذا كانت الحياة مصدرها العدم ومصيرها العدم ، إذا كان مولدنا فى هذه الأرض مصادفة لم تقصدها قوة مريدة مدبرة ، وكان موتنا مجرد انتهاء لهذه المصادفة ، إذا كان وجودنا مجرد نتيجة آلية عضوية لمجرد تفاعلات آلية عضوية ، وكان زوالنا نتيجة مادية لأسباب مادية لا أقل ولا أكثر .

إذا كانت أيامنا فى هذه الدنيا برزخا تاعساً بين بلقعين : بلقع الماضى قبل أن نولد ، و بلقع المستقبل بعد أن نموت .

إذا كنا فى هذه الدنيا مجرد أحلام زائلة وأشباح حائلة .

إذا كان كل هذا العناء وهذا الكدح وهذه الآلام وهذه الأمراض وهذه الخطوب التى نشاهدها أو نحتملها أو نكافحها فى سبيل الإنسانية .

إذا كانت كل هذه الحضارات وهـذه العلوم وهذه الفنون وهذه الآداب التى تسمو إليها الأمم جيلا بعد جيل .

إذا كانت هذه الشرور كلها وهذه الخيرات كلها ليس وراءها إلا مطلب واحد — هو أن يعيش كل فرد من الناس خمسين أو ستين عاما محدودة بحدين : عدم مطلق منذ الأزل ، وعدم مطلق إلى الأبد ، ما عدا هذه الأعوام الخمسين أو الستين .

إذا كان الأمر كذلك ، فما أحمق الأحياء الذين يؤمنون بهـذا العدم من قبل ومن بعد ثم يعيشون ! إن الانتحار أولى بهم وأجدر ، أما أنا فلو كنت منهم لانتحرت !

إن هذه الأعوام الستين التى يعيشها المرء فى هذه الدنيا لا تساوى فى ذاتها عضة الفقر ولا ذلة الحاجة عاماً واحداً .

إنها فى ذاتها لا تساوى برحاء المرض الممض نصف عام . إنها فى ذاتها لا تساوى احتمال ظلم الظالمين ، ولا جبروت المتجبرين .

إن المرء ليصادف فى هـذه الأعوام الستين أو السبعين من ضروب الأذى ما لا يحتمله إلا لشعور واحد ، هو أن الحياة سر قديم خالد — لا حياة الجماعة فحسب ، بل حياة كل فرد من أفرادها كبر أو صغر ، جل فى نفوس الناس أو هان .

***

إذا سألت بعض علماء المادة الذين يرون حياة الفرد مسبوقة بعدم منتهية إلى عدم ، إذا سألتهم : لماذا يعيشون ؟ قالوا : نعيش طوعاً لغريزتين : غريزة الحرص على بقائنا ، وغريزة الحرص على بقاء النوع !

أما حرصنا على بقاء أنفسنا فواضح حتى فى الطفـل يتجنب السقوط من علٍ ويتجنب النار اللاذعة والحفرة العميقة .

وأما حرصنا على بقاء النوع فواضح فى الأم تسهر على ذراريها ، والأب يعول أبناءه ، حتى لو كانت الأم حيواناً أعجم !

ونحن نفهم هذا التعلل بقوة الغريزة من غير السادة العلماء .

فأما وهم من أهل التفكير الذين من شأنهم أن يرجحوا حكم العقل على اندفاع الغرائز، فقد كان الأولى بهم إذا لم يؤمنوا بأن لحياة الفرد اتصالا وثيقاً بالخلود — كان أولى بهم أن يدركوا أن هذه الأعوام القليلة التى ستسلمهم عما قريب إلى فناء لا وجود لهم بعده : هـذه الأعوام لا تستحق منهم عنـاء البحث والتنقيب فى مظاهر كاذبة وزبارج باطلة ، ولا تستحق منهم هـذا العكوف على المعامل والآلات والمنظار المكبر والمنظار المصغر ، والتعليل والتحليل ، والكدح بالليل والنهار للوصول إلى حقائق مهما تكن فى نظرهم جليـلة فهى تافهة ، ما دامت هذه الخلائق الإنسانية والسادة العلماء فى طليعتها ، كائنات تافهة ، تظهر اليوم من ظلام العدم ، لتنتهى فى الغد إلى ظلام العدم !

كان أولى بهم أن يقفوا مبشرين بالفناء ، وأن يقولوا للناس : فيم الكدح وفيم العناء فى سبيل غاية مقفرة مظلمة ! — إلى العدم العاجل بيدك أنت أيتها الإنسانية مختارة طائعة ، فذلك أكرم وأروح للبال من أن يحل بك العدم غير طائعة ولا مختارة !

يقولون إن حياة الإنسانية شيء وحياة الفرد شيء آخر .

حياة الفرد إلى العدم . فأما حياة الإنسانية فإلى البقاء .

لذلك يخدمون الإنسانية بالعلم والفن والأدب ، ليجيء الجيل اللاحق خيراً من الجيل السابق ، ولتجيء الحضارة الآتية أعظم وأروع من الحضارة الماضية .

وهذا فى الحق سخف عظيم . لأن معناه أن جميع الأجيال الماضية وجميع الأجيال الآتية كانت وستكون مجرد عتبات ومدارج ، أومطايا وبراذع ، يعلوها فى النهاية آخر جيل تتمخض عنه الإنسانية ، فإذا استوى الجيل الأخير على قمة المجد ، لم يكن مجده خالداً بل كان مجده زائلا كذلك ، ولو عمر الإنسان الأخير بفضل العلم ألف سنة ! ثم ينقضى هذا الجيل الأخير بانقضاء صلاح الأرض للحياة . وانتهت الدنيا إلى غايتها ! وفنيت حرارة الشمس وانطفأ ضياؤها ، واستحالت البحار جليداً والشجر والنبات هباء . وأمست الإنسانية عدماً مطلقاً إلى آخر نسمة فيها — ولم يبق للانسان

المسكين حتى الذكرى ، إذ منذا يذكر الإنسان وقد انمحى من صفحة هذا الكون آخر إنسان ، وانمحى لا ليسمو إلى عالم آخر ، ولكن ليبقى غريقاً فى غمرات الفناء ، خالداً فيها أبد الآبدين .

* * *

هل هذه إذن غاية الإنسانية ؟ !

هل غايتها أن تقضى مئات الملايين من السنين لتنضج جيلا واحداً هو الجيل الأخير ، ثم يكون هذا مصير ذلك الجيل الأخير ؟

أتعرف الساحر الذى يخرج علبة من جوف علبة ثم يخرج الثالثة من جوف الثانية والرابعة من جوف الثالثة والخامسة من جوف الرابعة وهكذا حتى تعد عشرات من العلب يخرج بعضها من جوف بعض ، حتى ينتهى بك إلى علبة لا تكاد تراها لضئولتها ، ثم يوهمك بأن فيها قطرة من سائل هو ماء الحياة . فإذا تناولها المتناول وأسرع بالقطرة إلى فيه ليرزق الخلود خرّ على الأرض فاقد الروح — تلك صورة فكاهية من الحياة الإنسانية كما يفهمها أولئك الماديون .

* * *

سيداتى وسادتى :

هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟

هذا الإنسان أكبر وأعظم من الأعوام السبعين أو المائة التى تمتد إليها حياته فى الدنيا .

لكن هذا الإنسان متناقض عجيب ! أتذكرون أيامه الغابرة ؟ أيام كان يأوى إلى الكهوف ، ويأكل الصيد نيئاً ، ويضرب فى الغابات عارياً ، ولا تكاد تميزه من سائر الحيوان .

هذا الإنسان ما الذى هداه إلى ما هو اليوم فيه ؟ ما الذى صعد به الى المستوى الذى بلغه فى القرن العشرين معجزة القرون ؟

فى الدنيا حروب وفيها عدوان وفيها عيوب وفيها آفات . ولكنها عيوب الصاعد

إلى المثل الأعلى رويداً رويداً . ولا سبيل إلى أن ينجو من تراث الماضى وغرائز الأنانية الأولى كل النجاة فى ألف عام . كلا ولا فى عشرة آلاف .

قد يشن الحروب و يعتدى على الحقوق ، ولكن لطيفة خفية تنزع به إلى السلام والانصاف بعض النزوع ! له اليوم قوانين وشرائع إن طغت عليها يد العدوان يوماً ، فإن الجماعة كفيلة برد الحق إلى نصابه و إن كره المعتدون . له اليوم علوم قيمة وفنون جميلة وآداب أفسحت أمام عقله سبحات الهناءة المعنوية !

له تعاون على البر والاحسان ، يلطف من تعاون الأشقياء على الغدر والاساءة . له أديان مشروعة ومثل من الأخلاق موضوعة .

له طائرات فى الجو وغائصات فى البحر . وله أسباب ممدودة تراها العين أسلاكا برقية أو تليفونية أو لا تراها ، لأنها أسباب من الأثير تحمل الأصوات ، وتخفى عن النظرات .

وهو مع ذلك متناقض عجيب ! .

ذلك الذى دوخ الأرض وسخر الجو والبحر ونفذ فى الصخر وكشف من الأسرار عجائب كانت قبل عشرة أعوام أو عشرين فى عداد المعجزات .

ذلك الذى يقف وراء المدفع الضخم فيطلقه على البرج المشيد أو القرية العامرة فإذا هى أطلال .

ذلك الذى كشف أسرار الأفلاك والكواكب والنجوم ، وعرف مزاج بعضها وتأليف مواده وتركيب عناصره ، وقاس أبعادها وحذق حسابها حتى ليتنبأ بحوادثها ومجرياتها قبل أن تقع بمئات الأعوام .

ذلك الذى اتخذ من الغاز سموماً ومن الهواء غذاء ومن حرارة الشمس وهدير الماء قوة مستعملة أو مذخورة .

ذلك الذى أضاء الليل بثريات مكهربة فكأنها شموس وأقمار .

ذلك الذى يطوف الآن حول الأرض على متن الهواء قبل أن يطوف أخوه البدوى مناخ قبيلته على ظهر البعير .

ذلك الذى كشفت له الأشعة مكنون الجسوم واخترقت له حجب الغيب ، فأصبح يرى مالم تكن تراه العيون .

ذلك الانسان تقتله البعوضة ، وتمرضه نسمة الهواء ، وتشرقه جرعة المـاء ، و يصرفه الهوى عن الجادة ، ويريد الأمر المستطاع فيصرفه عنه التخاذل !

ذلك الإنسان يعدل و يظلم ، و يقسو و يرحم ، و يتخذ العلم للشر ، و يتخذ العلم للخير .

فما هذه القوة وما هـذا الضعف ؟ وما هـذا النور الساطع وما هـذا الحلك الدامس ؟ وكيف يجتمعان ولأيهما الغلبة آخر الأمر ؟ .

وهل يستطيع أن يستخلص من بين هـذه الأطوار المتنافرة والمظاهر المتناكرة حقيقة الحياة وغاية الحياة وميزان الحياة ! ؟ .

نعم وأبيك ، يجب أن نستطيع .

* * *

سيداتى وسادتى :

هل تريدون منى كلمة جريئة أخرى ؟ .

نحن تلاميذ القوة العظيمة التى بعثتنا إلى هـذه الدنيا يوم ولدنا ، والتى تتوفانا يوم يحين الأجل . نحن تلاميـذها وهى تعلمنا من حيث لا نراها . وقد أودعتنا سراً يسميه الفلاسفة عقلا وتسميه الأديان روحاً ، وأنا لا يهمنى ماذا نسميه .

هو قبس من هـذه القوة العظيمة وشعاعة من نورها . وليس يولد إنسان إلا و ينطوى على هذا القبس أو هذه الشعاعة كامنة !

و إنما توقظها تجاريب الحيـاة من ألم ولذة وحرمان و إحراز ومرض وصحة و إخفاق ونجاح .

فالألم يوقظ هـذا السر الـكمين ، و يروضه على النظر كيف ينجو من الألم .

واللذة تبعث فيه حب الاستزادة فحب الحركة فى سبيل إحراز تلك اللذة .

والحرمان يبعث فيه حب التحصيل والإحراز . ولذة الإحراز تدفعه إلى طلب المزيد والمرض يعلمه التوقى و يعلمه الصبر والجلد . والصحة تشعره الهناء . والإخفـاق يغريه بالـكدح ومعاودة العلاج . والنجاح يزيده همة وعزيمة .

كان هذا منبت الغرائز فى الإنسان الأول . ثم رأى ذلك التلميذ الناشىء على كر الأجيال أن فى بعض لذاته إيلاما لإخوته ، وأن فى بعض سعادته شقاء لسواه ، فازدادت فيه الحساسية ، فوازن قليلا بين سعادته وشقاء الآخرين ، فانصرف قليلا قليلا عن الأثرة المطلقة ، ومازج تقديره شىء من العطف على سواه .

السر الدفين يستيقظ .. الشعاعة الكمينة ترسل ضوءها خارج نفسها لأول مرة. بذرة الإنصاف والعطف والغيرية تستحيل نبتة مزهرة .

التلميذ يتعلم فى مدرسة الحياة درس العدالة ، فيحاكى المعلم الأعظم الذى بعثه إلى مدرسة الحياة .

التلميذ يدرس منهاج الفضائل فى مدرسة الدنيا مكرمة بعد مكرمة ومحمدة بعد محمدة. أليس المعلم الأعظم كريماً حميداً . وهذا تلميذه أودع فيه قبسه لينقدح بزناد الحوادث والتجاريب .

أهى البسالة والإقدام ؟ . إن المعلم الأعظم يعلو على المخاوف ، فهو القوى المتين !

أهو الدأب والكفاح والعزيمة لا تعرف اليأس ولا القنوط ؟ .

إن المعلم الأعظم شديد المراس يعلو عن الفترة والوهن !

أهو البر والإحسان ؟

إن المعلم الأعظم هو المحسن البار، وهو ينبوع البر والإحسان . وما من فضيلة ولا مكرمة إلا اشتق أصلها من تلك القوة المهيمنة ومن ذلك المعلم الأعظم .

ولكن المعلم الأعظم لا يعلمنا الشجاعة ولا قوة العزيمة ولا البر والإحسان إلا عن طريق الحوادث والتجاريب . فقبل الشجاعة ساد الجبن حتى استيقظت شعاعة المعلم الأعظم فى التلميذ فاحتقرت الجبن والجبناء . وقبل الوفاء ساد الغدر . وقبل البر والإحسان سادت القسوة والجفاء .

* * *

وفى هذه المدرسة ما زال التلاميذ يدرسون ولن يزالوا ، وإلى جانب الأخلاق التى تروضهم عليها حوادث المدرسة و يقظة السر الكمين ، يتجه ذلك القبس إلى محاكاة المعلم الأعظم فى العلم والقدرة والإرادة . —

فلا تفتأ الأشعة الأزلية الخالدة التى تصل قلوبنا بعظمته ، لا تفتأ تبحث وتنقب فى أسرار هـذا الوجود ، فتستكشف اليوم قانوناً من قوانين الطبيعة ، وتستكشف غداً جوهراً من جواهرها الخفية ، حتى استطاع التلميذ بحركة من إصبعه أن يحيل الغرفة المظلمة نوراً وهاجاً لأنه عرف سر الكهرباء .

فما كان بالأمس معجزة يرتاب فى جوازها العقل ، أصبح اليوم حقيقة مألوفة لا يدهش لها الأطفال .

واستطاع التلميذ أن يشافه صاحبه بكلمات تلوكها الألسن وتسمعها الآذان ، هذا فى جنوب المعمور وذاك فى شماله من غير حاجـة إلى أسلاك . واستطاع التلميذ أن يشارك الطير فى ارتياد الجو فـكأن كل مخلوق فى الجو سليمان .

وغاص مع الأسماك فى مساربها وتتبعها إلى مهاربها .

ذلك أن المعلم الأعظم يريد لتلاميذه أن يحاكوا عظمته فى العلم والإرادة والقدرة كما يريد لهم أن يحاكوه فى المحامد والمكارم .

أليس المعلم الأعظم قـديراً على كل شىء ؟ أليس فعالا لما يريد ؟ أليس يقول للشىء كن فيكون ؟ وها هو ذا تلميذه . ها هو ذا سره وقبسه فى هذه الدنيا — الإنسان . قد استطاع أن يسخر الهواء والماء والكهرباء ، وكثيراً مما نرى ولا نرى من قوى هذه الطبيعة العذراء .

***

سيداتى وسادتى :

إذن لا يروعنكم أن تكونوا ذرات صغيرة الأحجام محدودة الأعمار فى هذه الدنيا .

إذن لا تستهينوا بأنفسكم إذا قستموها بما سبقكم من الأجيال وما يخلفكم منها . حتى إذا رجع الماضى إلى الأزل وامتد إلى الأبد . ولا يهولنكم أن يكون كوكبكم شظية تناثرت من الشمس ! فـكل واحدة منكن سيداتى ، وكل واحد منكم سادتى يحمل بين طواياه سر الوجود .

هذه الأرض ستفنى . والشمس التى هى أصل الأرض ستفنى . والنظم الشمسية

على اختلافها قد يجعلها المعلم الأعظم مظاهر أخرى لقدرته وصوراً جديدة لإرادته .

لكن ذلك القبس الذى هو نفحة من روحه ، جلت روحه وعلت عن الأرضين والشموس والأقمار ، ذلك القبس الذى يصلكم به صلة أزلية خالدة لا تنفصم ، ذلك القبس هو سر الوجود .

فبأى ميزان تزن الحياة . أبميزان الطعام والشراب والفقر والغنى والدور والقصور والبذخ والمناعم والوظائف والمناصب ؟

أم بميزان المحامد والمكارم والعلم والإرادة وكبريات الصفات التى تحاكى بها معلمك الأعظم ؟ .

نحن لا نحتقر الطيبات من الرزق ولا نبغض إليكم كسب المال وإنفاقه فى سبيله الخيرة .

بل نحض على ذلك ، ففيه حفز للهمم وعود على النفس وذوى القربى وأهل الخصاصة بالمتاع الحلال .

ولكن الأمر كل الأمر الذى أريد أن أذكر نفسى به وأذكركم ، هو أن كل مرافق الحياة من متاجر ومزارع وصناعات ، ومن مطاعم ومشارب ومساكن ، هى أدوات ووسائل لابد منها . ولكنها ليست غايات .

أذكر نفسى بهذه الحقيقة الأولية وأذكر بها حضراتكم لا غضا من الوسائل ولا صرفاً لكم عن اتخاذ الأدوات ، ولكن لأنك لو أحصيت فى زماننا هذا أولئك الأيقاظ الذين لم تصرفهم وسائل الحياة عن غاية الحياة ، لألفيتهم نزراً يسيراً لا يبلغ عددهم فيما أحسب واحداً فى كل ألف .

أولئك يزنون الحياة عامة ، ويزنون حياتهم خاصة ، بما تحوى جيوبهم من مال ، لا بما تحوى نفوسهم من خصال ، وبما يشغلون من مناصب ، لا بما يخدمون من مبادىء .

سيداتى وسادتى :

هذه الأرض مدرسة بعثنا إليها بديع السموات والأرضين . وهذه حقيقة الحياة حياة الأفراد وحياة الأمم . وغاية هذه الحياة هى أن تحاكى صفات المعلم الأعظم .

تحاكى عظمته فى غير صلف . تحاكى رحمته فى غير ضعف . تحاكى علمه وقدرته فى غير زهو ولا فخار . تحاكى إرادته فى غير تجبر ولا غرور .

سيداتى وسادتى :

فى هـذه المدرسة الربانية الكبرى تلاميذ مختلفة درجاتهم . فمنهم المبرز ومنهم المتخلف . فلا تعجبوا إذن لبعد ما بين الناس من تفاوت فى الأخلاق والعزائم والعرفان . لكن حين يعلم الناس أنهم هاهنا تلاميذ ، وأنهم لم يرسلوا إلى الحياة لعباً ولهواً ، وأن معلمهم هو ينبوع النور والعرفان والفضائل فى كل قلب مضىء ورأس عامر بالعلم ، ونفس خفاقة بالشعر أو ببدائع الفن الجميل . حين يعلم كل ذى موهبة ، وكل ذى فضيلة ، وكل صاحب اختراع ، وكل مستكشف لسر من أسرار الطبيعة ، أن ملهمه ومرشده هو ذلك القبس المستمد من قوة الله ، حينئذ يبطل الغرور حياء من الله ، وتتضاعف الهمم مرضاة للمعلم الأعظم ، ويكون ميزان حياتك هو مبلغ محاكاتك لصفات المصدر لكل عظيمة من عظائم الصفات .

ثروتنا الخلقية (١)

سيداتي وسادتي :

ثروتنا الخلقية تعبير غير مألوف ، و إنما المألوف أن يتكلم الناس عن الثروة العقارية أو الزراعية أو المعدنية ، فيكون كلامهم مفهوما .

و يتحدثون أحياناً عن الثروة الفكرية أو العلميــة أو الفنية — يريدون آثار العلماء والأدباء وأصحاب الفنون ، ممـا نقرؤه فى الـكتب والصحف ، أو نشاهده فى المعارض والمتاحف ، ولـكل أمة نصيبها من هذه الثروات .

أما (الثروة الخلقية) فتعبير أزعم أنه جديد، ألقى فى روعى من حيث لا أحتسب ؛ ذلك أننى أردت اختيار موضوع لهذا المقال ، فلبثت بضعة أيام كلما عرض لى موضوع زهدت فيـه ، حتى صحوت ذات صباح ولسانى يقول : (ثروتنا الخلقية) فأيقنت أن النفس الباطنة كانت يقظى تشتغل وتبحث ، حتى اهتدت إلى هــذا الموضوع أو هذا « الا كتشاف » .

وليس جديداً أن يبحث الباحث فى موضوع الأخلاق ، فهو مبحث النـاس فى جميع الأجيال . و إنما الجديد ، فيما أعلم ، أن تسمى أخلاق الأمة أو أخلاق الفرد « ثروة » مع أن الأخلاق لا توزن كما يوزن القطن ، ولا تكال كما يكال القمح ، ولا تعد كما تعد الجنيهات أو ما يماثلها من الأوراق . والأخلاق كذلك لا تحصى كما تحصى مؤلفات العلمـاء أو آثار الأدباء ورجال الفن فى كل جيل . إذ الأخلاق لطائف نفسية مودعة فى القلوب والصــدور . بل القلوب والصدور التى نعرفها بين الجوانح ليست أوعية للأخلاق إلا على سبيل المجاز ، فكيف إذن نسمى هذه الوظائف المعنوية ثروة ؟

لـكن نفسى الباطنة احتجت على هذا المنطق . قالت: « سبحان الله ! ألا يكون ثروة إلا مايؤكل و يشرب ويوزن و يكال ويكتب و يقرأ ؟ إذن ماذا تقول فى الـكهرباء ؟ وهل تحسها الحواس مقطوعة عن الأسلاك ؟ هــذه القوة التى تكون نوراً فتضىء

---

(١) محاضرة ألقيت فى سنة ١٩٤١

وتكون ناراً فتحرق . وتكون حياة لكثير من المرضى ، وتكون موتاً يعاقب به القتلة فى أمريكا . هذه القوة الهائلة التى تدار بها المصانع فى جنبات الأرض ، ويتضاعف بها نشاط العمران كل يوم — ألا تسميها ثروة ؟ لا لسبب سوى أنك لا تعرفها إلا بآثارها ؟ وهى مع ذلك تقاس . نعم لا توزن بالرطل ولا تكال بالأردب . لكنها تقاس بالكيلوات ، وتحصى بالعداد ، ويشكى غلاؤها ويسرق تيارها ، ويرفع الأمر فيها إلى القضاء .

الأخلاق ثروة للأفراد والأمم ، وإن تكن صفات معنوية موطنها النفوس . بل هى لا تكون ثروة إلا إذا كانت النفوس موطنها . ولو قرأ قارىء كتب الأخلاق من عهد أرسطو إلى عهد ابن مسكويه ، إلى عهدنا الحاضر ، لمجرد الإلمام والاطلاع ، دون التخلق بما فيها والانطباع بمعانيها ، لظل ضميره فقيراً إلى الأخلاق ، وإن امتلأ رأسه ببحوثها ومسائلها ، كدارس القرآن الكريم من حيث فصاحة بيانه ، وإعجاز أسلوبه ، أو من حيث أحكام الفقه وعلم المواريث — قد يخرج من دراسته قرآنى البيان دون أن يتخلق بأخلاق القرآن ، وقد يخرج من دراسته أعلم العلماء بالفقه والتوريث دون أن ينير قلبه بروحية القرآن .

وإنما ضربنا هذه الأمثال برهاناً على أن الخلق موطنه النفس والضمير ، وليس موطنه الذهن والدماغ كالحساب والهندسة . فكم من رءوس فياضة بالمعارف تصحبها نفوس فياضة بالرذائل . وكم من رءوس لا تكاد تعرف أحوال القراءة والكتابة تصحبها نفوس كبيرة وهمم عالية وخلق كريم . لم يكن محمد رسول الله يقرأ أو يكتب ، ولم يكن يقرأ أو يكتب محمد كبير بيت مصر المالك .

لكن محمداً رسول الله أحيا الإسلام بوحى ربه ، لأنه كان على خلق عظيم ، بشهادة أصدق القائلين ، وشهادة نوره الساطع فى العالمين . ومحمد جد الفاروق أحيا مصر الحديثة لعهده ، بوحى من ضميره ، لأنه كان عظيم الخلق ، بشهادة ما بعث فى مصر من عظمة لو اتصلت حلقاتها لكانت أمتنا اليوم من كبريات الأمم .

***

ثروة مصر الخلقيـة تتألف من أخلاق أفرادها ؟ كما تتألف من أموالهم ثروتهـا المـالية . و إنى لأخشى أن تكون ثروتنا الخلقية ، مرهقة بالديون ، مهددة بالإفلاس ، كثروتنـا العقارية . وليس الدائنون — فى هذا المجال المعنوى — بنوكا ومصارف ، أو مستغلين دخلاء يرهقوننا بالربا الفاحش . إنما الدائن الذى يهدد كياننا الأدبى ، إنما الغريم الذى يطارد فى نفوسنا أكرم عناصرها ، و يكاد يخنق فى ضمائرنا أسمى معانى الرجولة ، إنما العدو اللدود الذى يفتك بنزعاتنا إلى الخلق العظيم — إنما ذلك الدائن المرهق ، وذلك الغريم الملح ، ذلك العدو اللدود ، هو الأنانية ، هو الإفراط المنـكر فى حب الذات ، هو استهانتنا المنكرة بواجباتنا ، واستهانتنا المنكرة بحقوق من سوانا ما دام فى الأمر إرضاء لشهواتنا أو راحة من عنائنا أو تحقيق لمنافعنا .

***

تسأل الشاب ، بل الكهل الغنى المستهتر : ماذا يمنعك من الزواج ؟ فيجيبك : مالى ولهذه التبعة ؟ إن فى المتاع المباح متسعاً لأمثالى .

وما هو بمباح إلا عند من أسقط عن كاهله واجب المروءة، وواجب بناء الأسرة ، وواجب تقديس الحرمات ، وأسقط عن كاهله حقوق ذويه من العشيرة والأهلين .

فإن يقصد بالمباح ، تلك المباذل التى إن أجازها القانون ، فقد لعنها الله ، فيـاله من متاع و بىء تطيب لهم خبائثه حتى أرذل العمر .

لكنها الأنانية ، فيها إرضاء لشهواته ، و إراحة له من عناء الزوج والولد .

تسأل الموظف — أو نقول بعض الموظفين ، حتى لا يغضب الجميع — ماذا يشغل بالك و يملك عليك أحلامك بالليل ولبّك بالنهار ؟ فيجيب : « درجة رابعـة خالية » . تسأله : وهل أنت أحق زملائك بها ؟ يجيب : كلا . — إذا كانت المسألة بالأقدمية . لـكن المسائل كلها اليوم محسوبيات وصلات ووسائط ووسائل . و يكاد يبـكى المسكين ، و يسب الأولين والآخرين ، و يدعو على الدنيا بالخراب — وليتـه صاحب حق . . . . ولكنها الأنانية .

الأنانيـة هى التى تزين للطالب أن يطلب العلم للشهادة ، لا الشهادة للعلم .

حتى إذا أحرزها، اتخذها صكا على الدولة ، يتقاضى به الجلوس طيلة حياته إلى المكتب ، بأجر محدود ولكنه « مضمون » .

قاتل الله الأنانية . فهى التى تزين للصانع أن يكسل ما استطاع الكسل ، وأن يقصر فى الإنفاق ما استطاع التقصير .

هى التى تزين للتاجر أن يجمع أرزاق الناس بثمن رخيص ، حتى إذا صرخت حاجتهم إليها — باعهم إياها بأفحش الأرباح ، لولا حماية التسعيرة ، التى يغافلها كلما استطاع .

قاتل الله الأنانية . هى التى تزين لشاهد الجريمة أن يكتم شهادته عن القضاء ، رهباً أو رغباً ، فتحفظ أكثر القضايا ، وتهدر دماء المئات من الضحايا كل عام .

هى التى تزين للأدنياء شهادة الزور ، وللفتاك قتل الأبرياء بثمن معلوم ،

قاتل الله الأنانية . هى التى فككت أواصر الجماعة المصرية فى البيت والنادى ، وفى المدينة والقرية وكلما اجتمع ولو شريكان اثنان فى عمل ، قطعت ذات بينهما كأسرع من قطع السكاكين .

هى التى تزين لصاحب الأفدنة الألف ، أن يبذل علفاً لثوره ، أضعاف ما يبذل أجراً لعامله .

قاتل الله الأنانية . فهى تغل يد الغنى عن إغاثة الملهوف إذا نزلت به النكبات ومزقته الصواعق . هى التى تمزق الجماعة أحزاباً والحزب شيعاً — والشيعة آحاداً متحاسدين .

هى التى تجعل المناصب مغانم ، وتجعل المغانم قسمة بين المحظوظين .

هى التى تجعل الكبير مزهوا بطراً ، وتجعل الصغير حاسداً ضجراً .

قاتل الله الأنانية . فهى التى تكاد تحمل كل مصرى على أن ينسى المصرى فى وقت محنته ، حتى لنخشى أن ينسى الجميع هذ الوطن ، أن حلت به الكارثة .

***

إن لنا فى فرنسا عظيمة الأمس وضحية اليوم — لعبرة أى عبرة .

ثروة فرنسا فى المال لا تحصى . زراعتها ، معادنها ، صناعتها ، كانت مثار حسد النظائر والجارات . علومها . — آدابها فنونها « مثل عليا للعبقرية » لكنها انهارت بعامل واحد، صارح به الملأ شيخها « بيتان » قال وتكاد عيناه تبيض من الحزن وهو كظيم :— إن فرنسا انهارت لآفة فتاكة، طغت فيها على الأخلاق ، ولم تكن تلك الآفة سوى الأنانية — أى حب النفس ونسيان الوطن . ولو تلوت عليكم كلامه المحزن فى هذا المقام ، لأخذكم من الخوف على مصر مثل ما يأخذنى . ذلك أن بطل فرنسا بالأمس والغارق فى ويلاتها وكروبها اليوم — يصف الأخلاق التى أودت ببلده العظيم ، وكأنما يصف الأخلاق فى مصر اليوم .

أفلا يحق لنا إذن أن نعتبر ؟ أفلا يحق لنا أن نوقن من أن ثروة الأخلاق إذا أفلست ، لم تغن عنها ثروة المال ولا ثروة العلم والأدب فتيلا ؟ وإلا لأنقذت فرنسا قناطيرها المقنطرة وأدبها الأسمى وفنها الرفيع .

أليس يحق لنا بعد هذه العبرة الفاجعة ، أن نسمى أخلاق الأمة ثروة . وأن نرفعها فوق ثروة العلم وثروة المال ، لأنها ثروة النفس وثروة الضمير وثروة الروح ؟

إذا كان مصرع فرنسا آية رهيبة على أن الأمم الأخلاق وجوداً وعدماً ، كما قال شوقى وأيدته فاجعة فرنسا واعتراف بيتان ، فهناك آيتان أخريان لن ينساهما التاريخ . أريد آية الأخلاق فى بريطانيا العظمى ؛ وآية الأخلاق فى اليونان الباسلة المتواضعة !

من كان يوقن بعد انهيار فرنسا — بل قل بعد انهيار أوربا الوسطى وأوربا الغربية كلها — أن تصمد تلك الجزيرة العجيبة هذا الصمود العجيب ؟ إنى لا أريد أن أعرض لشئون الحرب ولا لشئون السياسة فى هذا الحديث، لأنى أنشره فى مجلة الشئون الاجتماعية . وما أحب أن أعدل بأبحاثها عن شئون الإجتماع . غير أن انتزاع الشواهد من مسالك الأمم فى الخطوب، مطلب أساسى لكل من يبحث فى شئون المجتمع ، وما أظن فى الدنيا إنساناً ، ولو كان هذا الإنسان ألمانياً أو إيطاليا ، سلت من نفسه الأحقاد ، إلا يحنى رأسه إجلالا لعظمة الثروة الخلقية التى تجلت فى بريطانيا واليونان .

أما اليونان فروعة موقفها حديث القاصى والداني ، وإن استطاع الايطاليون

فى الغد مالم يستطيعوه معها بالأمس ، فقد سجلت اليونان لنفسها صفحة مجد لن تزول .

وأما بريطانيا فالحديث فيها أطول وأضفى مما تتسع له السطور الباقية :

لكنى أعلن إعجابى على مسمع من أبناء وطنى جميعاً — بالبطولة التى أدهش البريطانيون بها الدنيا فى ستة شهور ، لا من حيث الاستماتة والاستبسال فى البر والجو والبحر ، بل كذلك وفوق ذلك من حيث اصطبار المدنيين للمكاره الجلى ، وخروجهم عن أكثر أرزاقهم تمويلا لحرب قال رئيس حكومتهم إنها قد تطول سنين . وما أنس لا أنس حملة النواب البريطانيين والصحف البريطانية على وزير مالية انجلترا ، يوم أعلن فى مجلس العموم أنه رأى جعل ضريبة الدخل ، نسبة تتراوح بين خمسين وثمانين فى المائة من رزق كل مواطن . وما أنس لا أنس حملة النواب والصحف عليه فى ذلك الحين ، لا لأنه اشتط وأسرف فى تقدير الضريبة ، بل لأنه بالغ فى القناعة والإشفاق ، ثم تجاوبت الأصداء فى أنحاء البلاد ، بأن الأمة على استعداد لبذل المزيد فداء لبريطانيا العظمى — نعم العظمى . لا بالأساطيل . فلغيرها أساطيل أحدث . ولا بالجيوش ، فلغيرها جيوش أضخم ، ولا بالطائرات ، فلغيرها طائرات أكثر — ولكن بريطانيا العظمى بهذه الأخلاق — بهذه الثروة المعنوية التى لا تغنى على الإنفاق .

***

ليس رجلا من لا يعجب بالرجال . ولا عظيما من لا يعجب بالعظمة . وأمتنا المصرية مهما اخف عليها عواقب الأنانية — أمة عريقة النسب كريمة العنصر ، فيها عظمة وفيها رجال .

والله أدعو أن يوفقنا للعمل على تنمية ثروتنا الخلقية ، بقدر ما نعمل على ترقية ثروتنا الزراعية والعلمية أو أضعاف ذلك ، وأن يجعل اهتمامنا بمقاومة « الأنانية » — أعنى دودة الأخلاق — بقدر اهتمامنا بمقاومة دودة القطن ، وسائر السموم والحشرات .

تطور الصحافة المصرية (١)

١ — منذ سبعين سنة أو نحوها كانت الصحف المصرية تصدر فى ظلال القانون العام ، وكان القانون العام وحده مرجع العقوبة فى جرائم النشر ، دون التجاء إلى قانون شاذ أو قيود خاصة . فصدرت جريدة وادى النيل سنة ١٨٦٦ ، وجرائد التجارة والمحروسة والأهرام سنة ١٨٧٥ ، وجريدة الوطن سنة ١٨٧٦ ، وجريدة مصر سنة ١٨٧٧ .

٢ — أخذت الروح الوطنية تستيقظ من سباتها فى أواخر عهد اسماعيل ، مصحوبة بعطف جديد على الوحدة العربية ، كان مصدره تعاليم جمال الدين الأفغانى وحماسة مريديه وتلاميذه . فدبت فى صحافة ذلك العصر حياة جديدة ، بدأ نشاطها قوياً رهيباً فى عهد توفيق ، وصدرت فى عهده صحف فياضة بالأمانى والآمال ، كجريدتى الطائف والمفيد ، خشيتها الحكومة الخديوية ، فعمدت إلى تقييد الصحافة بقانون للمطبوعات ، أصدرته سنة ٨٨١ أى قبل الاحتلال بعام .

٣ — لكن المغفور له مصطفى فهمى باشا ، استطاع أن يعطل قانون المطبوعات سنة ١٨٩٥ . وكانت الصحف الوطنية فى ذلك العهد شديدة الحملات على الاحتلال وعلى الحكومة . بل كان بعضها يتصدى بالقول الصريح لأعلى مقام ، ولم تفكر السلطات يومئذ فى تجريد السيف من غمده لتعطيل المؤيد أو إلغاء اللواء . ولو تأخر الزمان بأمثال صاحب المؤيد وصاحب اللواء عشرين سنة ، أو تقدم عشرين سنة بأمثال دولة . . . لم يكن من المستبعد أن يعرف الزميلان الراحلان عن ملابس السجن وشاراته أكثر مما عرفا عن ملابس التشريف وأوسمة الشرف .

---

(١) خطبة ألقيت فى المؤتمر الوطنى العام للوفد المصرى فى ٩ يناير سنة ١٩٣٥

٤ — لكل صناعة آفات . وكان من آفات الصحافة طفيليات استباحت الإمعان فى تناول الشئون الشخصية ، وارتخاص الآداب وانتهاك الحرمات ، فطلبت الجمعية العمومية سنة ١٩٠٢ ، ثم طلب مجلس شورى القوانين بعد ذلك إلى الحكومة ، أن تضع قانوناً خاصاً بالصحافة يقى الناس شرور طفيلياتها المؤذية .

لكن فيم هذا الطلب ، وقد كان القانون العام كفيلا وحده بصيانة الآداب والكرامات والأعراض من كل عدوان بالقلم أو اللسان ؟

٥ — عارض لورد كرومر وقال فى تقريره سنة ١٩٠٥ : « إن من رأيى أن تبقى الصحافة فى مصر حرة غير مقيدة بقانون خاص . ولست أرى من الجائز أو من المستحسن أن تمس الحرية العامة التى تستمتع بها الصحافة المصرية » .

٦ — وفى يونيه سنة ١٩٠٦ وقعت مأساة دنشواى ، فهالت فظاعتها رأى مصر العام ، بل الرأى العام فى العالم المتمدن كله ، وتوالت صيحات الصحف العربية وفى طلعتها اللواء والمؤيد اشتبشاعاً لما كان ، فأحدثت هذه الضجة المتجاوبة الأصداء أثرها فى انجلترا ، واعتزل لورد كرومر منصبه الذى قضى فيه عشرات السنين أشبه ما يكون بملك مطاع .

٧ — وحل محله سير ألدن غورست فى سنة ١٩٠٧، وهو على علم بأن الصحافة المصرية كانت من أكبر العوامل على زحزحة سلفه من حصنه الحصين . فلم يكن بدعاً أن يضمر للصحافة سوءاً ، بدأ أول مابدأ فى تهمة صحفية وجهت إلى المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش، وكان يومئذ يتولى تحرير اللواء .

ذلك أن جريدة اللواء نشرت مقالا أسندت فيه إلى حكومة السودان إصدار حكم بالإعدام على سبعين سودانياً ، وأنفذته فى أربعين منهم فى قضية (الكاملين) .

قدم الأستاذ جاويش إلى المحكمة الابتدائية فبرأته من التهمة الأصلية ، ولكنها أدانته فى تهمة فرعية هى القذف فى حق وزارة الحربية .

واستؤنف الحكم فقضت محكمة الاستئناف ببراءة الشيخ جاويش من التهمتين.

٨ — هنالك ثارت ثائرة العميد الجديد ، فعرض بنزاهة قضاة المحاكم الابتدائية

لا لسبب سوى أن واحداً منهم برأ متهماً أنحى على السياسة الانجليزية باللائمة .

ولعل هذه القضية وأمثالها كانت من الأسباب التى حدت بالحكومة إلى إحالة جرائم الرأى على محاكم الجنايات .

ولم يحاول سير ألدن غورست أن يخفى حنقه على الصحافة المصرية ، وحرصه الشديد على تقييدها ، خلافاً لسنة سلفه الداهية . وإليك فقرة من تقرير له فى هذا الشأن قال :—

« ازداد قسم من الجرائد العربية فى مصر قدحاً وكلاماً قارساً ازدياداً عظيما فى السنوات الأخيرة . وطفق ينشر الأراجيف والأخبار الكاذبة ، وينشىء المقالات المضللة عن أعمال الحكومة ونياتها ، ويلقى فيها الكلام على عواهنه بغير حساب ، فيزيد إدارة البلاد صعوبة على صعوبة ، وهو يتعمد فى كثير من مقالاته إيغار صدور العامة الذين هم الآن ولا يزالون إلى ما شاء الله من الزمان فى غاية من السذاجة لا يتيسر لهم معها نقد الأكاذيب والمفتريات والمطاعن التى تتلى على مسامعهم فى بلادهم كل يوم » .

« وترى الشبان المصريين الذين لا يزالون يتلقون العلوم فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ، يتهافتون على مطالعة هذه المقالات وأمثالها حتى لقد أفسدت ضمائر الأحداث المصريين الذين تعلق عليهم الآمال فى بلوغ مصر الحكم الذاتى ، بكثرة ما يلقيه على مسامعهم من أقوال الحماقة والجهل يوماً فيوماً » .

٩ — وما أشبه هذه اللهجة القديمة على لسان سير ألدن غورست باللهجة التى اتخذها دولة ... وفقهاؤه ، لتبرير القوانين الشاذة التى ابتدعوها لتعجيز الصحف عن أن تقاوم طغيان الطغاة ومطامع الطامعين وعمل العاملين على انتقاص حقوق البلاد .

ويتجلى الشبه العظيم بين أقوال سير ألدن غورست سنة ١٩٠٧ وأقوال دولة ... وفقهاؤه سنة ١٩٣٠ فى فقرة مأخوذة عن بيان دولته للتعديلات التى أدخلها على دستور سنة ١٩٢٣ قال :—

« والواقع أن طائفة من الصحف المصرية هى التى تبوء بتبعة استمرار المحنة التى امتحنت البلاد بها فى وحدتها . وهي المسئولة عن كثير من فساد الآداب العامة ، ومن تسميم العقول ، وحشو الأذهان بمختلف الأوهام والمفتريات .

« نعم قد كفل و يكفل قانون العقوبات لهذا النوع أسباب الزجر بما حدد من جرائم ، ورتب من عقوبات ، غير أن منتهك الأحكام الخاصة بجرائم الصحف ، يختلف عن من ينتهك أحكام القانون الأخرى — فى أن فعلته أوحى أثراً وأنفذ فعلا وأوسع دائرة وأعصى علاجاً » .

١٠ — على أن سير ألدن غورست مع ذلك لم يقدم على السعى لإدخال تعديل على قانون العقوبات ، لما خشى من نقمة المصريين على التعرض للقانون العام .

لذلك حصر همه فى السعى لإحياء قانون المطبوعات ، لأن نصوصه كفيلة بوقف الصحف أو إلغائها بأمر من ناظر الداخلية أو قرار من مجلس النظار .

١١ — لم يفقد لورد كرومر نفوذه فى سياسة مصر بعد اعتزال منصبه . وظل كلما استشارته حكومة فى إحياء قانون المطبوعات ، أجاب بأنه مقيم على رأيه القديم ، حتى أنهوا إليه أن مصر قد تبدلت فيها الحال غير الحال ، وأن جيش الاحتلال على الرغم من زيادته لم يعد يستطيع كبح جماح الرأى العام الثائر على الانجليز ، المطالب بالدستور والجلاء .

فلم يسع الرجل ، وقد جسموا له الخطر ، سوى أنه يفتى بأن الحالة فى مصر أصبحت تستدعى حماية الأجانب ، وأنه لا يرى بأساً من موافقة حكومة سمو الخديو على إعادة قانون المطبوعات ، لاسيما وهو موقن كل اليقين بأنه لن يطبق إلا عند الضرورة القصوى ، وعلى من يستحق تطبيقه من الصحفيين المتطرفين .

وفى سنة ١٩٠٩ بعث القانون الميت من مدفنه كما خلقه الخديو توفيق فى سنة ١٨٨١

١٢ — وظل قانون المطبوعات قائماً فى مصر حتى نشبت الحرب العظمى ، فأعلنت الحماية والأحكام العرفية ، وبدأت الرقابة على الصحف فى ٤ نوفمبر سنة ١٩١٤ ،

وألغيت فى ٢٧ يونيو سنة ١٩١٩ ، على أن يراقب الصحفيون صحفهم بأنفسهم . فلما استعصى عليهم القيام بهذه المهمة العجيبة ، أعيدت الرقابة فى ٥ مارس سنة ١٩٢٠ وظلت قائمة حتى ألغيت فى ١٥ مايو سنة ١٩٢١

١٣ — وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ألغيت الحماية ، وأعلنت مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، وألفت لجنة لوضع الدستور يعنينا هنا من أمرها مناقشاتها حول حرية الصحافة تمهيداً لوضع المادتين (١٤و١٥) من الدستور وتجريان بالنص التالى :

(حرية الصحافة مكفولة ، ولكل إنسان الإعراب عن فكره بالقول أوالكتابة أو التصوير أو بغير ذلك فى حدود القانون) .

(الصحافة حرة فى حدود القانون ، والرقابة على الصحف محظورة . وإنذار الصحف أو وقفها أو الغاؤها بالطريق الادارى محظور كذلك ، إلا إذا كان ضرورياً لوقاية النظام الاجتماعي) وقد نصت المذكرة الإيضاحية على أن المراد بعبارة (وقاية النظام الاجتماعي) (وقايته من البولشفية) :

١٤ — وأبدت لجنة الدستور فى خلال مناقشاتها غيرة شديدة على حرية الصحافة ، فكان مما قاله أحد أعضائها (على ماهر باشا) .

(إن الحرية الصحفية هى المظهر الأول لسائر أنواع الحريات الأخرى . وإنما أريد من إثبات هذا النص أنه لا يمكن ، ولا للبرلمان فى الأحوال العادية ، وضع الصحافة تحت أية مراقبة ، ولا يكون للسلطة الإدارية الحق فى منع أحد من إصدار صحيفة . وأرى أن يكون هذا الحق ثابتاً مطلقاً من كل قيد ، فإذا أساء أحد استعماله بأى نوع من أنواع الإساءة ، ففى القانون العادى غنى وكفاية) .

ولم يكن عبد العزيز فهمى « بك » يومئذ أقل حماسة من زميله فى تأييد حرية الصحافة فكان مما قاله : —

(عرض لى كذلك المبدأ الآتى : — لا حاجة إلى تصريح سابق من أى سلطة كانت لإخراج أى نشرة من أى نوع يكون ، ولا يجوز اقتضاء أية ضمانة من مؤلف النشرة أو مديرها أو ملتزم طبعها أو طابعها . والمراقبة والإنذارات الإدارية للنشرات

المطبوعة ممنوعــة ، إلى أن قال : — والحرية نفسها كفيلة بتنظيم نفسها وتطورها مع الزمن إلى الأصلح الأنفع) .

١٥ — كانت تلك يومئذ أقوالهم . ولا عجب . فذلك هو المبدأ الذى تأخذ به أكثر البــلاد المتحضرة . وفى مقدمتها انجلترا وأمريكا . فلا قيود للصحافة هنــاك سوى قيود القانون العــام . وقد حرّم التعــديل الأول لدستور الولايات المتحدة على الـكونجرس ، وهو الهيئة النيابية الـكبرى فى الولايات المتحدة أن يضع أى قانون يقيد من حرية النشر كائناً ما يكون .

١٦ — صدر دستور سنة ١٩٢٣ كفيلا بحرية الصحافة وحمايتهــا من الإلغاء والتعطيل ، إلا فى حالة واحدة هى الحض على قلب النظام الإجتماعى ، أى على الدعوة إلى البلشفية ، وكان صدور الدستور إلغاء لمــا احتوى قانون المطبوعات من مواد تنص على عقوبات . و إنما بقيت منه المواد الخاصــة بتنظيم صناعة الصحافة . غير أن كثيراً من المواد الرجعية فى قانون العقوبات ظل قائماً ، وفيــه نصوص كثيرة تبيح عقوبة الصحف بالتعطيل والإلغاء .

١٧ — وعندنا أن عقوبة التعطيل أو الإلغــاء ، مهما تكن الجريمة ، عقوبة مخالفة لروح الدستور ونصه . ذلك أن صناعة الصحافة ليست جريمة بذاتها ، كتزييف النقود أو تهريب الممنوعات أو إحراز المخدرات أو فتح أندية القمار ، حتى يجوز تعطيلها كصناعة ، أو مصادرة ما يستعمل فيها من الأدوات والأموال ، بل هى صناعة من أشرف الصناعات ومن أعظمها خــدمة للمجتمع . فلا ينبغى أن تعامل معــاملة الصناعات المقوتة المحرمة . وهل تصــادر المنابر أو تغلق المساجد أو تعطل المدارس لأن خطيباً أساء استعمال المنبر ، أو مؤذنا نادى بغير الصــلاة ، أو مدرساً ارتكب فى معهده أمراً يحرمه القــانون ؟ عقوبة تعطيل الجريدة أو إلغائهــا منافية أشد المنافاة لروح الدستور بل لنصوصه البارزة .

إن الدستور ينص على المساواة بين المصريين لدى القانون (المادة ـ٣ـ) وليس من المساواة فى شىء أن ينفرد الصحفيون بعقوبة لا توقع على سواهم من أبناء الوطن .

و إلا ثمن من المصريين تعطل مزرعته ، أو يخرب مصنعه ، أو يصادر رأس ماله ، لجريمة متصلة بالمزرعة أو المصنع أو رأس المال ، ولوكانت جريمة القتل العمد التى يعاقب مجترحها بالإعدام !

إن أطفال المحكوم عليه بالإعدام ليملكون بعد موته أن يستأنفوا أعمال أبيهم ، وأن ينتفعوا بميراثه ، وأن يصلوا ما قطعه حكم القضاء على أبيهم من أسباب الحياة . فلماذا يعامل الصحفى مالا يعامل القاتل الفتاك ؟ .

وعقوبة التعطيل أو الإلغاء خروج صارخ على مبدأ مأخوذ به فى جميع الشرائع والقوانين . وهو أن لا تمتد العقوبة إلى أشخاص لا يد لهم فى الجريمة .

وهل من الناس من يزعم أن العمال الذين يصفون الحروف ، أو العمال الذين يديرون المطبعة ، أو المهندس الذى يتعهدها ، أو الحسبة الذين يتولون دفاتر الجريدة ، أو الباعة الذين يرتزقون منها ، أو أبناء صاحب الجريدة وآل بيته الذين قد لا يكون لهم مصدر للرزق غير الجريدة — هل من النـاس من يزعم أن لأحد من هؤلاء يداً فى الجريمة أمام القانون ؟ .

وعقوبة التعطيل أو الإلغاء مصادرة للملكية بطريق غير مباشر . فإن الصحفى الذى يشترى مطبعة ضخمة قد يبلغ ثمنهـا عشرة آلاف من الجنيهات أو تزيد ، إذا ألغيت جريدته فلمن يبيع مطبعته و بأى ثمن ؟ أو كيف يفى بالتزاماته إذا كان ثمنها مقسطاً على سنين ؟ وكيف يدفع الدين للدائنين من تجار الورق والحبر ومن إليهم ممن يعاملون الجريدة معاملتهم لكل عمل صناعى محترم ؟ تلك مصادرة للملكية بطريق غير مباشر ، والدستور يقدس الملكية و يحرم مصادرة الأموال .

وليس بخاف على أحد أن الصحف الجديرة باسمهـا أشبه ما تكون بالمرافق العامة ، لأنهـا أداة للثقافة العامة ، ووسيلة فعالة إلى المصلحة العامة ، وسهم ناشب فى صدر الباطل ، ذائد عن حياض الحق ، فكيف تعاقب بالتعطيـل أو الإلغـاء ، على فرض أن شخصاً بعينه قد اتخذها فى بعض جمحاته أداة لمخالفة القانون ؟

هل عطل أو ألغى منصب رئيس الوزارة ، أو صودرت أدوات ديوان الرياسة ،

أوأغلقت وزارة الداخلية ، لأن دولته... اتخذ هذا المنصب أداة لمخالفة القانون فى كثير من أعماله ، بل اتخذه أداة لهدم الدستور الذى أحرزته مصر بالجهد الجهيد والمهج الغوالى !

١٨ — لكن دولته لم يكتف بما كان يحتوى قانون المطبوعات القديم من نصوص تقضى بإلغاء الجريدة أو تعطيلها من جرائم النشر ، فعمد إلى تلك المواد فوسع نطاقها وأضاف إليها ، وضاعف من عقوبة الغرامة فيها وعقوبة الحبس . ثم لم يكتف بذلك حتى عمد إلى قانون المطبوعات نفسه ، وقد كان دفيناً بفضل دستور سنة ١٩٢٣ ، عمد إليه فبعثه من مدفنه ، وضاعف من المواد المسمومة فيه . وإليك مثالا من مواده الجديدة فى قانون مطبوعاته الذى أصدره سنة ١٩٣١ ، وتجرى المادة (٢١ منه) بما يلى :

(كل جريدة تستمر على الصدور باسمها القديم أو باسم آخر بعد إلغائها تطبيقاً لأحكام هذا القانون ، أو أى قانون آخر ، يعاقب كل شخص مسئول عن صدورها . وفى هذه الحالة تضبط نسخ الجريدة وأدوات طباعتها إدارياً بمجرد ضبط الواقعة ، وتصادر) .

فإن لم يكن (دولته) قصد إلى المطبعة نفسها حين أجاز مصادرة (أدوات الطباعة)، فإنه لم يفته أنه ينص على جواز إغلاق المطبعة كما ترى فى المادة (١٤) من ذلك القانون:

(كل مخالفة لأحكام المواد ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ يجوز فيها أن يقضى الحكم الصادر بالعقوبة بمصادرة نسخ الجريدة وأدوات طباعتها وإقفال مطبعتها وإلغاء الجريدة نفسها) .

فهذا النص صريح فى تحريم الأعمال التجارية العادية على المطبعة بعد إلغاء الجريدة ، ولو حولت إلى طبع النتائج الفلكية ، أو كتب الحديث أو السنة .

١٩ — ثم ماذا أضاف (دولته) من بلاء جديد إلى مواد النشر فى قانون العقوبات ؟ لا نستطيع إحصاء هذه البلايا على وجه الحصر ، وإنما نسوق بعض الشواهد على طريق المثال :

كان الحد الأدنى لعقوبة الغرامة فى جريمة كيت ، خمسة قروش . إذن فليكن عشرين جنيهاً .

وكان الحد الأقصى عشرة جنيهات . إذن فليكن مائة .

وكان الحد الأدنى لعقوبة الحبس فى جريمة كيت ، ستة أشهر . إذن فليكن سنة .

وكان الحد الأقصى سنتين . إذن فليكن ثلاثاً .

كان للقاضى أن يختار بين عقوبتى الغرامة والحبس ، دون أن يجمع بينهما . إذن فليكن له أن يجمع بينهما بواسع رحمته للصحفى المسكين .

كان المفروض فى الصحفى حسن النية حين ينشر أخباراً ، أو ينسب إلى الغير أوراقاً يثبت فيما بعد أنها كاذبة ، إذن فليكن المفروض فى الصحفى سوء النية أولا ، ثم عليه هو أن يتفضل فيثبت حسن نيته إن استطاع .

كان تكدير السلم العام هو الشرط الذى يجب توافره ليستحق الصحفى عقوبة كيت . إذن فليكن مجرد القول بأن نشر هذه الأخبار « من شأنه » أن يلحق ضرراً بالمصلحة العامه كافياً للعقاب .

كانت المحكمة لا تملك منع الصحف من نشر الحكم تقديساً لمبدأ العلانية . إذن فلتملك المحكمة حبس الحكم عن الصحافة والجمهور .

كان فرض عقوبة التعطيل أو الإلغاء مقصوراً على جرائم ضيقة النطاق ، إذن فليتسع نطاق عقوبة التعطيل أو الإلغاء حتى تتناول أكثر جرائم النشر على نحو يضيق المقام عن إحصائه .

كان من حق الصحفى المتهم بالقذف فى موظف ، أو من فى حكمه ، أن يقدم أدلته أمام المحكمة . إذن فليبطل هذا الحق ، وليتفضل الصحفى بتقديمها فى الخمسة الأيام التالية لاستجوابه ، وإلا فوالله لو عجز عن تقديمها فى تلك الفترة ، ثم ساعفه بعد ذلك ألف دليل ودليل ، فقد سقطت أدلته جميعاً ولن تسمعها المحكمة أبداً .

ذلك قليل من كثير من الأيادى التى أسدتها عبقرية دولته إلى الصحافة والصحفيين .

٢٠ — لكن الداهية الدهياء، جريمة نشر جديدة، استحدثتها تلك العبقرية سنة ١٩٣٢ وهذه الجريمة هي :

(استعمال عبارات من شأنها — (ما ألطف من شأنها هذه) — تعريض نظام الحكم المقرر في القطر المصري للكراهية أو الازدراء، أو أن تشكك في صحته أو سلطانه، أو نشر أخبار كاذبة لها هذا الشأن). وعلى ذلك فليقفز إلى منصة الحكم في مصر، من يواتيه القدر من أهل العقوق أحلاس الفتن. وليغلبوا هذا البلد على أمره بقوة السلاح، وليستهووا من يستهوون من النفر القليل الضئيل بقوة الجاه وقوة المركز وقوة المال.

فإذا شمرت الصحافة المصرية عن سواعدها للنضال، وجردت أقلامها للمقال، فإلى السجون و إلى الخراب. لأنه كان في وادي النيل دستور يكفل حرية الرأي، وحرية الدفاع الصادق عن المبادئ الوطنية العليا، فأقام دولته على أطلاله قانوناً يحمي الحكم المقرر في القطر المصري من الكراهية والازدراء، ومن التشكيك في صحته أو سلطانه! نعم ولو كان واضع النظام (النيروني) فرداً كسائر الأفراد، بل دون سائر الأفراد حسن أخلاق وشرف غاية ونزاهة حكم.

نعم ولو كان النظام المقرر رميماً بالياً من آثار القرون المظلمة.

للحكام المطلقين إذن أن يقرروا وعلينا أن نرضخ! لهم أن يأمروا وعلينا أن نأتمر. لهم أن يخيفوا و يرهبوا، وعلينا أن نقبع في الحجور وأن نخاف.

ألا سحقاً إذن للصحافة والصحفيين وللحرية والأحرار وللوطنية والوطنيين، إذا لم يؤثروا غيابات السجون بل غصص المنون، على الخضوع لمثل هذه المادة التي لاتسن إلا لقطعان من العبيد.

ومعاملة المحكوم عليهم في جرائم الرأي، هل ينبغي أن تظل على ماهي عليه في بلد متحضر أو طامح إلى الحضارة؟ ألم يأن للمحبوس السياسي أو الصحفي — وقل أن تصدر جريمته عن دافع سوى الحمية الوطنية وفرط الإيمان بالعقيدة والمبدأ — ألم يأن له أن يعامل غير معاملة اللصوص والقتلة وتجار المنكرات؟ إني لأعرف صاحب

جريدة يومية مقروءة له مكانة بين زملائه فى الصناعة ، وله مكانة بين إخوانه فى المبدأ ، وله مكانة فى المجتمع — قضى شهور سجنه فى غرفة تجاورها زمرة متهمة بالسرقة والاتجار بآداب الناشئين ، وتقابلها غرفة متهم بقتل ثلاث أنفس زكية — وقد حكم عليه بالإعدام بعد حين .

وإنى لأعلم أن ذكرى ذلك الجوار وتلك البيئة مازالت تعاود صاحبنا الصحفى ممزوجة بشعور غريب .

يذكر أنه لبس اللبدة شهوراً بين القتلة واللصوص وتجار الغواية ، وأنه ارتدى البذلة الزرقاء ، وحمل على صدره لوحة من النحاس مرقومة برقم معلوم ، بين القتلة واللصوص وتجار الغواية ، وعرف كيف يفترش الحصير على الأسفلت فى زمهرير الشتاء ، وعرف كيف يعامل فى سجون مصر محبو مصر وأبناؤها المخلصون .

ثم يقول صاحبنا الصحفى لنفسه : «ومع هذا لو عاد دولته أو مثل دولته إلى مثل ماصنع ، لعدنا إلى مثل ما كتبنا » ولو استحال السجن إلى درك يتلظى فى أعماق الجحيم .

إن الصحافة المصرية مقيمة على عهدها الوثيق . فطغيان نيرون لايزدهيها ، وأموال قارون لاتثنيها عن المبدأ القديم .

وفى نهاية هذه الكلمات يسعدنى أن أرسل تحيات لجنة الصحافة لدى مؤتمرنا العام إلى زملائنا أعضاء الأسرة الصحفية من إخواننا الأجانب فى هذه الديار، شاكرين لهم مايبذلون فى سبيل المثل الإنسانية العليا من نصرة الحق وتأييد الحرية وتعميم السعادة بين الأفراد والطوائف والشعوب .

ذكرى محمد محمود باشا [1]

أيها السادة :

كان الفقيد العظيم أسداً فى صولته ، أسداً فى نبله . ولقد سكنت العرين مع الأسد ، سنين ، سنين تلقيت فيها دروس الجهاد للعقيدة ، فما هالتنا الكثرة ، ولا جرفنا السيل ، ولا أطفأت شعلتنا العواصف . حتى إذا أتممت دراسة الكفاح فى المدرسة النبيلة المحمدية ، واشتد فى رأيى ، حيالُ أبينا الأسد ، فخشيتُ منه الخطر ، لا على نفسى ، ولكن ، على الهدف المشترك . تركت العرين آسياً ، وسدّدت ملامي إلى الحبيب ، باكياً ، من الأعماق . والذنب أو الفضل له ، فعنه أخذت إقدامى ، وفى معسكره ، أرهفت قلمى ، وعلى مذهبه ، قدست نجوى ضميرى

وأعلنت ثورتى وغضبى وأنا الضعيف بشخصى ، فما ثار ، ولا غضب ، وهو القوى بوزارته ، وجاهه ، وسلطانه المطلق . هنا نبل الأسد ، لم يتعقبنى بالأذى فى شخصى ، ولا فى كرامتى ، ولا فى رزقى . ولو اخترت البقاء حيث كنت ، فى الجامعة المصرية ، ولم أستقل ، لعشت أنا الموظف الثائر ، آمناً مطمئناً ، فى ظل ما نسمّيه الحكم المطلق — المطلق يومئذ ، من قيود الدستور ورقابة البرلمان ، المقيد يومئذ بقيود الذمة والمروءة والنخوة .

أيها السادة :

ربما عاشت روح الدستور ، وهو محجوب فى القلوب . وربما ماتت روح الدستور ، وهو ظاهر للعيان كالمومياء .

فارقت العرين سنة ١٩٢٨ ، وهجرت الصحافة ، سنة ١٩٣٨ . عشرُ سنوات

---

(١) ألقيت بنادى الأحرار الدستوريين بمناسبة الذكرى الثامنة لوفاته .

كاملات ، وُلّىَ فيها الفقيد حكم البلاد ، حقبتين . وكنت فى الحقبتين ، من معارضيه . كنت من معارضيه الدائبين كل يوم على مقال ، وفى كل مقال حرارة . ويدوم ذلك يوما بعد يوم ، وشهراً بعد شهر ، لاتهبط حرارتى ، ولا ينفد صبره . فهل كان صرير هذا القلم طنين بعوضة . والله لو كان كذلك ، وألحت البعوضة هذا الإلحاح المنكر ، على سمع طياش أهوج ، لغضب ، ثم حقد ، ثم بطش . فإن صحّ أن الفقيد العظيم غضب ، فما أملكه كان لغضبه ، أو حقد فما أكظمه كان لحقده ، أو همّ بالبطش ثم ، سكن ، فقد أبى أن يقال فيه « إن ابن محمود ، كريم العجز ، لئيم المقدرة » .

على أن يقينى أنه لم يغضب ، ويقينى الأوثق ، أنه لم يحقد . لم يحقد الأسد الراحل قط على أحد . مساءةُ الصباح ، يمحوها الليل ، ومساءة الليل يمحوها الصباح فلا عجب أن يُصبح خصومُ أمسه ، أصدقاء يومه . ألا تذكرون خصومة العقاد ، ثم ألا تذكرون بعد ذلك صداقة العقاد ، لمحمد محمود . لقد كان كاتبنا العبقرى ، مثال الصدق فى الحالين . كان صادق الخصومة ، ثم كان صادق الود . والعقاد لا يعرف الزلفى ، ولا يلتفت ، إلا حيث يلتفت به الوجدان . ولو كان فى العقاد حلف كاذب ، أو فى الفقيد العظيم ، حقد دفين ، ماتقدم هذا الركن الشامخ من الأدب العربى الحديث ، ليصافح ذلك الركن الشامخ ، من الرجولة ، والزعامة ، وجلائل الشيم .

***

أيها السادة :

لقد كان أهلاً للمحبة والولاء . ولئن كنتُ عارضت فيه سياسة الحاكم ، من حيث القواعد المقررة ، لقد أحببت فيه نزاهة الرجل ، وشجاعة الرجل ، وطهر ذيله وجيبه ، وعفة لسانه وسمعه : —

أُحب الفتى ينفى الفواحش سمعهُ كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لاباسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ، ولا قائلا هجرا

أيها السادة :

قد نجهل بعض نواحى الفقيد العظيم ، فنحسب أنفته العيوف ، كبراً ، ونحسب سموّه الأصيل ، زهواً . ثم نعرفه ، فإذا : —

لنا جانب منه دميث ، وجانب إذا رامه الأعداء ، ممتنع صَعْب
وتأخذه عند المكارم هزة كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب

أيها السادة :

إذا مات الغنى صاحب الملايين ، كان عزاؤنا فى فقده ، بقاء ماله بين أيدى الوارثين والمنتفعين . وإذا مات العالم ، أو الفيلسوف ، أو صاحب الفن الجميل ، كان عزاؤنا عن فقده ، بعض الآيات الباقيات من علمه ، أو فلسفته أو فنه . أما بطل النبل ومكارم الأخلاق ، إذا مات ، جل فيه الخطب وقل العزاء . إنه مصباح منير ، يتحول عنا بنوره إلى السماء . ذلك أن الأخلاق خصائص نفسية هى قوام روحه ، فإذا صعدت الروح إلى بارئها ، صعدت معها فضائلها ، لأنها ذاتية ، ولم يبق لنا هنا ، على هذه الأرض الفقيرة إلى الضياء ، سوى ذكرى المثل الكريم .

***

والأخلاق الكريمة ، تاج علوى ، يتميز به قليل من الناس . ألا ترى أن العلماء فى مصر كثير ، وأن الأغنياء فيها كثير ، وما زالوا اليوم يزدادون كثرة ؟ وإنما الأزمة الكبرى ، أزمة الأخلاق . كلام قديم معاد . ولكنه صدق مُعاد . وليس معقولا ، إذا طال المرض أو تفاقم ، أن تقل منه الشكوى ، مخافة الإملال . وإنما المعقول أن تعم الشكوى ، عسى أن يعم التفكير ، وعسى أن يبدأ التدبير لأسباب النجاة .

وكلما فكرنا فى الأخلاق المراض ، ذكرنا أضدادها من الأخلاق الصحاح ، بحكم تساوق الخواطر . وكلما فكرنا فى الأخلاق الصحاح ، مثلت أمامنا صورة نقية أبية ، مستعصية على النقائص ، صدوف عن الريب . مثلت أمامنا صورة فقيد الكرامة والشمم ـ محمد محمود . إنى أتمثل همته الشماء فى جسمه العانى ، فأرى سيفاً

صقيلا ، شف عنه الغمد ، وقـــد أرى أغماداً مصقولة ، ليس فيها سيوف .

أتمثله لايبيع حبة خردل من مروءته ، بالقناطر المقنطرة من الذهب . أتمثله يصوم حتى الممات ، ولا يأكل السحت . أتمثله لو أصبح فى ثياب غاندى ، وفى مثل عيشه ، عن رقة فى الحال ، لاعن زهد فى المال الحلال . ثم سيم الخسف ، أو حمل على الذل ، لانتفض الأسد الهصور فى أسماله ، وأرسلها مدوية بين أشباله : ياأشبال الوادى ، هلموا فادرأوا العار :

فإن تكن الأيام فينا تبدلت ... بنعمى و بؤسى ، والحوادث تفعل
فما ليَّنت منا قناة صليبة ... ولا ذللتنا للتى ليس تجمل
ولكن رحلناها نفوساً كريمة ... تُحمَّل مالا يستطاع ، فتحمل
وقَيْنَا بحسن الصبر منا نفوسنا ... فصحت لنا الأعراض والناس هزّل

عناصر الإيمان فى قلوب الشباب[1]

سيداتى وسادتى و يا شباب مصر المرجى :

أبدأ بربى فأشكره على هـذه الفرصة المواتية ، أعالج خلالها موضوع الإيمـان فى قلوب الشباب .

ثم أشكر بعـد ذلك وزارة الشؤون الاجتماعية ، على ما تفضلت به من دعوتى إلى إلقاء هذه المحاضرة .

ثم لا أنسى أن أحمد لقسم الخدمة العامة من هـذه الجامعة الأمريكية الفاضلة ما تسهم به من تثقيف أبنائنا و إنهاض مجتمعنا من نصيب موفور .

كما أشكر للسادة الحاضرين حضورهم ، وللسامعين خارج هذه القاعة استماعهم ، ولرجال الإذاعة جهدهم الـكريم .

سيداتى سادتى :

لقد نصبت لنفسى شركا ، حين اخترت موضوع الإيمان ، ثم جعلت الشرك محكما حين اخترت أن أوجه الـكلام فى الإيمان ، إلى شباب مصر من فتيان وفتيات .

ذلك بأن الإيمان قد يكون معناه التقى والورع ، والتقى عند بعضهم أشبه بالشيوخ المودِّعين منه بالشباب المقبلين . ألا يُسمى رسوخ بعض العقائد فى بعض النفوس إيمان العجائز ؟ . فليس ظريفاً إذن ولا طريفاً ، أن يحسب فتياننا شيوخاً ، أو فتياتنا عجائز ، و إن كان ذلك المصير — أطال الله حياتهن وحياتهم — لا بد منه بعـد خمسين عاماً فإن شاءوا فمئة .

ومما يزيد فى صعوبة الموضوع أن يجىء علاجه فى وقتنا الحاضر .

لقائل أن يقول : ألست فى الدنيا ؟ ألا تقرأ الصحف ؟ ألا تسمع الإذاعة ؟ ألا ترى أن نور الإيمان بالحق والنصفة قد انطفأ فى قلوب المنشدين لأغنيـة النصفة والحق ، يوم انطفأت نيران الحرب واشتعلت نيران الشهوات القديمة من جديد ؟

---

(١) محاضرة ألقيت فى نوفبر سنة ١٩٤٥

أليس بعض الأقوياء يريد اليوم أن يبسط سلطانه على رفات الضعفاء ؟
أين أهازيج الحرية ؟ أين مزامير الإنسانية ؟
أين جنة الدنيا التى وعد بها الآدميون ؟
ثم أتكلم اليوم على الإيمان ؟! وأوجه حديث الإيمان إلى الشباب ، و إلى الشباب فى مصر خاصة ... !

أنى لهم المثل العليا وقد أصبح كثير منها أثراً بعد عين ، وأطلالا بعد قصور !
أنى لهم المعانى السامية ، والشباب ينظر حوله فيرى كثيراً من الناس مفتوناً بالمال ، أو مفتوناً بالجاه ، أو مفتوناً بالصالح الخاص ، يقدم على مذبحه مصلحة البلاد فدية وقرباناً !!

***

رويدكم أيها الشباب المرجَّى . إن يكن كثير من الأسود المصرية قد هدها الدهر بمحنه و بلاياه ، فأنتم الأشبال المتوثبون ، وأنتم الورثة المأمولون ، تجددون من المُثل المنشودة ما تهدّم ، وتقيمون منها ما مال . وناموس النشوء والارتقاء ، يوجب على الأبناء أن يكونوا أصلح للحياة من الآباء .

إن العلم فى عصركم أغزر ، وأسبابه أوفر ، وأشعته أعم وأبهر . وفى متناولكم وأنتم فى مقتبل الحياة الانتفاع بكل كلمة ملهمة ، يقولها مصلح ساعة يذيعها بالمذياع ، من أقاصى الشرق أو أقاصى الغرب ، فإن لم يذعها اللاسلكى صوتاً مسموعاً ، فهو يذيعها لفظاً مطبوعاً بعد ساعة أو ساعات .

كونوا بأحداث دنياكم على صلة . كونوا أبناء عصركم فى كل جد ، ولا تكونوا أبناء عصركم فى كل هزل .

لقد هزلت مصر طويلا ، واسترخت بل استنامت أجيالها طويلا . واليوم آن لهذا الجيل أن يهب هبة الأبطال ، إلى مستقبل أدواته العلم فى أحدث مراحله ، والخلق فى أمتن صوره ، والطموح بهذا النيل إلى مثل مجد المسيسبى ومجد التيمز .

إن شباباً أجدادهم الفراعنة ، وآباؤهم العرب ، وملكهم شبل فى مثل سنهم ، طموح إلى مجد بلاده ، طُموحَ جده الأعلى وطموح أبيه ، لشباب جدير بالأريحية ،

جدير بالعزة بل جدير بأن يطفر الطفرة العظمى التى يزعم الزاعمون أنها محال .

سيداتى وسادتى :

أبناء مصر يقفون اليوم بين ماض طويل من الألم ، ومستقبل مديد لا أقول من الأمل فحسب ، بل أقول من الأمل المعزز بالعمل .

وإذا ذكرنا الأمل والعمل ، مثلت فى أخيلتنا صورة الشباب على أكمل الوجوه المرجوة ، أو أقربها إلى الكمال . ذلك بأن ازدهار هذا البلد العريق ، وانبعاثه من عالم الأمانى الحائرة إلى عالم الحقائق المثمرة ، ليس عُدَّته جيلا كبعض جيلنا نحن الآباء المخضرمين ، الذين عاصروا خليطاً من اليأس والرجاء ، ومن الكرامة والمهانة ، ومن الجهاد سنة والرقاد سنين ، وإنما عدة مصر فى غدها ، وسلوتها عن أمسها ، أبناؤها الفتيان الذين أناديهم الليلة هذا النداء — نداء الأمل — يبرره ويحققه الاعتزام والعمل .

* * *

لكن أى أنواع الأمل ، وأى أنواع العمل ؟ هنا صميم الكلام . هنا جوهر الموضوع . ليس فى الأحياء من ليس له أمل ، وأكثر الناس يشغله عمل . فما حكمة هذه الدعوة إلى تحصيل حاصل ، وإيجاد موجود ؟ هذا فتى يكب على الدرس لإحراز درجة ممتازة من الجامعة الأزهرية ، أو جامعة فؤاد أو فاروق . وهذا فتى أتم علومه ثم حظى بأريكة مريحة من أرائك الحكومة ، جلس عليها متربعاً (متسلطناً) مغتبطاً فخوراً . وهذا آخر قد استفتح باب العمل الحر فانفتح . وهذا ثالث طالما عالج الباب فاستعصى ، ولا ذنب للمسكين ، فالأمل يدفعه ، والرتاج المغلق يمنعه . وهذا صانع دائب على صناعته . أو زارع دائب على زراعته . فمن ذا من شباب مصر لا يأمل ؟ ومن ذا منهم لا يعمل كادحاً فى عهد الدراسة . أو لا يعمل كادحاً بعد ذلك فى الحياة ، إلا أن يطلب العمل فلا يجده ؟ .

* * *

هذا كلام صحيح ، لكنه غير ما نقصد ، إذ ربما انطوى الفتى على أمل واهتدى إلى عمل ، دون أن ترقى مصر بأمله أو عمله درجة ، أو تتقدم خطوة . ذلك إذا سيطرت

الغرائز البدائية وحدها على قلوب الشباب ، ولم يهذب من طبيعتها ويكف من شططها وازع الإيمان .

وأريد بالإيمان شعورك فى كل حين ، أو فى أغلب الأحيان ، بأن رباطاً وثيقاً يربطك بمصدر وجودك ، أى بالقوة العليا التى أرسلتك إلى الدنيا ، لتبلو فيها صنع يديك وسعى قدميك ، ولتنظر فى أى مدار يدور فكرك ، وبأى شعور يختلج قلبك ، ثم تدعوك بعد انقضاء ما كَتَبَتْ لك من أيام العمر ، لترفع إليها ثمرات رسالتك فرحاً بما سعيت فأحسنت المسعى ، وصنعت فأحسنت الصنيع ، وبما شع من رأسك من ضياء زاد حياة العالم أو قل حياة الوطن إشرافاً وبهجة ، وما فاض من فؤادك من كل عاطفة نبيلة وهمة عالية ، همة خَدومٍ للأسرة المصرية الكبرى خدمتها لأسرتك الصغرى ، حتى إذا ودعتَ أمتك ورجعت إلى سيدك الأعلى حبيب الاحسان والمحسنين ، عدو الإساءة والمسيئين ، جعلت كتابك بيمينك ، وقلت ربى إنى أطعت مشيئتك ، واهتديت بهداك فنفعتَ إخوتى ما وسعنى الجهد ، وطاولنى العمر ، جاهدت فقر الفقير ، ومرض المريض ، وجهالة الجاهل ، وناصرت العدل والمعروف ، وحاربت الجور والمنكر ، لا بأضعف الإيمان ولكن بأمتنه وأقواه ، وأحسبنى أديت الرسالة الربانية التى حمَّلتَنِى ، وأكرمت الروح القدسية التى أودعتنى ، فشيعَتْ مصر شيخوختى إلى قبرها تشييعاً كريماً ، كما استقبلتْ مصر طفولتى فى مهدها استقبالا كريماً ، ومصر بخير يا رباه لأنى تركت فيها من المؤمنين ملايين !

* * *

هل ترى الآن إلى أى مستوى من الأمل أدعو الشباب ، وإلى أى مستوى من العمل ؟ إن المرء قد يصلى ويصوم وليس له من صلاته وصيامه سوى النصب والجوع ، لا لشىء ، سوى أنهما قد تكون عبادة آلية ينقصها الشعور العميق الباطن . فكيف بالآمال والأعمال الدنيوية ، إذا كان مبعثها حب الذات دون شىء آخر ، أو شخص آخر ، غير الذات . إنها إذن الغريزة الأولية لا فضل فيها لصاحبها إلا على صاحبها إن الغريزة البحتة أثَرةٌ . أما الإيمان فإيثار . أن الغريزة مساك الفرد وحده . أما الإيمان فمساك الجماعة . إن الغريزة شهوة يشاركنا فيها الحيوان الأدنى ، بل عنه وعن الطين

الذى خلق منه ورثناها . أما الإيمان فعقيدة من نور وضاء و إحساس من رحمة شاملة وعزيمة من نار مباركة . إن الغريزة منحة الأرض . أما الإيمان فمنحة السماء . كأن الإنسان بناء من طابقين ، تسكن الغرائز طابقه الأسفل ، و يسكن الإيمان طابقه الأعلى . فهل تصعد غرائز الشباب إلى عل ، أم يهبط إيمانهم إلى سفل ؟ إن عليهم اليوم أن يختاروا بين الأمرين فى عزم حازم . فإما أن يعيشوا لأنفسهم عيش الغرائز ، وأما أن يحيوا لأنفسهم و بلادهم حياة الإيمان ، إن لم نقل لبلادهم أولا ، ثم لأنفسهم بعد ذلك .

* * *

إن مبدع هذا الكون قد أبدعه وأخضعه لناموس الترابط بين أجزائه المترامية الأبعاد فى الفضاء السحيق ، فكيف بترابط أبناء الإنسانية ، بل كيف بترابط أبناء الوطن من شطرى الوادى شماله والجنوب !

كلما فكرنا فى خلق السموات والأرض ، تجلت حكمة الله للأبصار والبصائر . وحكمته جل شأنه تجاذب محكم ، وتماسك مشترك بين الشموس والكواكب والنجوم . ولو فقد كوكبنا هذا الذى أحدثكم الليلة من بعض نواحيه ، لو فقد صلته بأخوته من الكواكب طرفة عين ، أو صلته بأمه التى تمده بالحرارة والنور ، لما احتاجت الدول العظمى إلى أشعة الموت أو قنابل الذر لتدمير الحضارة أو محو الأعداء من صفحة الوجود ، فكل شىء لحتئذٍ هالك إلا وجهه .

كيف لا نؤمن بأن كل إنسان خلق لكل إنسان ، و بأنه أولى بكل مواطن أن يكون مخلوقا لكل مواطن ، وهذه آيات الله حولنا و بين أيدينا ، تعلمنا أن الحياة العالية بذل من ذات النفس فى سبيل الغير . والله تعالى عن أن نسمى عطاءه بذلا ، قد نفخ من روحه الأقدس فى آدم ، فوهب له ولأبنائه نفحة علوية ، سمت بهم عن الحيوان ووصلت قلوبهم بالملأ الأعلى ، و إن ظل أكثرهم عن سرهم الأعظم غافلين .

و إذا كان أكثر الناس ما زالوا يجهلون تركيب أجسامهم ، ووظائف أعضائهم حتى اليوم ، بل إذا كان أرسطو وهو المسمى بالمعلم الأول بين الفلاسفة ، كان يجهل أن فى الجسم أعصابا و إذا كان الطب الحديث لم يهتد إلى دورة الدم فى الإنسان والحيوان

إلا منذ عهد غير بعيد ، ولم يهتد إلى حقيقة الهرمونات والفيتامينات إلا منذ بضع عشرات من السنين ، وعليها تتوقف وظائف الجسم جملة وتفصيلا ، وما زالوا يكشفون كل يوم حقيقة جديدة فى شأن هذه الأجسام الكثيفة ، رغم تشريح الألوف منها فى مئات السنين ، ورغم العكوف على درسها واستقصائها فى كل مستشفى ، وكل جامعة ، فهل من عجب أن يجهل الإنسان أشف أسراره وألطفها وأخفاها ؟ أن جهل الفيلسوف الأكبر لوجود الأعصاب ، لم يلغ وجود الأعصاب ، وجهل الطب لدورة الدم ووظائف الغدد ، لم يلغ وجود الدورة ووجود الغدد . فقد كانت كلها تؤدى وظائفها منذ ألوف الألوف من السنين فى الإنسان والحيوان . فجهل الناس بالروح لا يجوز إذن أن يساق دليلا أو شبه دليل على أنها وهم أو خيال ، بل عذرنا فى الجهل بطبائع الأبدان أوفر من عذرنا فى الجهل بطبيعة الروح .

غير أن الفرق بين الجهلين فرق خطير . فالكبد تفرز الصفراء ، والقلب يوزع الدم على الأعضاء ، والرئة تقبل أوكسيجين الهواء وتطرد ثانى أوكسيد الكربون ، سواء اعترفنا بوجود الكبد والقلب والرئة ، أم أنكرناه . لكن الروح ليست كذلك . أنها لا تكاد تضىء حتى نستضيئها ، ونقر لها بنسبها الأسمى ومصدرها المجيد . يومئذ لن يحتاج الشباب إلى مثل هذه المحاضرة ، لأن انبثاق الحيوية من عزيمته ، وموالاة الخدمات الجليلة لأمته ، سيأتيان عفواً كما يؤتينا النحل شهده ، والغيث مدراره ، والنيل فراته ، أو كما تضىء لنا الشمس والقمر ، أو كما تدنو قطوف الثمر ويتضوع أريج الزهر ، لأنها روح ربانية عرفناها فعرفتنا ، بعد أن أنكرناها طوال الدهور فأنكرتنا .

آه أيها السادة . أنه الجهل بهذه اللطائف المودعة فى كل صدر من صدور بنى أبينا الأول ، أنه الجهل بهذه الشموع المطفأة التى لا تنير إلا إذا عرفناها وقدرناها وعبدنا بها الخالق ، ونفعنا بها المخلوق ، إنه الجهل بهذه الجواهر العلوية ، هو الذى يشقى الدنيا ويجعلها جحيما فى الحرب ، وشبه جحيم فى السلام . ولن يزايل الوحش قلوب البشر ، ولا الشقاء حياة الأمم ، حتى ترجع إلى الله . ألا نرى كيف سلط عليهم علمهم الحديث فكشف لهم قوة الذرة ، وهيأ لهم إطلاقها ؟ فإما إلى حضارة جديرة بالبقاء وإما إلى الفناء .

إن الله طرد أبانا من الجنّة لما أضله إبليس . و إبليس ما زال يتعقبنا بالتضليل ، حتى يطردنا الله من الأرض . لكنه تعالى أسلمنا وسيلة الدمار والعمران ، وكأن لسان القدرة يقول : أيها الإنسان لقد آن لك أن تبلغ الرشد فتحكم — هل تريد المكث فى الأرض أم تريد الزوال . لقد كان الله يوالى إليك رسله وينزل عليك كتبه يوم كنت ساذجاً لم تعط من العلم ما قد يعرفه اليوم صبى فى مدرسة ، مركبك فيل أو بعير ، وسلاحك قوس أم رمح ، تجتزىء بقرصة من شعير ، وتأوى إلى بيت من شعر . أما الآن فقد انتقلت بحضارتك إلى الغرب ، فكشف لك كثير من علم الله لم يكن كشفه لك يوم قال فى كتابه المنزل على رسوله محمد « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وأنت برغم هذا تتخذ من علم الله نقمة، و يريده رحمة ، وتتخذ منه جوراً وبؤساً ، و يريده عدلا ونعمى .

الآن أيها الإنسان أعطاك الله الخيار فى البقاء إنساناً مرحوماً ، أو الهلاك وحشاً غير مأسوف عليه ولا مرحوم !

سيداتى وسادتى :

نشر الكاتب المفكر الكبير . ج . ه ويلز ، فى إحدى المجلات المصرية الكبرى منذ أسبوعين مقالات طافحة بالتشاؤم ، تنبأ فيها باقتراب الساعة أو فناء هذا الكوكب عما قليل ، وهو فى نحو الثمانين من عمره ، وكثيراً ما تنبأ وصحت نبوءاته . فهو أول من كتب قصة عن الطيران قبل ظهوره بسنين طوال ، وهو أول من تنبأ بالقنبلة الذرية منذ ستة وعشرين عاماً أو تزيد . وهو يبنى تشاؤمه على أن الإنسان الحاضر قد أصبح عاجزاً عن أن يتكيف بالكيف الذى يلائم البيئة والمحيط . ورجع فى ذلك إلى علم الحياة ، وساق على قوله شواهد وأدلى بحجج وأسانيد ، وأكبر الظن أنه رأى الدول العظمى ، بل بعض الدول المتوسطة عاكفاً دائباً على كشف أسرار القنبلة الذرية ، ليصنعها كما صنعتها الولايات المتحدة ، وكما تصنعها انجلترا وكندا . كأن الكاتب الكبير يرى أن المحيط البشرى على وشك أن يعمه إنتاج تلك القنبلة الساحقة الماحقة ، و إنتاجها على طرق تجعلها أهول من القنبلتين اللتين ألقيتا على مدينتى

اليابان عشرين مرة أو تزيد . وإذا عم ذلك الهول مصانع الدول ، كان من المحتوم أن يستعمل فى نوبة جنون أو ثورة غضب ، ومعظم النار من مستصغر الشرر . فكيف وليس هذا شراراً وإنما هو جهنم الآخرة ، تتعجل الأحياء فى الدنيا . وكل حرب تنشب فى هذا العصر بين دولتين يغلب أن تستحيل حرباً عالمية . ومئة قنبلة من القنابل الذرية المكبرة ، كفيلة بأن تمحو المدائن المئة الكبرى من عواصم الدنيا شرقاً وغرباً . هذا ما أراده ويلز بقوله ان الانسان قد فقد ملاءمته للمحيط الذى يعيش فيه ، أى فقد قدرته على البقاء فى هذا الكوكب . ففناؤه رهن بحرب قادمة ، والحرب القادمة قد لا تكون بعيدة النشوب .

أما أنا فأخالف المفكر الكبير فى هذه النبوءة الحالكة . وأومن بأنه مهما تكن فداحة الخطر ، بل مهما يقع بالفعل ذلك الخطر ، فإن الأمر لن يصل بالإنسانية إلى حد الزوال .

إن رب العالمين حكيم عليم . ولو علم أن الإنسان سيفنى نفسه بهذا السلاح الجديد لما مكنه منه .

والإنسانية لن تبرح هذا الكوكب حتى تدرك ربانيتها فيه . ولا تجفلوا من قولى (ربانيتها) ففى حديث قدسى : « عبدى أطعنى أجعلك ربانياً تقول للشىء كن فيكون » .
ورقى الإنسانية إنما هو حكايتها لصفات الله العليا من علم وعدل ورحمة .
أما العلم فهى سائرة فى طريقه بخطى سريعة .

وإنما تخلفها وبطؤها فى الاتصاف بصفتى الرحمة والعدل . ولن يسمح لأبناء آدم بالانقراض من الأرض ، حتى يستكملوا ما يريده الله لهم من تينك الصفتين .

قد تبيد دول أو تذل شعوب ، لكن سيبقى الإنسان ما بقى له فى هذه الدنيا درس لم يتعلمه ، أو فضيلة لم يحرزها .

سيداتى وسادتى :

ليس هذا الكلام استطراداً ، أو خروجاً عن موضوع الإيمان . فقد يعلق بنفوس بعض شبابنا شىء من التأثر بقول مستر ويلز ، وهو كاتب واسع الشهرة

فى شؤون الاجتماع ، كثير التفكير فى أمراض المجتمع . فإذا تشاءم بتشاؤمه بعض الشباب ، قعد بهم ذلك عن الإيمان ، وحسبوا وجود الانسان فى هذه الدنيا عرضا عابراً ، قد يزيله ظرف طارىء ! .

والحقيقة الخفية هى أن النوع البشرى تلميذ فى مدرسة هذا الكوكب ، ولن تغلق المدرسة أو يقوض بنيانها حتى يتخرج . وتخرجه سيطول ألوفاً وألوفاً من السنين .

وإنما أطلت فى مخالفة ويلز وأعلنت ذلك ، لسابقة فى التاريخ مماثلة لموقفه ، كان بطلها القديس بولس ، فقد نفث فى روعه بعد صعود السيد المسيح بسنين ، ان الساعة قد اقتربت ، ليس بين الناس و بينها سوى زمن قصير . لذلك ثبط عن الزواج وأنذر الراغبين فيه بأن حياتهم الزوجية لن تطول ، لأن الساعة وشيكة الحلول . ومن هنا اتهمه خصوم الكنيسة وفى طليعتهم مستر برنارد شو ، بأنه كان أول من بغض الزواج إلى المسيحيين الأولين ، فحرمهم بذلك حقاً مشروعا لم ينه عنه المسيح .

وشبابنا المثقف القادر ، كثيراً ما يتجنب الزواج على نحو يشبه الإضراب ، فلا حاجة بنا إلى سبب جديد يخيفه من انتهاء الزوجية بانتهاء العالم فى شهر العسل .

***

سيداتى وسادتى :

لم يخلق شىء لنفسه وحده . لا يكاد يشذ عن ذلك حتى فى مملكة النبات والحيوان ، سوى العشب المنعزل فى المجاهل ، أو الوحش الضارب فى الغاب والأجم . بل كم من عشبة برية يتداوى بها المريض ، ومن نمور وفهود وفيلة ونعام ، يتخذ الناس من جلودها دفئاً أو من سنها وريشها زينــة ، حتى الأفاعى يتخذ من سمومها شفاء . ان المجهول من أسرار الخلائق ما زال أضعاف أضعاف المعلوم .

ألا ترى إلى العلماء المعاصرين ، يكشفون عن طبائع الأشياء كل يوم غطاء بعد غطاء ، حتى العفونة التى تعلو الخبز الطرىء المركوم ، فإذا رأيناه ألقينا الرغفان المعفونة إلى الهررة والكلاب ، بل ربما خشينا مغبتها على الكلاب والهررة — ذلك عفن مبارك ما أنفعه من عفن ، منه يحشد اليوم علماء الطب جنود البنسلين ، فإذا هى تغزو

جراثيم فتاكة فى مكامنها من جسم الإنسان ، ثم تعود من جهادها ظافرة ، و يعود العليل المشرف إلى الصحة ، تياهة مفاخرة ، دون أن يفكر بعد نجاته طويلا فى المعجزة .

فطرى عفن كان محقوراً مهجوراً ، لأن حقيقته كانت مجهولة ، أصبح اليوم وقد عرفه العارفون، أصبح ظهيراً للانسان ، يدرأ عنه كثيراً من الأخطار وألوان الشقاء.

فمتى يعرف الناس حقيقة أنفسهم ، كما عرفوا حقيقة الذرة وحقيقة العفن ؟

متى يعرف الشاب المصرى أنه روح قبله جسما يضعف ، أو رغبة تهفو ، أو شهوة تَعْبُر .

والله لو اكتملت فى قلوب الشباب عناصر الإيمان ، إذن لسمت عزائمهم بمصر ، حتى لتكاد أرضها من باذخ مجدها تشامخ السحاب .

إذن فلن تخبو همتك أيها الفتى إذا أيقنت بأنها مستمدة من قدرة لا تخبو .

إذن فلن يطفأ سراجك ، ومداده نور السموات والأرض ، «مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درىّ » .

إذن فلن يغلبك الجزع فى مواطن الآلام والمحن ، ثقة بأن الذى يبلوك بها ربّ رحيم ، يريد أن يصهر معدنك فينفى عنه الخبث ، وأن يروض عزيمتك فيقوى فيها الوهن ، وأن يجرد منك للحياة سيفاً مصقولا ، لا قصبة مرضوضة ولا عصا مهشمة.

إذن فلن تأخذك فى تيه الصحراء وحشة ، لأن فى قلبك واحة خضرة نضرة من أنس من يريد بك الهدى بعد التيه ، والطمأنينة السعيدة الوادعة بعد العناء والنصَب .

***

و إيمان الجيل الجديد وشبابه المأمول ، لن يحرمهم شيئاً مما يبتغون. لن يحرمهم طلب المال ولا طلب المكانة والمنزلة . فحب الكسب والسعى للرزق غريزة مشروعة فى حدودها المشروعة . وما نريد للغرائز أن تموت ، و إنما نريد لها أن تتهذب وتصفو لتكون أداة يستخدمها الإيمان ، لا سيدة طاغية تقمع الإيمان أو تمحقه . والمكانة والمنزلة مشروعتان ، ما قصد بهما إلى الخير العام لا إلى الخيلاء والبجح .

نحب للجيل الجديد أن يطلب الكسب والمال ، ولكن من حلة لا من محرمه .

نحب لتاجر الجيل الجديد أن لا يخلط الحرام بالحلال ، ولا الخبز بالرمال ، وألا يغش أو يخدع ، وأن لا يغالى ببضاعته ليتسع ثراؤه من مفاقر الناس ، وأن لا يخبأ سلعته ليبيعها خلسة بأضعاف ثمنها فى أحلك الأسواق سواداً وأشد الخطوب هولا .

نحب للموظف الصغير فضلا عن الكبير من أبناء الجيل الجديد ، أن يؤثر العشرات القليلة وهو شريف ، على المئات أو الألوف وهو لص .

نحب للموظف الصغير فضلا عن الكبير من أبناء الجيل الجديد ، أن يرفض الرقى إلى درجة ، وهو يعلم أن غيره بها أحق . نحب له أن يبغض ظلم غيره كما يبغض ظلم نفسه . نحب له أن يعلم رؤساءه من الجيل البالى أنه من نبع جديد ، وروح جديد — نبع الأخاء الحميم فى الوطن ، والأخاء الحميم فى الله ، فهو لذلك يمقت أن يتخذ أشلاء الحق سلماً إلى الباطل ، لأنه ينشد لبلاده أصدق مجد وأمتنه ، فهو يأبى لنفسه أكذب مجد وأوهاه .

أيها الشباب المرجى ، أن مصر تستقبل عصراً جديداً مجيداً ، فكونوا بُناتَه وكونوا رجاله والله معكم وهو نعم المولى ونعم النصير .

الأخلاق والمجتمع (١)

سيداتى وسادتى :

كان شوقى يستلهمُ عبر التاريخ ، حين أرسل آيته المشهورة فى الأخلاق ، فما من ماض قريب أو بعيد إلا يشهد بصدق تلك الآية .

لقد سادت اليونان القديمة بعراقة الأخلاق حين سادت ، فلما وهن فيها نسيج النفوس ذلت ، ولم تنقذها عراقة الانساب ، ولا حكمة أفلاطون ، ولا فلسفة أرسطو .

ولكن اليوم إحيا اليونانيون أمسهم العظيم ، بما أحيوا فى نفوسهم من خلق عظيم .

لقد ساد الرومان أيام عزهم المجيد بأخلاقهم المجيدة . فلما انقلب سؤددهم بطراً وثراؤهم بذخاً وجدهم لعباً ، ولما انقلبت مشاهد الرجال والأسود مقاصف وحانات ومواخير ، غربت شمس روما العظيمة ، ولم يستطع إعادتها من عالم الغيب إلى عالم الشهود هذا الذى طلب الشأو القديم ، فساعفه العرض وخانه الجوهر ، ساعفته الأجهزة والأجناد ، ولكن خانته النفوس والأخلاق .

لقد سادت العرب فى صدر الإسلام بأخلاق الإسلام ، حين لم يكن لهم مال إلا ما تجود به جزيرة جدبة مبخال ، وإلا ما تجديه تجارة نزرة تسبح بها الإبل فى عباب الصحراء ، ويوم لم يكن لهم علم إلا ما علمهم الله فى كتابه وسنة رسوله . لكنهم ظهروا على أمم أكثر منهم مالا ونفرا ، وأقدم منهم ثقافة وحضارة ، لا بقوة سوى أخلاق القرآن . فلما نسوا المثلات واتبعوا الشهوات وأذهلهم المثل الأدنى عن مثل الرسول ، سقط من أيديهم مصباح الهدى فضلت بهم السبل وتقطعت الأسباب .

وهذه فرنسا عبرة اليوم ، تغنينا عن عبر الأمس القريب والبعيد . فرنسا ، تلك الأم الرءوم من أمهات الحضارة ، فرنسا ، التى لم تدع من ميادين العظمة ميداناً إلا كان لها فيه سبق وتبريز . بطولة فى الحروب مشهورة الأيام ، مأثورة السير !

---

(١) محاضرة فى مارس سنة ١٩٤١

عبقرية فى الأدب زخارة الفيض وضاءة الغرر ، لو حجبت عن العالم يوماً لبات فقيراً إليها العالم ! المعية فى العلوم ، سمت بأفذاذها إلى سماء الخلود . ولا تنس نصيبها الأجمل من الفن الجميل ، ولا حظها الأوفى من الفقـه والتشريع ، ولاقسطها الأوفر من ثروة هذه الدنيا ، عيناً وديناً ، وزرعاً وضرعاً ، وصناعة وتجارة ، ومستعمرات تعج بالخيرات فى أرجاء الشرق بين قاصية ودانية ، فرنسا هذه ما أعوزها فى سنواتها الأخيرة ، حتى خر عليها عرش مجدها بغتة كانقضاض الصاعقة ، بين ذهول العدو وذهول الصديق ؟

يبكى باكيها الماريشال بيتان ، ويجيبنا بصوت يتهدج برعشة الشيخ الفانى ورجفة الحزين الملتاع ، يجيبنا : أعوزتها الأخلاق . تلك هى الثروة التى أضاعتها فرنسا . فضاع بضياعها مجد الوطن ، وألحقت أرضه التى طالما تقدس ثراها بدم الأبطال — شهداء الحرية والأخاء والمساواة — ألحقت أرض فرنسا بالأراضى المحتلة ، تطأ حرماتها أقدام الأعداء . نعم وألحق الشعب الفرنسى العريق ، عزيز الأمس ذليـل اليوم ، بزمرة الشعوب المهيضة المستعبدة ، وما تحطم من أسلحتها غير سـلاح الأخلاق ، ولا اندك من صروحها غير صرح الأخـلاق ولا تنكس من أعلامهـا غير علم الأخلاق .

ويمضى الشيخ الباكى فى حزنه وبثه يقول : « إنما الذى هزم فرنسا خلقها الجديد لا عدوها القديم . عكفنا على اللهو حين عكف عدونا على الجـد . ضاعفنا ساعات البطالة حين ضاعف ساعات العمل . قدسنا صالح الأشخاص، حين قدس صالح الوطن، كانت الأسرة عندنا حقيقة وعيناً ، فأوشكت أن تكون وهما وأثرا . كان الحب عندنا طائراً وديعاً يأوى إلى البيت ، فأمسى طائراً عربيـداً يأوى إلى الحانة . كنا نبغض السلطان الغاشم ، فإذا بنا نبغض كل سلطان . كنا نفدى مبدأ الأخاء ، فإذا الأخاء بيننا عداوة لداء . كنا نقدس مبدأ الحرية ، فإذا الحرية عندنا حرية التمرد والفوضى، وحرية الجحود والعقم ، وحرية الإباحة والفجور ، وحرية الأنانية الضارية التى تأكل الأخضر واليابس كألسنة السعير . كنا نفدى مبدأ المساواة فى الحقوق والواجبات ، فإذا الحقوق بيننا تحيا ، وإذا الواجبات بيننا تموت » .

ليست أزمات المـال ، ولا أزمات التعليم ، ولا أزمات السياسة ، شيئاً يذكر إلى جانب أزمات الأخلاق .

فأزمات المال قد تعالج بعض العلاج بضغط النفقات واستزادة الموارد ومضاعفة الجهود فى الحقل والمصنع والمتجر .

وأزمات التعليم قد تعالج بعض العلاج بتوفير الأموال وتخريج العدد الكافى من المعلمين الأكفاء .

وأزمات السياسة قد تعالج شبه علاج بوزارة تذهب ووزارة تجىء ، و بمجلس نيابى يحل ومجلس آخر ينعقد .

لكن أزمات الأخلاق إذا تفاقم أمرها كادت تستعصى على العلاج ، إلا أن يبادر المسئولون عن مصائر الأمة ، بالتفكير الجدى والعمل السريع . بل أذهب إلى أبعد من هذا المدى فأقول :

أنه لا صلاح بالمعنى الصحيح لمصر فى مال ولا صحة ولا علم ولا سياسة، إلا إذا قام كل أولئك على أساس وثيق من أخلاق الفرد وأخلاق الجماعة .

تعالوا إلى الإصلاح الإجتماعى الذى يدعو إليه دعاته فى صحف مصر وعلى منابرها يقولون : — أزيلوا الفقر والجهل تزيلوا الأمراض المتوطنة التى تهلك الكثرة الساحقة من المصريين — استغفر الله بل الكثرة المسحوقة — و يقولون إذا زال الفقر والجهل والمرض وحلت محلها دعة المعايش واستنارة العقول وصحة الأبدان ، انبثقت عظمة مصر الكمينة كما ينبثق ضياء الفجر بعد حلك الظلام .

لكن هنا العقدة كما يقول شكسبير .

كيف السبيل إلى إزالة الفقر ، بل كيف السبيل إلى إزالة الأدقاع والفاقة ، إذا تعذر على الإنسانية فى مستواها الحاضر أن تخلو من غنى وفقير ؟

دعك من مئات الألوف الذين يستجدون الأيدى فى الحضر والريف ، دعك منهم فإن بينهم أصحاء يؤثرون ذلة السؤال على عزة العمل ، و إن كان بينهم عجزة عن الكسب ترعى أمثالهم إنجلترا وغيرها من دول الغرب ، بحكم القانون .

لـكن انظروا معى إلى ملايين العمال، فى مزارع الأواسط والأكابر من الزراع .

هؤلاء يستجدون أيضاً ، ولـكن بالعمـل الشريف المنهك ، لا بالبطالة الوخمة المخزية ، يستجدون السـادة الملاك ثلاثة قروش ، عن كدح يوم يبـدأ مع الشروق وينتهى مع الغروب .

لى صديق كان يحيي قطعة من الأرض الموات قريبة من مزرعة رجل عظيم ، رجل من أصحاب الأموال الطائلة ، والألقاب الضخمة ، والمناصب العليا ، والعيشة المترفة الناعمة . وأمسى صديقى ذات ليلة يطلب بعض الأيدى لاستئناف عمله من غده فلم يجد . فما كان منه إلا أنه أرسلها بشرى مزغردة فى الضياع المجاورة : فلان سيؤجر عمـاله ثلاثة قروش ونصف قرش منـذ صباح غد . وما هى إلا هنيهة حتى أقبل إليه عشرات العمال يهرعون كما كان يهرع طلاب الغنى إلى المجاهل فى أمريكا ، إذا طار إليهم نبأ اكتشاف منجم من ذهب ، فأعمل صديقى كفايته منهم واعتذر إلى الباقين .

لـكن هل رضى الجار العظيم عن هـذا التبذير ؟ إنه جنون إن دام جر عليه الخراب ! إنها منافسة غير مشروعة فى استهواء العمال ! إنه تمزيق لروابط الاتحاد بين الملاك وخيم العواقب !

وإذن يتفضل حضرة المأمور فى ذات النهـار بزيارة صـديقى ، زيارة ظاهرها الود المألوف ، وباطنهـا السعى الحثيث لحمله على أن يعدل عن هـذا الطريق الوعر ، الذى يوشك أن يفقر الأغنياء ويغنى المساكين ! وضربت على المساكين ثلاثة القروش واستقرت أنصاف القروش فى خزائن الأغنياء . وما زال القائلون يقولون : أزيلوا الفقر ، وما زلنا نسائلهم كيف السبيل ؟ وهذا الطراز من الأخلاق متغلغل فينا متأصل عميم ؟

يقولون : أصلحو الأراضى البور فى شمال الدلتا وغيرها ، وبيعوها لصغار الزراع بثمن مقسط زهيـد ، هذا شىء جميل إذا تحقق . وجماله أنه يرفع مسـتوى المعيشة فى طبقات لا هى بالغنية ولا بالمعدمة ، هذا خير لا ريب فيه .

لـكن طبقة المعدمين ستظل فى شقائها وبؤسها طبقـة المعدمين . ولن يكون لعبيد القروش الثلاثة بعض العام ، وعبيـد العُدْم المطلق أكثره — لن يكون لهم يد

ولا إصبع فيما توزع الحكومة من أرضها مهما تضق المساحة ويقل الثمن ! إذ كيف يدفع الجنيهات من تعبيه المليات ؟ وكيف يشترى الفدان من يفنى شبابه وكهولته فى شراء الرغيف ؟ دع عنك الكساء الذى يشبه العرى ، والحفاء الذى يشبه النعل ، والمسكن الذى يشبه القبر ، والحياة التى تشبه الموت .

هذا الجيش الكثيف من عمال الزراعة ، هو قبل غيره وفوق غيره عماد الحياة فى هذه الديار .

كلنا يعلم أن النيل المفضال إذا عجز عن فضله عاما هلكت مصر من العطش . وكلنا يعلم أن أرضنا المعطاء إذا عجزت عن عطائها عاما هلكت مصر من المجاعة . ولكن يظهر أن أكثرنا يجهل أن عمال الزراعة هؤلاء إذا عجزوا عن العمل عاما فلن يغنينا عامئذ نيلنا الفياض . ولن يغنينا عامئذ وادينا الخصيب . إذ فضل النيل وفضل الوادى كليهما رهن بفضل هذا العامل المظلوم . بأيدى أولئك العمال تدار القنوات والجداول على الرياض والحقول ، كما تدار كؤوس الرحيق على الشاربين ، وبأيديهم يتعهدون الزرع والضرع كما تتعهد الأم طفلها الرضيع .

هم وسطاء الله بين أرضه وبين المرزوقين الطاعمين من خيراته . أفليس لعامل الرزق أن يرتزق ، أفليس لوسيط الخير الإلهى أن يعيش من خير الله ؟

عمال الزراعة طهاة الطبيعة . فكيف يجوع الطاهى ؟ هم مفاتيح كنوز مصر . فكيف تبخل مصر عليهم بسد الرمق ؟

كأنى بالأنعام لو نطقت ، لضجت بالرثاء لهذا الإنسان . كأنى بالثيران لو أبانت لطلبت أن يسوى بهم إخوانهم العمال فى نفقات المعيشة . إن علف الثور ليكلف أكثر من ضعف أجر العامل ، فالثور يأكل التبن الوفير ، ويأتدم بالفول المغذى نصف العام ، فإذا أقبل الربيع ، أقبل جنابه على الحقل المريع فرعى من الكلأ الغض ما لذ وطاب ، وهو ملحوظ بالعناية محفوف بالرعاية ، يحميه الحماة ، ويسقيه السقاة ، ولو أكل النضيج لطهى له الطهاة .

***

من هذه الطبقة من العمال دون غيرها تجند فى مصر الجنود منذ عشرات وعشرات السنين ،ولا عجب ، فالهرب الرسمى من الجندية ميسور لأواسطنا وأكابرنا حتى اليوم !

كيف إذن لا يعذر اللاطمات النادبات وراء بنيهن المجندين ، كيف لا يعذرن إذا برمن بالجندية والتجنيد والجيش والتجييش ، ما دام الأغنياء أشد لها بغضاً مع فرق واحد ، هو أن الأغنياء يجدون ثمن النجاة من هذا المكروه ، فيدفعون الثمن ، ويظفرون بالعاقبة ؟

وعلى هذه الصورة كان وما زال السجل الذى يحمل أسماء الجنود فى مصر ، سجلا يحمل فى الواقع أسماء المساكين أبناء المساكين ، الأميين أبناء الأميين .

ولو أن هذه الطبقة كانت ألفاً أو مائة ألف لقلنا هان الخطب. أنهم قلة . لكنهم ملايين من الأيدى العاملة ، تعيش من كسبها ملايين من الأفواه الآكلة . وكسب الرجل الضليع منهم ثلاثة قروش ! نصف أمتنا الأعلى مصاب بالخَدَر . فلا يكاد يشعر بآلام نصفها الأسفل . ونصفها الأسفل هو الذى يعمر الديار ، ويحمى الذمار ، دون أحلاس الحانات وسكان البارات ، ومن إليهم من أهل الطراوة والترف .

حمل الفأس فكان خير المجاهدين فى السلم قديماً وحديثاً . وحمل السيف فكان قديماً وحديثاً من خيرة المجاهدين المحاربين .

أنقذوا هذا البطل الوفى الصابر المتواضع . أنقذوه من براثن الفاقة والذل ، أنقذوه ، بمقاومة الجشع ، أنقذوه بقوة القانون إن لم تساعفنا قوة الأخلاق ؟

الحرب فى قريتنا [1]

سيداتى وسادتى :

أعود بكم من كهولتى إلى أيام الصبا فى قريتى ، أعود بكم إلى أيام الصبا ، فأجدنى فى الليالى المقمرة ، جندياً صغيراً فى مؤخرة جيش عرمرم ، سلاحه جريد النخيل موصول الأطراف بحبال دقاق معقودة الأواخر بقطع صغار من الأجسام الصلبة ، كقطعة من خشب أو قطعة من حجر ، وذلك ليكون السلاح أطول تناولا للعدو ، ساعة يلتقى الجريد بالجريد والبطل الصنديد بالبطل الصنديد .

أما العدو فجيش آخر ، قواعده تقع فى الحى الشرقى والحى الجنوبى من القرية ، وأما قواعد جيشنا ، ففى شمال القرية وغربها تقع .

وكانت الحروب فى قريتنا موسمية ، تنشب كلما صفا الجو فى بدء الربيع وتضع أوزارها كلما هجم الشتاء ببرده وسحبه وأمطاره .

وكانت غاية هذه الحروب ومرماها ، أن يتبارى الجيشان المؤلفان من فتيان أنجاد يتنافسون فى الاقدام والنخوة ، يذود كل فريق عن قواعده وعن شعاره . فتبدأ المعركة فى منتصف الفضاء الواسع الذى يتوسط البيوت ويرتفق به الأهلون حين دراس القمح وتقشير الذرة .

وموعد القتال بعد تناول العشاء وصلاة العشاء ، فتصطف القوتان المقاتلتان متقابلتين بينهما مرمى حجر .

وقد يتقدم التحام الصفوف مناوشات أولية يقوم بها بعض الأحداث من جنود الفريقين ، حتى إذا حمى الوطيس تراجع الصغار إلى المؤخرة ، وأقدم القواد والجنود المدربون إلى أمام ، ويكون كرّ وفرّ ، وضرب وجيع وضرب رقيق ، وليلة لنا على عدونا نطارده إلى منتهى الميدان إزاء قواعده ، وليلة لعدونا علينا يطاردنا إلى منتهى الميدان من ناحيتنا . ويطير للفتيان البواسل صيت وتمتد لهم شهرة بين شباب القرية وشيوخها على السواء .

---

(١) ألقيت فى مايو سنة ١٩٤٦

وقلّ مع ذلك أن يشج رأس أو يسقط جريح ، ذلك أن اللبدة تصون الرأس من وقع الجريد كما تقيه الخوذة وقع الرصاص .

والحرب تنشب ، والقتال يستعر ، والعجاج يثور ، وآباء الفريقين خلال ذلك إخوان يتسامرون فى ندوة واحدة ، أو يألمون لكريهة واحدة .

***

أما أنا فلم ينتظر بى والدى رحمه الله، حتى أبلغ مبلغ القواد فى تلك الحقب الخوالى. فقد كانت سن القائد قرابة ثمانية عشر عاماً ، أما الذين كانوا فى العاشرة من أترابى ، فإنما كانت مهمتهم صياح إعجاب ببطولة الأبطال ، أو سرعة الفر كلما عجز الكبار عن سرعة الكر ، وهكذا جئت إلى القاهرة لالتحق بالسنة الثانية من إحدى مدارسها الابتدائية ، منذ عشرات من السنين ، ولا أقول كم !

وامتد عهد الحروب فى قريتنا سنوات أخر . ثم انقضى مع الأسف فانقضى عهد رياضى عظيم المنافع . فقد كان المتحاربون بالليل إخوان صفاء بالنهار ، يحفظون القرآن فى كُتَّاب واحد ، أو يتعاونون على مصالح الأسر وخدمة المزارع بقلب واحد. وكانوا إلى ذلك يتخلقون بأخلاق الرياضيين الذين يحقرون الطراوة والميوعة ، ويكبرون خشونة الرجال ومسلك الرجال ، فإذا استصرخوا فى الخطب الملم ، كانوا أسرع إلى إغاثة الملهوف من هبوب العاصفة .

أذكر على ذلك شواهد. ففى ذات ليلة من ليالى ذلك العهد، تجاوبت هدأة الليل البهيم بصرخة مستنجد فى حقل بعيد . فما هى إلا كلمح البصر . حتى هبت القرية من رقادها كشعلة من لهب. هذا يحمل فأساً، وذلك يحمل هراوة، عدا عشرات البنادق ومئات الخناجر والمدى، وتعالت الأصوات من الجموع الزاحفة ، أن . اثبت فى مكانك ، وفر اللصوص المسلحون مروعين قبل أن ينالوا منالا من نفس أو مال .

وشب ذات يوم حريق هائل ، ولم تكن المطافىء قد عمت مراكز البوليس فى الأقاليم .

فيالها من عظمة أبداها الرجال ، بل يالها من عظمة أبدتها النساء من أمهات ذلك

الجيل المحارب بالجريد . يالها من عظمة فى الكفاح والنضال ومصارعة السعير . نسى كل امرىء نفسه وذكر جاره . غابت روح الفرد ، وتجلت روح الجماعة . فكنت ترى المثل الأعلى الذى ينشده الأنبياء والفلاسفة فى كل جيل ، وقد أضاء بنوره تلك القلوب الخيرة الطيبة — حين ناداها المنادى من أعماق الضمير : هذه ساعة التجربة ، ساعة النخوة ، ساعة الإنقاذ .

كان جيلا رياضياً ، فيه شهامة الرياضيين وصحة الرياضيين .

كانوا إذا أقمر الليل ولم تشغلهم حرب الجريد ، يلعبون بكرة ضخمة محشوة بالقطن المضغوط أو ما يشبهه ، مجدولة المحيط بالخيوط الغلاظ ، يتقاذفها الفريقان المتباريان بالمحاجن الثقال ، لا يقوى عليها سوى الساعد المتين والعضل المكين . كانوا يحسنون ألعاب العصا ، أى (النبوت) ، وما أدراك ما النبوت غلظاً ووزناً . ينافحون به عن رؤوسهم وأبدانهم فى حذق ومهارة ، أو يخالسون به المقارعين فى مهارة وحذق . وكانوا مولعين بركوب الخيل واقتناء الجياد ، يسعون إلى الموالد من إقليم إلى إقليم ، يقصدون حلقات السباق حيث يتناجز الفرسان ، أيهم يدرك صاحبه فينال منه إذا احتدم الصيال واشتجر القنا .

فهل من عجب أن كان آباؤنا نحن الكهول ، أعنى أجدادكم أنتم يا شباب مصر ولا سيا شباب ريفها العتيد ، هل من عجب أن كان جلهم أصحاب نخوة ونزاهة وشمم ، وإن لم يكن جلهم أصحاب قراءة وكتابة ومعرفة بجدول الضرب وأصول الجمع والطرح ؟ لقد كان أكثرهم يقرض القرض الحسن أو يقترضه ، ولا مستند ولا إيصال ولا حسيب ولا رقيب إلا عين الله وعين الوجدان ، وقلّ منهم كان الخؤون أو الخادع والماطل الكذوب .

لقد حالت فى القرى هذه الحال أو كادت . وأصبحت قلة من الأشقياء يعيثون فى الأرض فساداً . يقتلون النفس الزكية فى ظلام الليل أو رائعة النهار ، طمعاً فى الخسيس من حطام الدنيا ، أو شفاء للغليل من سموم الأحقاد ، أو لقاء أجر تاعس كل قرش من قروشه قرحة دامية من غضب الله وملائكته والناس أجمعين .

وقد يعرف نفر من الأهلــين من هوَ المجرم السفاح ، ثم يمنعهم الخوف المذل والجبن المَهين من أن يتقدموا بما يعلمون من أمر الجناية والجانى ، إلى رجال الأمن ومناط العدل فى البلاد .

***

ألا رحمة الله على آبائنا نحن معاشر الكهول ، وهم أجدادكم أنتم معاشر الشباب .

كونوا رياضيين. تعهدوا القرية بتجديد ما درس فيها من نافع التقاليد . لا أقول أعيدوا حروب الجريد . ولكن جددوا الملاعب وأوسعوا للمباريات . كونوا أنصار الرجولة والشجاعة فى كل قرية وضَيْعة . يومئذ تأبى الأخلاق الكبيرة والقلوب الكبيرة — تأبى لبضعة من الأشقياء أن يستذلوا ألوفاً من الأنفس الكريمة فى قرية كريمــة .

يومئذ يطهر الريف المصرى من دنس الأشقياء ، ويبرأ الريف المصرى من وباء الأشقياء — بالشجاعة والكرامة وعزة الرجال .

أمراض المدنية وأعراضها [1]

ارتباك وهلع فى انجلترا ، ومرارة وغيظ كمين فى ألمانيا، وحذر وإشفاق فى فرنسا، وكساد يشبه الشلل فى أمريكا،وروح أشعبية خطرة فى إيطاليا، وتحفز للوثوب فى روسيا البلشفية، و إبادة دامية فى طرابلس،واستعباد فى تونس والجزائروفى مراكش والريف ، وانقلاب بقوة الحديد والنار فى مصر ، وفتنة من صنع انجلترا فى فلسطين ، وعبث من صنع فرنسا فى سوريا ، وألاعيب فى العراق ، ودسائس فى بلاد الأفغان، وبحر لجى من العدوان فى الهند ، وتنور دائم الفوران فى الصين ، وتحرش بالجار فى اليابان .

هذه لمحة خاطفة ترتدمنها العيون حيرى والألباب ذاهلة والقلوب واجفة. فبعد أن قضى العالم خمس سنين فى حربه الكبرى التى اقتلعت شجرة السلام من جذورها،وأكلت ملايين الأنفس وشوهت ملايين الأجسام وابتلعت ألوف الملايين من الذهب، وجعلت العمران يباباً والقصور قبوراً ، هانحن أولاء نرى العالم بعد انقضاء ثلاثة عشر عاماً على انطفاء ذلك الحريق المروع ، ومازالت المطامع الجديدة هى المطامع القديمة ، ومازالت الأمراض التى كانت الحرب عرضاً من أعراضها وطفحاًمن سمومها، هى هى كما كانت قبل وقوع المأساة العالمية ، فالدول الكبرى يخاف بعضها بأس بعض ، ويحقد بعضها على بعض ، وتضمر كل دولة منها لجارتها فى التخوم ، أو لنظيرتها فى المتاجر والأسواق ، أو فى التسلط والاستعمار مالو تكشف للناظرين لراعك أن ترى وحشية القرن العشرين كوحشية الانسان البدائى فى الأحراش والكهوف . وإنما ينادين بالسلام رياءاً وخوفاً ، ولوصدقت النيات لما رأينا كلمات السلام مقرونة بالمزيد من أسباب الهلاك، ولا رأينا إيطاليا ترتكب جرائمها المنكرة فى طرابلس ، وأحدثها تلك اللطخة الدموية التى ستظل عاراً عالقاً بجبينها مادام للبشرية بقية من ضمير، ولارأينا فرنسا تفعل أفاعيلها فى مراكش والريف وفى دمشق وجبل الدروز ، ولا رأينا انجلترا تأثم آثامها فى مصر وفلسطين،وتسلط كابوسها الخانق فى الهند على مئات الملايين من الشاكين المستصرخين.

---

(١) الجهاد فى سبتمبر سنة ١٩٣١ .

إن الغرائز الضارية مازالت صاحبة السلطان الأكبر على حضارة الغرب .

إن كبريات الدول الغربية نكبات بعضهن على بعض ، ونكبة أعظم على أمم الشرق وعلى رغم جامعات أوربا وفلسفاتها وعلمها الذى كشف كثيراً من أسرار الطبيعة ، وسخر عناصرها لإرادة الإنسان ، وعلى رغم الفن الجميل والأدب المستفيض والصناعات البارعة ، مازال ساستها وقادتها عبيداً لغرائز الأثرة وحب الغَلَب ، وعبادة القوة دون الحق ، فلافرق بينهم وبين طغاة الجاهلية الأولى .

ومالم يسيطر وازع العقل على دافع الغريزة فى ساسة الدول ، ومالم تنبت فى نفوسهم نابتة الضمير الذى يحترم الحق ولو كان أعزل .

ومالم تصبح مصانع الدنيا أشبه بمصنع واحد ، ومزارعها أشبه بمزرعة واحدة ، وأسواقها أشبه بسوق واحدة ، كل غرضها توفير الخيرات ، وتهيئة أسباب الرغد للجميع ، فلا تجوع أمة لإشباع أمة أو تشقى طبقة لإسعاد طبقة .

فليعلم مكدونالد ، وليعلم بلدوين ، وليعلم هوفر ، وليعلم كل قائل بالسلام ، ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، أن كل علاج للكوارث العالمية سيذهب جفاء وزبداً ثم لا يطول المدى حتى تطفح سموم الحسد مرة أخرى أشد وأفظع .

صبراً يامصر (١)

لسنا أمة محاربة ولكنا أمة ذات حق . ولو أن القوة القاهرة كان فى وسعها أن تمحو قضيتنا من سجل المظالم الانسانية ، لأدركنا لهذه التصرفات حكمة .

أما وقد عرك أولئك الأقوياء . صروف الزمان ، وخبروا أطوار الأمم فقد كان جديراً بهم أن ينتفعوا بتجاريبهم ، وتجاريب من سواهم من الدول ذوات البطش والسلطـــان .

كان جديراً بهم أن يذكروا عبر الماضى ودروس الحاضر . كم من أمة قوية غلبت أمة ضعيفة على حقها ، ثم لم تزل بها تحجب عنها نسمات الحياة القومية وتضع الاسداد فى سبيل استقلالها وأمانيها، حتى إذا ظنت القوة أنها أخمدت أنفاس الضعف ، وذهبت بروح الوطنية ، إذا بوميض من تلك الروح قد برقت منه بارقة ، و إذا بتلك البـارقة قد استحالت شعاعة ثابتة ، و إذا بتلك الشعاعة قد اتسعت وامتدت ، فعم ضياؤهـا ، وأصبح ما كان بالأمس بصيصاً ضئيلا وكأنه شعلة عظيمة ذات حرارة لاقدرة لدولة فى العالم على أن تبردها . وذات نور لاقبل لإنس ولا جن على حبسه أو إطفائه .

هنالك تعلو كلمة الحق على جيوش الباطل ، وتصدح طيور الحرية، مغردة على أفنان شجرة مباركة ، أصلها ثابت فى قلوب الأحرار ، وفرعها باسق فى سماء الاستقلال .

هنالك ترجع القوة الغاصبة بصرها إلى ماضيها ، فترى صحيفتها خلواً من كل رفق أو مكرمة ، أو إنصاف .

ثم تنظر فى حاضرها فإذا بطشها قد عاد خوراً ، و إذا أظفارها ومخالبها قد عادت أصابع واهنة متآكلة ، من طول ما نشبت فى حقوق الأمم ، ومن طول ما قلمتهـا صروف الحدثان .

ثم تنظر إلى الشعب الذى كان بالأمس مهيض الجناح ، خافت الصوت ، مرهقاً معذباً يحاول الإفلات من قبضتها القاسية فلا تستطيـع تنظر إليه ، فإذا به حراً طليقاً

(١) ديسمبر سنة ١٩٢١

قوياً ذا حياة فتية ، وأعمال زكية ، وأيادٍ بيضاء فى إقامة المدنية ، على أساس خالد من الرحمة والعطف والأخاء .

فمهلا ياقوة فذلك مآلك ، وصبراً يامصر فهذا مصيرك السعيد .

مصر الفتية (١)

بين أغلالهـا ومطامحها

قبل سنين لم تبلغ بعد أصابع اليد الواحدة عداً ، كنا نسمع أزيز الطائرات الأجنبية تمخر عباب الجو فوق رؤوسنا فى المدائن والقرى ، فنستخذى من الخجل، أن تكون مصر مغلوبة على أمرها فى البر والبحر ، ثم يضاف إلى أسباب استكانتها سبب جديد ، هو هذه السابحات فى الفضاء كالحمائم الوديعة أيام السلام ، فإذا استعرت الحرب أو طغى القوىّ على الضعيف ، انقلبت الحمائم البيض صواعق حمراء من فتك وتدمير .

تلك خطرات سريعة أليمة يلتاع لها شعور المصريين ، كلما رفعوا أبصارهم إلى الطائرات الأجنبيـة بين الإعجاب والحسرة ، وكلما ارتدت أبصارهم إلى الأرض تألماً من عجز مصر وخجلا !

تألماً من عجز مصر وخجلا ؟ ! يا لها من كلمة كئيبة شوهاء .

مصر ليست بالعاجزة . مصر الفتية الناشئة الناهضة ابنة اليوم الحاضر ، ليست بعاجزة . كلا . ولا حاجة بك ولا بى ولا بأحد من الكتاب أو الشعراء، أن يستعير لها ألوان المجد القديم من أجدادها الفراعنة أو آبائها العرب ! ذلك أن لمصر الفتية بنت اليوم الحاضر مجداً طريفاً ، تريد أن تبلغه فى يومها هـذا وفى غدها القريب ، كما بلغت مصر الفرعونية ومصر العربية مجدها التليد ! أما مظاهر العجز التى تراها ، فليست إلا مظاهر . نعم ، وليست إلا ظروفا قاهرة ، وغلبة مسلحة فى البر والبحر ، وظلماً من الخارج وظلمـاً من الداخل — ظروفاً قاهرة ولدت مصر الفتية مغلولة بأغلالها مرتطمة فى غمـارها ! وما زالت تعانى منها ما يعانى المختنق المكظوم من جو فاسد مسموم ! فهل تسمى ذلك عجزاً إلا كما تسمى احتباس الآساد المقهورة بين قضبان الحديد

---

(١) الجهاد ديسمبر ١٩٣٣

عجزاً ؟ فإذا سميته عجزاً ، فهل هو عجز كامن منبته طبيعة الأسود ، أو هو عجز طارىء لايلبث إذا حطمت القضبان وأخلى السبيل لملوك الغاب ، أن يستحيل جراة وإقداماً وقوة صائلة جائلة فى ميادين الغلب ومعترك الحياة ؟ دليلنا قائم وقريب ! دليلنا قائم وقريب على أن مصر الناشئة كمصر المجيدة الماضية ، ليس يعوزها عنصر من عناصر الحيوية المنتجة ، ولا عامل من عوامل السبق والتبريز ، فيما تزدهى به الحضارة ويتم به العمران . ودليلنا قائم وقريب على أن المصرى إذا أخلى سبيله ولم تعترضه القوة الغاشمة ، أو السياسة القاهرة ، انتهى بمواهبه وعزيمته إلى مثل ما تنتهى إليه همم الغرب وقد تفوقه وتعلوه ، ذلك على حداثة عهدنا بطرائق الغرب وعلومه ووسائله !

وإليك الآن يا صاحبى بعض الشواهد ، بعض شواهد قليلة فيها الدلالة السعيدة الناطقة بأن مصر الحديثة ليست أقل استعداداً للارتقاء إلى مستوى الغربيين ، أو العلو فوق مستواهم ، إذا لم تقف السياسة الملتوية الحاسدة سداً فى طريق المصريين !

بنك مصر ما هو ؟ . ما ذا كان يوم ولدته الهمة الشماء وماذا هو اليوم ؟

ولدته الهمة المصرية ، واحتضنته الهمة المصرية ، وقام على تنشئته وتنميته ، وتأصيل أصوله ، وتفريع فروعه وتوليد مواليده ، الغر الميامين ، فى كل مدينة مصرية وفى عواصم الشرق العربى ، وفى عاصمة العواصم « باريس » .

قام على هذا كله رجال حصفاء ، يزنون الدرهم بالدقة التى يزنون بها الطن والقنطار ، رجال يعيشون فى الحاضر المتواضع بشخوصهم ، ولكنهم يعيشون فى المستقبل بأحلام صادقة كأحلام الرسل والأنبياء ، أحلام تصدقها الأعمال ، ومطامح تبدو للعاجزين بدوات أثيرية وأخيلة وهمية ، فلا يكاد يغدو عليها الغد أو يمر عليها العام ، حتى تراها حقائق بارزة متينة جسيمة ، تملأ العين المصرية من جلالها وعظمتها فرحة قريرة ، فيطمئن المصرى إلى أن تدبير المال الوطنى ، وإنشاء الصناعات الوطنية الواسعة النطاق المكفولة النجاح ، ليس وقفاً على بلاد الغرب ومواهب الغربيين ، ويطمئن المصرى إلى أن اتهام مصر بالعجز فى هذه الناحية الحيوية من نواحى الحضارة ، إنما هو خرافة غربية وتهمة أجنبية ، ألح القوم فى إعادتها وتكرارها تخذيلا للمصريين ، وقضاء

على بذور النبوغ فيهم ، وسداً لباب الأمل أمامهم وأبواب العمل !

خبرنى وأبيك ، ماذا يستطيع الغربى لبلاده فى ميادين المال والصناعة على اختلاف ضروبها ، وإنشاء المنشئات التجارية الحديثة ، متصلة الحلقات منوعة الألوان والأشكال فى البر والبحر وفى أجواز الفضاء — أكثر مما استطاعه لبلاده طلعت حرب وإخوانه المصريون فى هذه الميادين حتى الآن ، وهم ما زالوا يسبحون فى أحلامهم لمستقبل مصر الصناعى والتجارى ، ما زالوا يحلمون بالليل ، ويحققون أحلامهم الصادقة المجيدة بالنهار ! وهل تظن منافع هذه المنشئات الجليلة مقصورة على نتائجها المادية محسوبة بالدرهم والدينار ؟

كلا . بل إن لها من الفوائد المعنوية مايزيد على فوائدها المادية .

لقد عاودت المصريين ثقتهم بأن بينهم عدداً عظيما من الأفراد القادرين على أن يسابقوا الغربيين فى كثير من الأعمال التجارية والصناعية الحرة ، وها أنت ذا ترى اليوم ، وسترى فى الغد القريب ، منشآت من هذا الطراز لأفراد مصريين ، ولجماعات مصرية تفخر بها البلاد ، وتزدهر على أيديهم حياتها الاقتصادية !

***

والآن ، عرج بنا إلى ناحية العلم والعلماء ، وناحية الفن ورجال الفن .

أليس بين المصريين من يقصد إلى جامعات الغرب طالباً بادئاً ، فيعود فى بضع سنين عالماً يحمل أضخم الألقاب من أعظم المعاهد ، فإذا عاد إلى بلاده ، فهل ينقصه سوى الجو المستقل الحر ، الذى لا تكاد القرائح تثمر أنضج ثمارها ، إلا مستمدة من أشعته ، محفوزة بإلهامه ؟

وإذا كانت الحرية ، وكان الاستقلال ، خير بيئة تحفز العلماء المصريين إلى أن ينتجوا خير ثمرات القرائح ، فهما كذلك خير بيئة تدفع رجال الفن من أبناء الوطن إلى أن ينتجوا خير ثمرات الخيال ! !

ذلك أن الوطن المستقل الحر يحنو على أبنائه النابغين كما يحنو الوالدان على طفلهما النجيب المتوقد . يحنوان عليه ويعجبان به ، ويستثيران فيه كامن القوى ، بما يبديان

له من عطف وتقدير ! وكذلك الوطن المستقل الحر ، يعلم أن رفعته لاتكون إلا بأبنائه وبكد سواعدهم القوية وقلوبهم العامرة ، وقرائحهم المضيئة ، وهممهم العالية !

يومئذ يحس كل مصرى ، ولا سيما طبقة النابغين الممتازين ، أنهم الأركان ، وأنهم العمد ، التى يقوم عليها صرح الوطن المستقل الحر . وكفى بهذا الشعور دافعاً للعلماء المصريين إلى التوسع والتبحر والاختراع ، ودافعاً لرجال الفن من المصريين إلى الابتكار ، حتى يبلغ منهم الموهوبون مراتب العباقرة الأفذاذ .

وهل يرتاب أحد فى أن البيت الخالص لأهله ، المتفرغ لشئونه ورعاية أبنائه ، غير البيت يغلب الغاصب أهله عليه ، مسلحاً بالمكر والخديعة تارة ، وبالحديد والنار أخرى ؟!

وهل يجهل أحد أن شعور الكبرياء والكرامة ، والاعتزاز بالوطن المستقل الحر — شعور يعمل فى النفوس عمل السحر ، فيسمو بها إلى غاية ما تستطيعه الطبيعة البشرية ، من كدح متواصل فى سبيل الاحتفاظ بحرية الوطن واستقلاله !

فالعلماء ، وأهل الفن ، والأدباء ، وذوو الرأى ، والتجار ، والصناع ، وكل من رواه وروى آباءه ماء النيل ، إنما هم تحت راية الوطن المستقل الحر جنود بواسل ، لا فرق بينهم وبين الجيش المحشود فى ميادين القتال ، سوى اختلاف فى أنواع السلاح ووسائل الدفاع !

لقد شهدت بذلك أحوال الأمم الحرة المستقلة ، خلال سنوات الحرب العظمى ، بين دول الحلفاء وأعدائهم على السواء .

لقد استحال فى تلك السنين رجال الوطن ونساؤه ، شيوخه وشبانه ، علماؤه وجهاله ، جامعاته ومصانعه ، وكل معهد فيه ومتجر ، بل كل ذرة من ذرات الوطن المستقل الحر ، إلى كتلة متراصة هائلة من الأيدى السريعة العاملة ، والعقول السريعة المنتجة ، والأرواح القوية المبذولة فى حومة الوغى تحت النيران ، أو فى حومة الإنتاج الخارق لكل مألوف معروف ، تحت راية الوطن الذى يكافح عن الحرية ، ويرفع لواء الاستقلال .

***

هذا وعلى رغم القيود والأغلال التى أوثق بها مصر ظلم الظالمين ، وجور المستعمرين ، وعلى رغم الظلام الحالك والجو المسموم الذى يحيط بهذه الأمة الصابرة المجاهدة ، ترى بذور النبوغ تنبت فى أرض مصر الخصبة المنتجة ، فى كل منحى من مناحى الحياة .

ولا نريد أن نتمثل فى عالم الأدب ، بطريد الاضطهاد ، الذى ضاقت به الجامعة المصرية — الدكتور طه حسين .

ولا نريد أن نتمثل فى عالم الفن ، بالطريد الآخر الذى ضاقت عنه مصر فى هذا العصر ، واتسعت له باريس — المثّال مختار .

وإنما خصصناهما بالذكر هنا لما عانيا فى جو مصر الحاضر من عنت ، ولأن شأنهما وشأن كثير من رجالات الأدب والفنون فى مصر ، دليل ناهض على أن أخلص ما تكون الآداب والعلوم ، وأصفى وأغزر ما تكون ثمرات المواهب والعقول ، حين تخفق على ربوع الوطن ، راية الحرية والاستقلال !

***

على أننا فى هذا المقال لسنا بسبيل التفصيل والإحصاء لما يصيب مصر من أذى خصومها فى الداخل والخارج ، ولا بسبيل التفصيل والإحصاء ، لما يوضع فى سبيل ارتقائها من أسداد وعقبات .

وإنما مرادنا بهذا المقال أن نثبت استعداد المصرى لأن يلحق بالغربى — وقد يفوقه فى حلبة الحضارة ومعتركها — إذا لم تغلق السياسة الملتوية فى وجهه أبواب الفرص ولم تسلبه حرية النبوغ .

ماذا تختار أن أحدثك فيه من دلائل القدرة المصرية ، والكفاية المصرية ؟ أميدان الرياضة البدنية والقوة الجثمانية وأساليب المهارة فى ألعاب الغرب ؟

قلما يمر بك عام بل شهر دون أن تقرأ أو تسمع ، أن بطلا مصرياً قد ذاع صيته فى أوربا ، واشتهر انتصاره على أبطالها فى نوع من أنواع الرياضة التى كلف بها القوم ومرنوا عليها منذ أجيال !

أتريد أن تقفز من هـذا الميدان إلى ميدان الثقافة ، ثقافة البنات فى مصر بله ثقافة البنين ؟

إن هذا العام قد شهد فتاة محامية مصرية ، وشهد طبيبات مصريات ، درسن منهاج الطب كله كشأن زملائهن من الفتيان !

أتريد أن تنتقل من الأرض إلى السماء طفرة ، ومن سباق اليابسة إلى سباق الهواء ؟

إن لطفية النادى ، تلك الفتاة المصرية النابتة فى بيت مصرى ، كذلك الذى يضم إخواتك و بناتك ، والتى لم يروها ماء غير ماء نيلك ، ولم تظلها سماء غير سماء وطنك ، لطفية النادى هذه إحدى الملايين من أخواتك ، قد بدا لها أن تتعلم الطيران منذ زمن ما نظنه يعدو سنتين ، وقد يكون أقل ، فكانت مدرستها إحدى منشئات طلعت حرب و إخوانه — وفجاءة ، وعلى حين غرة من جم غفير من نسور الجو المشهورين ، وأبطاله المحنكين الذين قدموا إلى مصر زرافات ووحداناً ، ليتسابقوا فيما بينهم أيهم أعظم سرعة وأوفر حذقاً بفن الطيران — نقول فجاءة وعلى حين غرة من أولئك النسور الجوارح ، تبرز فتاة فى الميدان ، وتحلق فى الجو وتعلو إلى السماء ، متواضعة باسمة ، ولكن مطمئنة واثقة .

فما هى إلا أن تعود الحمامة المصرية الفتية منتصرة ظافرة ، وما هو إلا أن يعود النسور الجوارح متخلفين مسبوقين ، ولكن مهنئين دهشين !

أمعجزة هذه أم سحر ورثناه عن موسى وهرون ؟ لا هذا ولا ذاك . بل المواهب المصرية القديمة مازالت تنحدر على الأجيال والحقب ، من مصر الماضية المجيدة ، إلى مصر الفتية الطامحة !

* * *

ومنذ مصرع الشهيدين الطائرين (حجاج ودوس) فى سبيل الواجب ، ومنذ هذا الانتصار العجيب الذى أحرزته مصر الفتية فى شخص لطفية النادى بنتها الفتية ، ومنذ الجهود التى بذلها « سالم » والمصاعب التى صادفها « حاذق » فى الصحراء غير

متبرم ولا نادم — منذ هـذا كله أصبحنا وأمسينا نسمع أزيز الطائرات الأجنبية ، فلا نستحذى ولا يعرونا الخجل ، يقيناً منا بأن القوة الغاصبة هى التى تحول بين مصر و بين أن يكون لها أسطول جوى محترم ، وجيش عظيم العـدد عظيم العدد ، وأقدام ثابتة راسخة فى كل ناحية من نواحى الحياة !

ولـكنى أتعزى فأقول ، أن مصر الحرة المستقلة ، ستكون هى الـكفيلة بهـذا كله ، لأن هذا كله وأضعاف أضعافه لن يكفله لنا سوى الحرية والاستقلال !

لذلك أهتف من أعماق نفسى . ليحيى العاملون للحرية ، العاملون للاستقلال .

١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨[١]

لك الخلود والتقديس ياذلك اليوم الساطع بين غيوم السنين . لقد جئت نفحة علوية من عند الله ، كى تعلم اللاصقين بالأرض منا كيف يطمحون إلى السماء بالعقول والقلوب والهمم .

كم وددنا أيها اليوم الأغر لو دمت فينا سرمداً — لا لنجاهد خصيمة الأمس وحليفة اليوم ، ولكن لنجاهد فى طوايانا شرور أنفسنا ، ولا لنريق دماً زكياً ، أو نزهق روحاً غالية ، ولكن لنريق بيننا كل شهوة خبيثة وكل مفسدة فاشية .

لو دامت فينا عظمتك أيها اليوم الأغر ، لضحى اليوم بالمطامع من كان فى أيامك يضحى بالمهج ، ولو دامت فينا عظمتك ، لما استباح المغنم المحرم ، من كان فى أيامك يتجرد حتى عن حقه المشروع طوعاً ، كما يتجرد السيف من غمده ليلمع فى حومة النضال .

* * *

عزيزى ١٣ نوفمبر :

يالأيامك من أعلام كانت مرفوعة فى مجاهل الفتن . يالها من واحات فى صحراء تاريخنا الحديث كانت مزهرة مثمرة .

فى أيامك أيها العزيز — كان الصالح العام فوق المنصب وإن جل ، أما بعد أيامك فكم أصبحت العلاوة وإن هانت فوق الصالح العام .

فى أيامك كم طهّر الشرف الوطنى نفوس الفجار . أما بعد أيامك أيها العزيز فكم خفنا حتى على نفوس الشرفاء .

فى أيامك — كم فنى المصرى فى مصر ونسى ذاته . أما بعد أيامك ، فكم فنى فى ذاته ونسى مصر لنسيانك أيها اليوم العابر الخالد .

فى أيامك ، كان الأمى الساذج يهتز حمية وعزة كلما رنت فى أذنه أو جرت على لسانه كلمة الوطن . أما بعد أيامك فكم يموت هذا الاسم الكريم بلفظه ومعناه فى نفوس مثقفة !

---

(١) نوفمبر سنة ١٩٤٣

فى أيامك ، كان جهادنا تنافساً فى سبيل الهدف المشترك . أما بعد أيامك ، فكم كان تناحراً فى سبيل المغانم والثمرات والسلطان .

فى أيامك، كم كان الأطفال بفضل سرك العجيب فتياناً ، وكان الفتيان رجالا ، وكان الرجال أبطالا بواسل . أما بعد أيامك فكم أصبح الفتيان أطفالا ، والرجال غلماناً لاعبين ، أو شيوخاً مقعدين .

فى أيامك نافست فتاة مصر نجوم السماء فى السنا والسناء ، وفى المناعة والصون ، دون ترفع عن دخولها الملهم فى ساحة المجد ومواطن العمل . أما بعد أيامك فكم تنافس فتاة مصر نجوم السينما فى التبرج والطلاء ، وفى التماس إعجاب الناظر والمتفرج ، بالتظرف المصنوع والحياء المرفوع ، والسباحة العارية إلا قليلا بين العراة إلا قليلا . وفى رقص المخاصرة بين كؤوس لو احتساها أخوها فى أيامك ياعام الجد والشرف ، لعده المجتمع بدعاً جريئاً ، ولو رآها قاسم أمين لولى منها فراراً ، ولبرىء إلى التاريخ من حرية رآها رشاداً وحكمة ، فإذا هى فوضى وجنون !

فى أيامك — كم عبدنا الوطن بعد الله . أما بعد أيامك ، فما نكاد نعبد الله إلا بعد المال والجاه والأثرة الضاربة .

عزيزى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨

أحن إليك وأفديك وأتعطش إلى كوثرك الذى شرب المصريون من صفوه كؤوس الأخاء خلال الجهاد .

أتعطش إلى ماء الحياة من كوثرك ، فهل يعود فيروينا ويحيى فينا موات النفوس ؟ وشموسك وأقمارك وكواكبك الروحية الدرية — ألا تتفضل فتعير حرارتها وضياءها أخاك الذى ولده والدك الزمان — هذا الصباح ؟

عزيزى . . لقد شاخت ذكراك فى قلوبنا فشخنا . ألا تودع أسرارك جوانح اليوم الجديد عسى أن تناجينا بنجواك ، فنذكر ، ونستعبر ، ونشجى ، ونحيا من جديد !

مرحباً شمس السلام ![1]

مرحباً شمس السلام بعد طول احتجاب !

عسى نورك أن يمحو من الدنيا المظالم كما يمحو الظلام !

عسى أنسكِ أن يجفف دموع الملايين وأن يرفه عن كل حبيب لوعة رزئه في الحبيب !

عسى أشعتك أن تنفح قلوب الجماعات والأفراد بخصب علوى ، يثمر الأخاء والعدل ، ويثمر الرقى والحكمة !

عسى حرارتك أن تبعث الحياة من الموت ، والأمل من اليأس ، والعمل من الركود !

عسى بهاء طلعتك أن يجدد لهذا العالم بهاء مضاعفاً وجمالا قشيباً ، يُذهب دمامة الفاقة والجهل ، ودمامة الخوف والمرض !

أهلا وسهلا بإشراقك يا شمس السلام أيتها العزيزة الحبيبة إلى الله والناس ، بل الحبيبة إلى الطير فى الأجواء ، طالما هالته أو قتلته فى غيبتكِ قذائف منقضة وأخرى مضادة ، بل الحبيبة إلى الأسماك فى البحار قتلتها أو روعتها بفتكاتها باخرة أو مدمرة أو غائصة ، بل الحبيبة إلى كل حى فوق الأرض وتحت السماء ، من نملة تسعى لرزقها ، أو نحلة تعكف على زهرها ، أو فراشة تهفو ، أو زاحفة تنساب ، ولا أمن لها ولا دعة إلا فى حضرتك يا شمس السلام !

***

لو تعلمين ما منيت به الدول والشعوب منذ احتجابك ياقرة العين وينبوع النعم !

لقد ابتذل الانسان مكنون العلم الذى كشفه الله لهذا العصر دون سابق العصور ترقية للبشرية فى معارج المعرفة ، وائتماناً لها على أسرار الطبيعة عسى أن يعود المرء ربانياً يقول للشىء بإذن ربه « كن فيكون » بفضل ما منحه من قدرته ، وأولاه

---

(١) ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب فى أوربا .

من مفاتيح غيبه وحكمته — فخان الإنسان أمانة مولاه ، واتخذ العلم وهو من صفات الرحمن ، سوط عذاب وخراب وموت ذريع عميم !

وتبارى — ياشمس السلام فى غيبتك — طلاب الغلب وطلاب النجاة أيهم أشد بطشاً عن طريق العلم ، وأفتك أسلحة وأسرع تدميراً وقتلا .

فوا أسفا على ألوف الألوف من الأرواح المزهقة والأطفال الميتمة والنساء المؤيمة ! ويا أسفا على أعواد الشباب الغض تحصدها مناجل الحضارة المزعومة ويأكلها سعيرها، كل جيل مرة ! ويا أسفا على أمم كانت مجيدة ، فأرادت أن تستذل غيرها من الأمم بالحديد والنار وبالنفر العديد والعلم العتيد ، فذلت التاعسات المسكينات واستكانت وباد مجـدها بفعل النار والحديد والنفر العديد والعلم العتيد ، كأن لم تغن بالأمس القريب ولا الأمس البعيد !

* * *

وياشمس السلام — لو اطلع جناة الحرب على محجوب الغيب لما استقدحوا زنادها ولا أوقدوا شعلتها ، ولآثروا لأشخاصهم العافية ولأممهم السلامة، فضرعوا إليك مخلصين كما نضرع أن أديمى على البشرية ضياءك وأنسك وهداك .

آها لما أصاب الآمنين الوادعين !

لو أنها كانت حرب تناجز بالسيوف أو تطاعن بالرماح ، أو ترام بالنبال ، بل لو أنها كانت حرب رصاص تقذفه البنادق أو قنابل تطلقها المدافع فى الميدان فلا تصيب إلا المقاتلين خاصة ، لا نحصر البلاء فى حدود لا يعدوها، ولهانت الكوارث بعض الشىء على الغالب والمغلوب . لكنها حرب أصبحت عمياء لا تبصر ولا تريد أن تبصر ماذا تحرق : أمعبد أم معهد أم بستان أطفال دارجين ، أم ملجأ شيوخ فانين ! . وهى حرب أصبحت صماء لا تسمع ، ولا تريد أن تسمع إعوال الرضيع على صدر أمه الممزق ، ولا انتحاب الأم على اشلاء رضيعها المتناثرة ! حرب بلا قلب ولاسمع ولا بصر ،تهدر بأمواج كالجبال ، فتغشى المدائن والقرى من فوقها ومن بين يديها ومن خلفها كطوفان من سقر !

* * *

والآن أهلا وسهلا يا شمس السلام مرة أخرى ! كلنا فرح بعودتك مستبشر بنورك . لا عليك بعضاً من أثرياء الحرب الذين استكرشوا فى غيبتك بعد مسغبة ! إنهم يودون لو تسيل الدماء فى أقطار الأرض أبداً ، لتسيل الأموال إلى جيوبهم أبداً . لكنهم بعض وليسوا كلا . فمن أثروا خلال الحرب وهم شرفاء ، لم يحبسوا عن الناس حاجاتهم الحائجة يتربصون بها إلحاح العوز ، ثم يقلونهم فى مقلاة السوق السوداء .

لا عليك أناساً شبعوا بإجاعة الناس ، ورزقوا بحرمان الناس . إنما أكلوا فى بطونهم النار . هم حرب على بلادهم متوطنة تطفأ جمرتها فى النور ، وتشتعل فى الظلام . هم جراثيم تشيع وباء الأخلاق ويطهرنا منها شعاعك . فأشعى وابسمى بل اضحكى يا شمس السلام .

***

لولا ريب جديد ، يخالج النفوس فى الشرق والغرب — يا شمس السلام ، لاقترنت طلعتك المحبوبة بأضعاف ما تشهدين من فرح ومرح وغبطة وبشر . ذلك بأن أنشودة العدل بين الأمم ، وإنصاف الضعفاء من الأقوياء ، لبث طنينها أو رنينها يطرب العالم المتسمع خمس سنوات أو تزيد . وكم أرقصت المزامير البريطانية الأمريكية مؤمنى العهد الجديد ، ما لم ترقص مزامير داود مؤمنى العهد القديم .

فما هو إلا أن لاحت تباشير النصر لأصدقاء الإنسانية ودعاة الحق والحرية ، حتى احتبست الأنشودة المقدسة فى الحناجر المنتصرة ، وثقل ذكر ميثاق الإطلنطى على الألسنة الظافرة ، فلما التف الصغار والأواسط حول الكبار فى مؤتمر سان فرنسيسكو سرعان ما استأسد ملائكة الرحمة والحق من جديد ، فلم يتركوا لأكثر من أربعين أمة سوى أنصباء الحملان والغزلان !

لكن الأقوياء يا شمس السلام قد لا يخشون احتجابك ، ولو جاروا على الضعفاء . ربما قال قائلهم : ماذا يملك الصغير الأعزل من الضر لدول دوخت ألمانيا واليابان ، وقد كانتا من كانتا طولا وحولا ومنعة !

لكنك يا شمس السلام شمس الله لا شمس البشر . فإذا شهدت جوراً — ونرجو أن لا يقع — فلا أقل من أن يحجب وجهك الوضاح كسوف ، أو على الأقل سحاب ينعقد من أنفاس الغاضبين !

هـذا هو الريب الذى يشوب فرحة الدنيا بإشراقك أيتها النعمة الغالية . . . نعمة المثل الأعلى للأخاء والمحبة والتعاون الصادق بين الشعوب والدول .

جنبك الله الكسوف أو التوارى وراء السحب ، وجنبنا التأثر بالمخاوف والريب أو التخاذل أمام المصاعب والعقبات !

***

والقنبلة الذرية ياشمس السلام ؟ جاء تحطيم الذرة كفيلا بتحطيم اليابان في يومين بقنبلتين اثنتين . وكان المنتظر أن تقاوم أشهراً أخر . ولقد خسرت اليابان أكثر أساطيلها فى البحر وأكثر أساطيلها فى الجو ، فلم نعلم أن الميكادو ساق التعزية إلى شعبه الباكى حول قصره ، ألا حين دمرت القنبلتان الفاصلتان مدينتين عظيمتين فاستسلمت أمة الشمس المشرقة لأمة القنبلة المهلكة .

هذا أخطر سر من أسرار الطبيعة أباح الله علمه للانسان منذ خلق . فكيف تسيطر عليه الدول فرادى ، أو كيف تسيطر عليه جماعة ؟

إن الأمم الصغيرة والمتوسطة فى غير حاجة إلى هذه القنابل الذرية التى خف حملها وغلا ثمنها . بحسبنا نحن تلك القنبلة الرخيصة المتواضعة من ذوات الأطنان العشرة ، فأما تلك التحفة الكونية الطريفة الظريفة من حجم البيضة فهدية الكبار إلى الكبار.

أما بعد فياشمس السلام إليك عبارة خالصة موجزة .

يوم تصبح القنابل الذرية سلاحاً مألوفاً يستعمل فى الحق ، لن تلبث أن تكون سلاحاً مألوفا يستعمل فى الباطل .

يومئذ توشك حضارة الغرب أن تزول كما زالت من قبلها حضارات واختفت أمم إنما أطلق الله للانسان قوة الذرة ليبلوه ، أيستعبد بها الأحرار ويعم بها الدمار، أم يذلل بها مصاعب العيش ويضاعف بهجة الحياة ؟

ثم أراد الله أن يريح كبريات الدول من تنافسها المرهق فى التأهب الدائم بالأسلحة المجددة والجنود المجندة — فهداها سبيل الموت من أقرب طريق — وإلا فهو سبيلها كذلك إلى الحياة !

إذن إلى الحياة ياشمس السلام . . . وهنيئاً للغالب وعزاء للمغلوب !

أهذا جزاء مصر...؟ (1)

حملت إلينا جريدة « التيمز » منذ يومين نذير السوء . فلنتدبر أمرنا ، ولنجمع شملنا ، ولنأخذ أهبتنا للأيام الكالحة المقبلة .

إن هذه الجريدة البريطانية الكبرى كشرت لنا عن أنيابها بعد طول ابتسام ، فأنكرت علينا مطلب الجلاء ، محتجة بحجة الذئب حين أراد أكل الحمل ، فجيشنا لم يقم الدليل على أنه يستطيع وحده حماية القناة ، والحالة الدولية ما زالت غامضة لا تسمح لبريطانيا بأن تجازف فتتخلى عن قواعدها فى مصر ، حتى ترى ذلك مأموناً غير مخوف .

ودعوتنا إلى وحدة مصر والسودان فى نظرها ، دعوة غامضة غير مفهومة . على أن بعض السودانيين يريد الوحدة أو الشركة مع انجلترا ، إذا كان بعضهم يريد الوحدة أو الشركة مع مصر . والحكومة المصرية لا ينبغى أن تتقاضى نصيبها فى الحكم الثنائى بالسودان تطبيقاً لاتفاق سنة ١٨٩٩ ومعاهدة سنة ١٩٣٦ ، فإن الإدارة السودانية قد ارتقت على أيدى الانجليز رقياً لا يجوز معه أن يكون للمصريين فيها شأن يهبط بها من جديد ، لأنهم غير أكفاء ومرتشون ...

هذا كلام وقع منا موقع الدهش . وإنما يرجع دهشنا إلى سذاجتنا التى حملتنا على تصديق الهاتفين بالحق والحرية من أعاظم الحلفاء ، يوم كان الحلفاء بين اليأس والرجاء . حسب الشرقان الأوسط والأدنى يومئذ ، أن عهد الظلام والعسف قد انقضى ليتبعه عهد الأخاء والنور . لكنه حسن ظن الشرق . وفى الشرق إنسانية وروحية وإيمان بالمثل الكريم أنبت الأنبياء . أما فى الغرب فصلف وجفوة وإيمان بالبطش المرذول أنبت القنابل . والروحية وحدها حيال هذا التجبر لا تنفع . فإن لم تسعفنا قوة المادة فلتسعفنا قوة العزائم . إن الحليفات الغربيات الأربع مجتمعات ، وقد سلكنا روسيا فى عدادهن بعد موقفها من إيران وموقفها من الأتراك — لا تقدرن على استعباد هذا الشرق إلا إذا أسلم عنقه للاستعباد .

---

(1) يناير ١٩٤٦

ان مجلس الكونجرس فى أمريكا يقرر نزع ملكية فلسطين من أيدى أهلها العرب ليقيم فيها الدخلاء الغرباء دولة أجنبية .

إن فرنسا تسلك مسلكها المعروف فى البلاد العربية الأسيوية والإفريقية ولا تريد أن تقلع .

إن روسيا تتحيف إيران وتجنى على تركيا على الصورة التى يشهدها الجميع .

وهذه بريطانيا سنة ١٩٤٦ هى هى بافتئاتها واعتسافها كما كانت بريطانيا سنة ١٨٨٢ .

إن أولئك الحلفاء يريدون الاتجار معنا ، ويطلبون المنافع الاقتصادية فى ديارنا على أن نظل فى الوقت نفسه قطعاناً من الغنم أو ملايين من العبيد .

وأنا من القائلين بأن هذه الحياة الدنيا — وهى دنيا فى ديارنا الشرقية بنوع خاص — لا تستحق أن يشتريها الأحرار بهذا الثمن المذل الباهظ — أعنى هذه المسكنة وهذا الصغار .

***

لجريدة التيمز رأيها الأدنى فى مصر والمصريين . أما الرأى الأعلى فى ذلك فلمصر نفسها وللمصريين أنفسهم . ورأى مصر الأعلى هو أن الدولة البريطانية غاصبة فى مصر جائرة فى السودان . فمصر لم تكن أيام الفراعنة قاعدة للجيوش البريطانية ، لأن سادة اليوم لم يكن لهم فى عالم الوجود مكان ملحوظ . ولم تكن قاعدة للجيوش البريطانية أيام العرب ، لأن إنجلترا لم يكن لها خارج ديارها جيوش غازية ، ولا داخلها جيوش منظمة . ولم تكن لإنجلترا قاعدة فى مصر فى التاريخ الحديث قبل الاحتلال المشئوم ، وكانت الهند هى الهند ، والبحار هى البحار ، والقناة هى القناة .

وهذه القناة التى خسرت بسببها مصر أكثر من خمسة عشر مليوناً من الجنيهات فى أثناء إنشائها وعلى أثره ، ولم يكن يقصد المغفور له الخديو اسماعيل بإنشائها سوى مجد مصر وخير العالم ، فاتخذتها إنجلترا حفرة تغرق فيها حقوق مصر وشخصيتها وكرامتها — هذه القناة لا يحرسها الخفراء كما يحرسون خزانة الذهب يحيط بها الأرصاد

المدججون فى البنوك ، و إنما هى مرفق تمكن حراسته من مكان غير بعيد من الحدود المصرية — لا يستغرق انتقال القوات البريطانية إليه فى زمن الطائرة والباخرة والقاطرة سوى ساعات .

ولا يعقل عاقل أن تنقض على القناة صواعق يلقيها الملائكة من السماء نكاية بإنجلترا . فإذا ألقاها شياطين أو أناس من سكان الأرض، فلن تلبث إنجلترا أن تحشد لها من حشود الجو والبر والبحر ما تقضى به الضرورة ، من قواعد جديدة — ولتكن قريبة من هذه الديار !

قلنا إن كلام التيمز قد وقع منا موقع الدهش . وكان ينبغى أن لا ندهش فهذا مستر تشرشل ، حاز إعجاب الدنيا وأنصت له سمعها، يوم كان بطل الحرية ولسان الحق المدوى فى الخافقين ، والنار تأكل الحضارة أكلها للهشيم .

فما هو إلا أن انتصرت دعوته وخمدت النيران المحيطة به و بقومه ، حتى وقف خطيباً بنفس اللسان ونفس البيان ونفس الوجدان — أعنى لسان تشرشل و بيانه ووجدانه — فى مجلس العموم — يصيح صيحة الباطل فى حماسة هادرة ، كما كان يصيح صيحة الحق فى حماسة هادرة، إذ يزعق — «يقولون إن لمصر ديناً على انجلترا — ألم نحمها من ذلة الغزو بأنفسنا وأيدينا وأسلحتنا ! » .

على أن القنبلة الذرية وحدها كفيلة بأن تذيق الأقوياء بأس الأقوياء بأبشع مما ذاقوا فى كل مامر من الأهوال . فلحكمة كشف الله للأقوياء عن هذا السر الخطير .

***

على أننا لا يجوز أن نحيل أمرنا إلى التعلات والمقادير .

فإن تكن انجلترا قد عولت على أن تجزينا عن وفائنا هذا الجزاء الوبيل ، وأن تظل على زعمها أن هذه الحرب قد أورثتنا بحبوحة وغنى ، وهى لم تورثنا سوى هذا السجن المظلم الذى ألقانا فيه نقدها الاسترلينى وعنتها الاقتصادى .

و إن تكن قد عولت على أن تجعل الجلاء عنقاء يحلم بها المصريون ولا تصدق أحلامهم فى الواقع .

وإن تكن عولت على أن ترى فى السودان بلداً هو أقرب إليها منه إلى مصر ، وأن تجد فى السودانيين شعباً هو ألصق بها رحماً وأوثق وشائج ، من دين ودم وتقليد وتاريخ .

إذن فلتعلم انجلترا أن هـذا الشعب المصرى الكريم قد ضاق ذرعه بالرق والاستكانة ، وأنه سيبرأ من حلفها ، ومن صداقتها ، ومن كل رباط يربطه بها من تجارة أو صناعة أو ود .

أما كيف نعلن ذلك وننظمه ، وكيف يكون مسلك العروبة فى هـذا الشأن وفى شؤون العرب — فله يومه الآتى إذا أراده الانجليز .

تقصفت أقلامك يا جريدة التيمز وجفت محابرك !

اليوم تقولين أن المصريين غير أكفاء ومرتشون ، وأنت تعلمين ضجة الرشوة فى السودان ومن أية أمة كان بطلها المغوار .

اليوم وقد أردنا الحساب ! هذه جريدتهم الكبرى . وذلك زعيمهم الأعظم .

هل تنام الجامعة العربية [1]

فى ظلال الحاميات البريطانية !

فى حديث خطير أذاعه مستر اتلى رئيس الوزارة البريطانية ليلة أمس — عبارة يجب أن تلفت أنظار المصريين خاصة وأنظار العرب عامة ، بل يجب أن توقظنا جميعاً من نومنا العميق الذى نحسبه يقظة وفطنة وسياسة وكياسة ، وما هو فى الواقع سوى أحلام يحسبها الحالم نشاطاً وسعياً وتوفيقاً ونجحا — حتى إذا تقوضت أعواد سريره الوثير بزلزال من الحوادث ، وخر على الأرض مرضوضاً صريعاً ، أيقن أنه كان فى سبات ولم يكن فى يقظة ، وانه كان يحلم والدنيا من حوله فى كدح وكفاح وجِد .

* * *

والعبارة التى نعنيها هي قول مستر اتلى لقومه البريطانيين فى إذاعته أمس :

« ويجب أن تدركوا ان من واجبنا الاحتفاظ فى الوقت الحاضر بالحاميات البريطانية فى المعاقل الحيوية الممتدة على طول شبكة مواصلاتنا البحرية والجوية » .

« والوقت الحاضر » فى لغة السياسة البريطانية — وهى لغة العمال والمحافظين والأحرار على السواء — معناه فيما يختص بالاحتلال وما إليه ، أن يكون الوقت الحاضر سرمداً لا ينتهى إلى أمد ، كوعدهم بالجلاء ستين مرة أو تزيد ، حتى إذا أبرمت المعاهدة نصوا فيها على أن صفة الاحتلال قد زالت ، ولكن جيش الاحتلال مقيم . وكان بودنا لو ذهب المسمى ، وبقى الاسم على سبيل الذكرى الأليمة المحزنة . لكنهم حذفوا الاسم وأثبتوا المسمى . وقبلنا على مضض . وقلنا لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً يغير ما بأنفسهم فى شأننا ، ويغير ما بأنفسنا فى شأنهم . وشاء القدر أن يحدث هذا الأمر فى صورة حرب لم ينكب العالم بمثل هولها وفظاعتها قط . وأصابت الكارثة

---

(1) سبتمبر ١٩٤٥

حليفتنا بجرح عميق . فأسونا جرحها ما استطعنا، ولم نألُ جهداً فى بذل العون الخالص بكل ما لدينا خمس سنوات كالحات كاملات فى غير من ولا أذى . وأنفسنا تحدثنا بأن بريطانيا إذا انتصرت ذكرت لنا ، وللشرق العربى كله ، صدق ولائنا لحلفها وقضيتها — قضية الديموقراطية والحق . ويومئذ لن نكون بحاجة إلى مطالبتها بالجلاء لأنها ستجلو عن ديارنا مطمئنة واثقة . إذ أى خطب ستخافه من عدوان الطغيان بعد أن قضت الحرب على قوى الطغيان ؟ وأى ريبة ستخافها منا بعد أن سبرت غورنا وخبرت وفاءنا وقت محنتها الكبرى خمس سنوات ؟

ثم ماذا تجديها قوة ترابط فى ديارنا مهما يبلغ من شأنها ، إذا نكبت الدنيا بهول جديد ؟ وماذا أجدت عليها قوتها التى كانت فى مصر يوم نشبت الحرب ، لولا مئات الألوف التى جىء بها من كل صوب وحدب ، فملأت الجو والبحر ، والعامر والغامر من هذا الشرق الوفى الأمين ؟

حدثتنا أنفسنا بهذا كله . ورجونا أن تخرج بريطانيا من هذه البوتقة مصهورة المعدن دقيقة الإدراك لنفسية الشرق الكريم ! نعم وحسبناها تكون أسرع إلى ما يرضينا منا إلى ما يرضيها ، وانها ستشترى دوام صداقتنا ، وقد ناهزنا اليوم عشرين مليوناً من النفوس المصرية الأبية ، بثمن زهيد ، هو أن ترفع هذا النير المذل عن أعناقنا : نير الاحتلال . وهو لن ينفعها فتيلا إذا بقى ، ولن يضرها فتيلا إذا زال . بل لو زال وزالت نظائره فى الدول العربية الأخرى وأحست إخواتنا من أمم الجامعة بأن إنجلترا تبادلهن كرامة بكرامة وولاء بولاء — لكفلت إنجلترا لنفسها اخاء عشرات الملايين من أبناء العروبة لا يخونون العهد ولا ينقضون الميثاق ، وهنالك لا يقف التعاون عند مجرد السلام والأمن ، بل يتجاوزهما إلى شئون التجارة والاقتصاد ، فى وقت غدت فيه انجلترا أصرخ ما تكون حاجة إلى كسب الأسواق باستمالة الشعوب لا إلى استدامة الحاميات فى القلاع الحيوية (الوهمية) فى عصر القنبلة الذرية — ببضعة ألوف من الجند هنا ، وبضعة ألوف هناك !

ومع اعتزام مستر اتلى على الاحتفاظ بالحاميات البريطانية فيما يسميه المعاقل

الحيوية الممتدة على شبكة المواصلات الامبراطورية (وهى معاقل لا يقع أكثرها إلا فى أملاك الغير) — يناشد أمته فى حديث أمس (بإيجاد نظام عالمى تستطيع الشعوب جميعاً أن تعيش فى ظله آمنة مطمئنة) !

هـذا ضرب قديم من التناقض الواضح بين القول والعمل ألفناه من السياسة البريطانية منذ عهد قديم . إذ أى طمأنينة وأى أمن يحسه المصريون مثلا ، إذا كان مستر اتلى قد أراد فيما أراد أن تظل القوات البريطانية فى منطقة القناة ما دامت (شبكة المواصلات) ملتفة الخيوط بأيدينا وأرجلنا ، فلا فكاك لنا منها ولا نجاة !

إن الامبراطورية بحمد الله قائمة دائمة فمواصلاتها يجب أن تظل قائمة دائمة — وإذن فلا زوال للشبكة ، ولا خلاص للصيد المسكين . !

على أن الأمر ليس مجرد أمن ولا طمأنينة. بل هو كذلك حرية وكرامة بشرية وحرص من الأمم المستقلة على أن يكون استقلالها حقيقة ماثلة . لا أضحوكة ملفوظة بالشفة واللسان .

وإذا كانت هذه البلايا التى تنصب على الإنسانية هلاكا وسعيراً يصلاه الغالب والمغلوب على السواء ، لا تبـدل شيئاً من عنت الأقوياء حيال الضعفاء ، فهل يرجى لهذه الحضارة أن تنجو من الهاوية التى توشك أن تبتلعها بين جيل وجيل .

يقول مستر اتلى فى حديثه أمس : (إن استخدام القنبلة الذرية يجعل النظـام العالمى ضرورة حيوية لبقاء الحضـارة فى المستقبل ، وإن على البريطانيين أن يسعوا لاتفاق وثيق مع الدول الأخرى على إنشاء نظام عالمى تختفى فيه الحروب اختفاء تاما) .

وهـذا كلام إذا فهمناه فى ضوء ما سقناه من عباراته السابقة ، كان معنـاه أنه حريص على عقد اتفاق وثيق بين الأمم التى يخشى جنابه أن تستعمل القنابل الذرية كروسيا أو أمريكا أو غيرهما من الأمم ذات السبق فى العلوم التطبيقية وفى القـدرة المـالية على استعمال تلك القنابل .

أما أمثالنا من الأمم الصغيرة أو المتوسطة فلا خوف من علومها — إذ أين هى ؟ — ولا من مواردها — فمتى كشفناها ؟ وإذن فحسبنا أن نكون مجرد معاقل فى الشبكة

البريطانية ، ومجرد مخافر للامبراطورية ، كى تطمئن ونخاف ، وتعز ونهون ، وتحيا حياة البطولة والمجد ، ونزحف نحن على الأرض ونلصق بالتراب كبعض الهوام ، و بعض الجماد .

***

ولعلنا بعد هذا كله أسأنا الظن بحديث مستر اتلى ، كبير وزراء العمال ورمز الديمقراطية الحرة والاشتراكية السمحة . فإن يكن ذلك ، فإنا نستغفر الله ونستغفره وإن يكن غيره فلا ينبغى للجامعة العربية أن تنام فى ظلال الحاميات البريطانية من جديد — وإلا فلينفضوا وليتفرقوا أشتاتاً وشيعاً كما هو دأبنا فى شرقنا العربى المسكين .

قال الملكان ...(١)

تصريح العظيمين ، صاحبى الجلالة ملك البقاع المطهرة ، وملك الوادى المجيد ، آية جليلة الشأن ، عميقة الأثر ، داخل الجامعة العربية وخارجها .

إن صاحبى الجلالة يعلنان على ملأ الدنيا رغبتهما السامية، فى أن تضرب جامعة الدول العربية للناس أكرم الأمثال (فى تعاون صادق بين جماعة من الدول متضافرة على سلامتها المشتركة ، ومتكافلة فى صيانة حريتها واستقلالها) .

هذه كلمات عاليات ، نيرات كالكواكب ، لا ترقى إليها الشبهات ولا تعشو عنها العيون ، لأنها ليست بدوات رأى يجرى بها قلم كاتب ، ولا سوانح خاطر يرتجلها لسان خطيب .

إنما هى وجدان ملكين يحلان من قلب العروبة فى السويداء .

هذا فاروقنا المحبوب سليل الأسود سيد الأشبال ، لو خافت بهمسة أو أشار بأنملة ، حمايةً لذمار أو دفعاً لعار ، لهرع أبناء هذا الوطن إلى التضحية بالأرواح والمهج، فضلا عن النفائس والأموال .

وهذا أخوه الكبير ، ليث الجهاد منذ نعومة الأظفار وريعان الشباب . هذا عاهل الجزيرة يرفع الكرامة فوق الحياة ، والاستقلال فوق نعماء الدنيا ولو كانت خلوداً . ومن حوله أقمار من ذات نفسه يستمدون النور من شمسه ، من ورائهم مئات الألوف ممن ضرّستهم خشونة البداوة ونهنهتهم سماحة الإسلام .

وفى الشقيقات العزيزات الأخر — فى العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن. وفى الأخت المعذبة فلسطين ، كبد العروبة الحرى وجرحها الدامى — فى كل أولئك رجال لهم أرواح الأناسى وقلوب الأسود .

وما تريد أمة من هذه الأمم العريقة إلا أن تعيش عيشة الأحرار فى ديارها التليدة الموروثة جيلا عن جيل ، وكابراً عن كابر ، منذ مئات بل ألوف من السنين .

---

(١) الأهرام ١٨ يناير سنة ١٩٤٦ — وهو التصريح الذى أصدراه أثناء زيارة عاهل الجزيرة لجلالة الفاروق .

نعم أن تعيش فى ديارها موفورة العزة مكفولة الحقوق ، فلا يضطر أبناء فلسطين بقوة المال وقوة النار إلى رق يسوده عنصر دخيل مجلوب ، ولا ترصد فى ديار الأحرار المستقلين جيوش أجنبية تقف منا موقف الحراس من الأسارى والسجناء .

كلا يا قادة الإنسانية وأساطين المدنية وأقطاب الحضارة الغربية . ما بهذا يرتقى الإنسان عن مستوى العجماء . إنما كوارث الحروب دروس من شأنها أن تعلِّم البر والإنصاف . فإلى متى تعاد الدروس ؟ وإلى متى يتباله العليم ؟ إلى متى يعاد الدرس فيبكى أو يتباكى إشفاقاً على المظلوم ، ويقطع العهود بين الدموع ليكونن من الخاشعين القانتين الأبرار ، وليكونن عوناً للمهضوم على الهاضم ، حتى إذا سكن الأوار وطَفِئت النار ، استأنف هو جوره وعدوانه وقضمه وهضمه — كأن لم يشق بالأمس .

***

لقد جاء فى التصريح الملكي المشترك : — « ونحن واثقون بأن جامعتنا ، وهى تؤدى هذه الرسالة بين العرب ، لا تريد علواً واستكباراً على أمة أخرى . . .

ونحن نشارك المسلمين والعرب جميعاً فى إيمانهم بأن فلسطين بلاد عربية ، وأن من حق أهلها وحق المسلمين والعرب معهم أن تبقى عربية كما كانت دائماً .

وإنا لنقدر كل التقدير ما يرمى إليه ميثاق الجامعة العربية من أن يكون لكل قطر عربي حقه الواضح فى تقرير مصيره والتمتع بحريته الكاملة » .

***

رفع الله بكما منزلة العروبة فى الشرق والغرب أيها العظيمان المجاهدان . وأيدكما وسائر ملوك الدول العربية ورؤسائها الغر الميامين بنصر من لدنه مؤزر .

لقائل صادق أن يقول بحق : أن سياسة الغَلَب والقوة مازالت بعد فواجع هذه الحرب كما كانت قبلها . وقد يجعلون فى أيديهم الفولاذية قفازاً من حرير ، ولكن إلى حين — إلى أن يستيئسوا من صبرنا فيجردوا الفولاذ من الحرير ، والأفاعى من الأزاهير .

لكن هيهات . لقد أفاق الشرق العربى من سباته الذى طال مداه . وفى بحار

الحياة العالمية مد وجزر ، وفى حقب التاريخ أمواج تعلو بالمشرفين على الخطر فينجون، وأمواج تهبط بمن وثقوا بالنجاة فيغرقون .

وما نريد الغرق لفرد ولا جماعة ولا أمة . و إنما نريد النجاة والأمن والعمل الحر الكريم ، للمثل الحر الكريم . نريدها لأنفسنا ونريدها على السواء لسوانا . فأما أن يسام الخسف ستون مليوناً من الأنفس الزكية الأبية الشرقية العربية ، لا لشىء سوى غرور الغرب وغطرسة الغربيين ، واعتقادهم فى دخائل أنفسهم ما كان يعتقده الفاشيون والنازيون ، من أن الناس من طينتين إحداهما شريفة مصفاة، وقد خلقوا منها والأخرى وضيعة مزدراة ، وقد خلقت منها العكارة من أبناء آدم — فلا والله لن يكون ذلك أبداً وفينا نفحة من روح ولفحة من حماسة ! ولن نكتفى ، نحن أبناء الأمم العربية بحماسة طارئة ، يلمع بريقها عاما أو بعض عام ثم يخبو . لن نكون شموعا بعد اليوم يطفئها النسيم — بل مشاعل قوية لا تزيدها العواصف إلا توهجاً ووقدة .

ولن تكون حماسة مفككة جوفاء ، مفككة كالشرر المتناثر معاذ الله ، أو جوفاء كالطبول الخاوية . بل حماسة الوحدة الحية الوثيقة لا تزايل منها ذرة ذرة ، ولا خلية خلية ، حماسة مفعمة بالتفكير والتدبير والحب الدائم والولاء المقيم .

كونى كذلك يا جامعة الدول العربية ، ويا أفراد شعوبها على القرب والبعد ، فى السر والعلن — ثم ارتقبوا النجح أكيداً والاستقلال الصحيح واقعاً قريباً أو بعيداً — ولكن لا ريب فيه .

هذا وخير ما أختم به هذه الكلمات عاطفة نبيلة عربية جاءت فى التصريح الملكى الخطير : —

« ونحن واثقون كل الثقة أن الشعوب العربية التى تتمثل آمالها فى جامعة الدول العربية لا تريد إلا السلم والحق والأخاء العام » .

هذه الرؤوس ...! [1]

كل شىء فى الدنيا يتطور ، إلا رؤوس بعض الساسة الإنجليز . منهم هتافة الحرية والأخاء أيام الحروب ، ومنهم عوامل العنت والبغضاء أيام السلام .

أنظر إليهم بعين الماضى القريب ، وهم ينتفعون بصداقة مصر وعون مصر إلى أقصى الحدود ست سنين ، كانت بريطانيا خلالها طائراً جريحاً فى مهب القدر ، فأعارته مصر من جناحها ريشاً ومن طعامها قوتاً ، ومن روحها الحانى عشاً يؤويه ، وأباحت له من أرضها وسمائها ومائها آفاقاً رحبة للكر والفر والاقبال والادبار ، وأسعفته بقوات مصرية تحرس القناة شرقاً ، و بقوات أخرى تدفع بعض العدو فى بعض المواقع غرباً ، وأرصدت من أبنائها للطائرات المغيرة من يسقطها أو يحاول إسقاطها بمدافعه فى كل مكان !

فى تلك السنين القريبة العصيبة هتف الساسة والقادة البريطانيون بجميل مصر ، وأشادوا بخدماتها الكريمة لقضيتهم التى زعموا أنها قضية العدل والحرية . وهذا إيدن ورئيسه تشرشل ، ما زالا فى عالم الأحياء وعالم السياسة ، تشهد المنابر والصحف بما سجلاه لمصر على بلادهم من مآثر .

***

وانظر اليوم إلى بعض الرؤوس البريطانية كيف تنتكس ، وكيف يعاودها داؤها القديم فى عام أو بعض عام . ألم تسارع إلى تبليغ شفوى من سفارتها ، مشفوعاً بتبليغ مكتوب من وزارتها ، تطلب فيهما إلى الحكومة المصرية تعويض ما أتلفه غضب الغاضبين لدمائهم من أبنائنا المسالمين ، وقد تجمعت جموعهم فى ميادين القاهرة لا فى ميادين لندن . والقاهرة عاصمتهم ، والوطن وطنهم ، ورثوه عن آبائهم وأجدادهم منذ ألوف من السنين قبل التاريخ ، ولم يغتصبوه من الإنجليز أو آباء الإنجليز . ولم يتلف أبناؤنا الغاضبون بعض المتاع أو بعض المرافق البريطانية ، إلا حفيظة لما أتلفت

---

(١) الأهرام ٢٧ فبراير سنة ١٩٤٦

سيارات جيشهم من أجسام مصرية ، وأزهقت من أرواح مصرية . ولمّا ثارت فيهم ثورة الغضب لمشهد الدم المرتخص ، وجنحوا إلى إحراق سور من الخشب يحيط ببعض المرافق الإنجليزيه — أمطروا وابلا دافقاً من رصاص المدافع الرشاشة ورصاص البنادق ، من فوقهم ومن بين أيديهم ، من شرفات بعض العمائر ، ومن ثكنات قصر النيل ، ومن الجنود المرابطين خلف السور . وفى دقائق كان القتلى خمسة عشر ، وكان الجرحى فوق المائة .

فهل بهذا الأسلوب يحفظون الأمن فى بلادهم ؟ وهل بهذا الأسلوب يحفظون الأمن فى فلسطين ، وهى ما زالت بحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ما زالت تحت نير انتدابهم ، والحكم المباشر فيها إلى مدافعهم وطائراتهم و بواخرهم — وفيها تدمر العمائر كل يوم ، وفيها تنسف دور الحكومة . وفيها يغتال من يغتال و يصاب من يصاب ، فلم نعلم ولم يعلم غيرنا من سكان هذا الكوكب أن خمسة عشر قتيلا وأ كثر من مائة جريح خروا صرعى تحت وابل القذائف البريطانية فى دقائق .

نحن لا نريد أن نهيج فى أبنائنا مزيداً من الغيظ والأسى . ولا نريد لأعمال العنف أن تستأنف بحال . بل نهيب مخلصين لله والوطن ، وبجيل مصر الناشىء العزيز ، أن يستجيبوا لدعاء القائمين بالأمر من رجال دولتهم المفداة ، حين يرجون منهم الإخلاد إلى النظام والتزام حدود القانون ، ليمكنوهم من متابعة المهمة الوطنية الكبرى فى هدوء وسكينة ، حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود من نيات الإنجليز !

* * *

ليس بنا إذن أن نهيج الشعور ، أو أن نخذل الوزارة فى دعوتها الوطنية الخالصة إلى التزام النظام ، بعد أن بذل الشباب من دمه الغالى ما بذل ، و بعد أن أعرب عن إراداته و إرادة أمته بأنفاس حرى صعدت إلى السماء .

و إنما نريد أن نحق الحق ونبطل الباطل بكلام صريح .

والكلام الصريح ، هو أن الإنجليز هم المطالَبون بتعويض مصر عن الدماء التى

أهرقوها بادئين بالعـدوان . فأما أن يطالبونا بثمن نافذة أحرق مصراعها ، أو حشيّة أحرق حشوها ، ومآتم الشهداء قائمة ، وجراحات الجرحى ندية دامية — فهذا حكم لا تقبله أمة ولو كانت من الحملان ، من أمة ولو كانت من الذئاب .

والكلام الصريح ، هو أن الإنجليز ليس لهم أن يلقوا علينا دروساً فى النظام والأمن ، ولا أن يوجهوا إلينـا أوامر فى شأن النظام والأمن . فنحن دولة مستقلة وهم فيها غاصبون ، وليس على المغصوب أن يتقبل أوامر الغاصب ، إلا إذا اعترف له بالحق والسيادة ، واعترف على نفسه بالرق والهوان . وحاشا أن يكون بين أبناء مصر إنسان ينزل على هذا الخسف المهين .

حكوماتنا تحتفظ بالأمن مختارة طائعة لا مأمورة مكرهة ، لأنهـا حكومة بلد متحضر ، لم تبدأ حضارته منذ قرون ، بل منذ عهد عريق فى القدم .

فليعدل البريطانيون عن هذا المسلك الغاشم جنوداً وساسة . ليعدل جنودهم عن خوض جموعنا بعجلاتهم كما تخاض الأوحال ، وعن رمى أبنائنا برصاصهم كما ترمى الحدأ والغربان . نعم ، وليعدل ساستهم هنـا وهناك عن مخاطبتنا بألسنة اللوردات ، يتنزلون فيصدرون الأوامر إلى عبيد الاقطاع .

لقد مضت القرون الوسطى إلى غير عودة . وهذا القرن العشرون قد أوشك نصفه أن ينقضى . وليس يدرى أحد كيف تكون انجلترا وكيف تكون مصر حين ينتصف — إلا شيئاً واحـداً تدريه مصر وتوقن به يقينها بالله و يقينها بالحياة . وذلك الشىء الواحد، هو أنها ستكون أمة عظيمة فى طليعة الأمم، لأنها فطنت إلى عزتها وطمحت من جديد إلى مثل مجدها القديم ، ولأن فيها شباباً أباة على رأسهم ملك أبى — ملك أبىّ تفديه مصر لأنه يفديها ، وتتفانى فى أعزازه لأنه يتفانى فى أعزازها وأعزاز بنيها .

نعم، وليقلع الساسة البريطانيون عن رفع تبليغاتهم إلى جلالة الملك إن صح ما قيل. فنظامنا نيابى لا يحتمل فيه الملوك تبعات الحكم ، أو تبعات الوزراء . و إلا جاز لحكوماتنا أن ترفع تبليغاتها إلى جلالة ملك إنجلترا كلما نجم بينها و بين حكومته أمر ذو بال .

***

تطورى يارؤوس الساسة الإنجليز . وتنورى يا قذائف الرماة الإنجليز . إن كل طيشة فى سياستكم ، وكل رمية من مدافعكم أو بنادقكم — إنما هى هدمة فى الكيان البريطانى بين الدول . ألا تفطنون ؟ ألا تدركون أية أمة تعاملون ؟ إنها ليست أمة الثورة العرابية ، كلا ! وليست أمة سنة ١٩١٩ ، بل هى فوق ذلك ، وأشد من ذلك ، وآبى للضيم والهون من ذلك . أنها وليدة الذرة ، لا ذرة المادة التى يطلقها من يطلقها للفناء ، ولكن ذرة الروح التى يطلقها المصريون من بين الجوانح للجلاء والعلاء والخلود .

الى الضمير البريطانى [1]

ما أظن حليفتنا العظمى ستأبى على مصر أن تستكمل استقلالها يوم تنصرف الشعوب من حومة الموت والدمار، إلى حلبة الحياة والعمران. وما أظنها ستحاول القطيعة بين التوأمين اللصقين مصر والسودان، إذ لو انفصلا لهلكا معاً.

لقد جربتنا انجلترا عشرات السنين، محتلة مسيطرة، فما حمدتنا ولا حمدناها، ثم كانت الحرب الماضية، فبسطنا لها المعونة بالأيدى دون القلوب، واشتد بعد الهدنة حرصنا على الاستقلال، فاشتد حرصها على الحرمان. أو على تطفيف المكيال، وتخفيف الميزان. حتى أبرمت المعاهدة، واعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة، على أن يبقى الاحتلال بالفعل دون الاسم عشرين عاماً، وعلى أن يكون للطرفين إعادة النظر فى الأمر بعد انقضاء عشر سنوات.

وإنما أصرت بريطانيا فى ذلك العهد على استبقاء قواتها لسببين: أحدهما باطن، والآخر ظاهر.

أما الباطن فعدم اطمئنانها إلى إخلاص مصر، إذا كفت يد الخصومة، وبسطت يد الاخاء. وأما الظاهر، فالمعونة على حراسة القناة إلى أن تستطيع مصر وحدها حراستها.

وما نظن الضمير البريطانى الذى اشتعل ناراً تلظى خمسة أعوام ونصف عام — وما زال يشتعل — حفاظاً على الحق وفداء للمحقين — ما نظنه يرى من الحق أن يرتاب اليوم أو غداً فى شرف العهود المصرية ونبل الأمة المصرية.

أذكر أن لورد اللنبى، بعد أن أغمد حسام الجندى الباسل، وامتشق ضمير السياسى النزيه، ألح على حكومته فى الاعتراف لمصر باستقلالها، إقراراً بفضلها. وعرفاناً بخدمات عمالها فى الحرب الماضية.

كان ذلك عرفان الخصم الشريف حق خصمه الشريف بالأمس. فكيف

---

(١) أخبار اليوم (العدد ١٥).

يكون عرفان الحليف الشريف حق حليفه الشريف فى الغد ؟ أى بعد اختبار أعوام من الضراء ، كل عام منها أصدق تجربة وأقطع برهاناً من مائة عام !

أما حراسة القناة — فممن ؟ لا خطر عليها بعد اليوم أجيالا ، فى ظروف أصبح فيها بعض أسلحة الجو أسرع طيراناً من الصوت ، وأصبحت القوة العالمية كلها مركزة فى ثلاث حليفات متعاونات على العدو ، حتى إذا تمت عليه الهزيمة ، غدون متعاونات على حفظ السلام العالمى بوسائل دولية لا تؤذى كرامة الأمم المسالمة ، ولا تضرب عليها ذلة الاحتلال ، مهما يخترع له من أوصاف وأسماء .

هذا — ومهما يكن من تأويل الأقوياء لميثاق الأطلانطى ، فإن الضمير العالمى سيضىء فى العصر الجديد بميثاق جديد ، مداده دماء البشرية التى أهرقها الغالب والمغلوب ، والتضحيات الجسام التى عاناها المحارب وغير المحارب على السواء — ميثاق جوهره ان لا إذلال للشعوب بعد اليوم .

الغد المأمول (١)

فى غد قريب سعيد تمحو أنوار السلام ، ظلمات حرب ماحقة ضروس ، وتحظى مصر وأخواتها المجاهدات من شمس الصباح المنتظر ، بحرارة الحياة الحرة ، وضياء المثل الإنسانى الأعلى .

تحت أشعة الشمس الجديدة فى العصر الجديد ، تفتضح المطامع الجائرة القديمة ، فتتوارى أو تذوب — أو يصرخ صارخ عالى من دم الملايين على الأرض ، ومن أرواحهم فى السماء — أين قضية الحق الشامل الموعود التى فى سبيلها استمتنا ، فمتنا ، فسميتمونا من أجلها شهداء ؟

قد يسخر من هذا خيال قارىء متشائم ، فيقول : —

إن الإنسان لن يزال هو الإنسان فى غرائزه وأثرته ، وفى بطشه قوياً وذلته ضعيفاً . ألا ترى إلى جنة الحضارة كلما أخذت زخرفها وأزينت ، أكلتها نار الحضارة نفسها ، فتركتها قاعاً صفصفاً كأن لم تغن بالأمس ؟

ومن الناس مع ذلك فلاسفة يفكرون فى حكمة الوجود ، ومثاليون يدعون إلى نعمة الأخاء ، وشعراء يحلمون و يتغنون بفردوس الحياة ! فما هى إلا أن يظهر هتلر آخر ، فإذا الآدميون وحوش ، و إذا السماء رجوم ، و إذا الأرض والبحار قبور ، و إذا الدنيا قد انقلبت آخرة !

وفيم إنكار الواقع المشهود ، وهذه فرنسا — فرنسا العظيمة أمس الأول ، الضحية أمس ، المقالة اليوم من عثرتها الشادهة التى أدمت قلوب المعجبين بثقافتها العليا ، وتاريخها الحافل — هذه فرنسا لم تكد تقال من عثرتها حتى وسوس لها الشيطان ، الذى وسوس لغزاتها من قبل : — أن تحكمى فى الصديق مثلما تحكم فيك العدو ! وقد كان البر وكانت العظة أن يرعى العدل من عانى الظلم ، وأن يقدس الكرامة من سيم المهانة . وهل أحنى على الجريح من الجريح ؟

---

(١) أخبار اليوم (العدد ١٦)

هذا قول المتشائمين ظاهره صحيح و باطنه خطأ . فالجماعة البشرية كلما أصابتها من صنع أيديها نكبة قارعة نهضت من صرعتها واعية مفكرة ، ثم تنسى ، فتحترب ، فتثخنها الجراحة ، فيعاودها الوعى والتفكير مرة أخرى ، حتى إذا عمّت الكارثة كل الأمم أوجلها، كان جديراً بوجدان العالم أن يستيقظ وأن يناجى نفسه كيف الخلاص ؟

هنالك يهتف به هاتف من أعماقه — لاخلاص إلا أن يأمن الحمل حيف الذئب بين الأمم .

تلك خطة مرسومة لارتقاء الإنسانية هى من وضع بارئها العليم — أن تعرج إلى مثلها الأعلى ، على سلم من الأشواك ، حتى إذا دميت أقدامها وتمزقت جلودها خلال المعراج ، ثم بلغت أوج الأمن والأخاء ، نظرت إلى درجات السلم الدامية بعين باكية — تلك دموع الفرح والنصر المبين ! لقد خلص الإنسان من ضراوة الوحش وضلال الشيطان .

أيها المحبوب ملك الكنانة وعزيز الوادى . لقد أنجح الله مسعاك .

يا ملوك الشقيقات ورؤساءها ووزراءها وشعوبها الأمجاد . لقد وافاكم هذا العهد السعيد المومق فأبشروا ، أبشروا — وفى عروتكم الوثقى كفيل من الله نعم الكفيل .

(١)
عزاء ورجاء

إلى صاحب الدمع الهتون والتبعات الجسام !

إلى رجل الساعة ، نقاسمه اللوعة على الصديق ، واللوعة على الوطن .

إلى الأخ فى الجهاد منـذ الصبا ، يخلف أخاه الشهيد — وفى نفسه من جلائل الماضى المزدوج ، ذكريات هى الحياة الوطنية الباسلة فى ذروتها العالية !

إلى الصـنو العامل فارقه — بالجسم — صنوه الراحل ، وروحه معه تناجيه وتلهمه وتقويه .

إلى أمل عظيم ترجوه مصر ، بعد أمل عظيم تفقده !

إلى المتين الخلق ، الناصع الصحيفة ، رضيه الله واختاره الملك خلفاً كريماً لسلف كريم ، فى أجلّ عهود الدنيا وأدق مراحل مصر والشرق العربى !

إلى حضرة صاحب الدولة محمود فهمى النقراشى باشا — نتقـدم بالعزاء مرة أخرى — ونتقدم بالرجاء .

* * *

أما العزاء ففزعة الوادى ولهفته المرتاعة للنبأ المشئوم .

والعزاء عبرات فاضت بها عيون الأمة عليتها وجمهورها على السواء !

والعزاء قلب المليك — ينبض بالأسى العميق ، على فقيد فذ من أولياء عرشه ، وأبطال وطنه ، وينبض بالحدب الشفيق على آل بيته العزيز الحزين .

والعزاء مصر يوم احتشدت مئات من الألوف لساعة الوداع ، كحبات قلب عظيم جريح سويداؤه جثمان أحمد .

والعزاء أنت وزملاؤك ومواطنوك من كل بيئة وطائفة وطبقة، من الذين يتناسون أنفسهم فى السر والعلن ، ليذكروا مصر بالقول والعمل !

والعزاء مثله الأعلى الذى ضرب به لطلاب المجد الخالد فى الحياة وفى الممات !

* * *

---

(١) أخبار اليوم (العدد ١٧) — بعيد وفاة الشهيد الدكتور ماهر باشا

أما الرجاء فهو أن يرقأ دمعك ، وتفيض همتك .

والرجاء هو أن تأسو جراحة مصر بالتشمير لمهمتك .

والرجاء هو أن تجعل إتمام الرسالة — رسالتكما — منذ الصبا — قرة عينك فى الدنيا ، وقرة عينه فى الآخرة .

والرجاء كل الرجاء ، هو أن تبحث وتفتش وتنقب ، ما وسعك البحث والتفتيش والتنقيب ، عن كل ذرة من التبر المصرى خافية فى الرمال — أعنى المواهب المعطلة والكفايات المطمورة ، فتش عنها وأبرزها ، وعبئها جنداً محشوداً ، ذا خبرة ودراية بحاجات البلاد ومطالبها اليوم وفى الغد القريب .

لقد انطلقت مصر بإعلان الحرب من عقال الأمة المنعزلة إلى ساحة الحياة العالمية والمؤتمرات الدولية ، فانظر فى الكفايات العليا بين المواطنين ، وأوفد أصحابها بعوثاً ورسلا ، يرفعوا شأننا ، ويظهروا حقنا بين الدول ، ولا عليك أن يكون الرسول من حزب أو لا حزب له . فالمصرية الخالصة والشخصية البارزة والخبرة الممتازة ، هى الجواز يومئذ إلى مؤتمر يحكم فى مصائر الأمم .

كانت هذه سنة أخيك المثلى . وهى سنتك من بعده إن شاء الله ، لا فضل فيها لأحد سواك وسواه .

رسالتنا فى المؤتمر[1]

وفد مصر إلى مؤتمر سان فرانسيسكو ، لو سافر وفى قلبه حرارة الإيمان بأن حضارة إنسانية عادلة يجب أن تنشأ ، و بأنهم رسل مصر ، فيقيمون حجة الحق على ملأ الأصدقاء الغالبين ، دون أن تعرو رسالتهم لجلجة أو وهن ، ودون أن تذهلهم عظمة الدول العظمى أو أقطابها ، عن عظمة الحقوق التى ما دامت مدوسة محقرة ، فالعلة قائمة والنتيجة دائمة : حروب وكروب ، ومدنيات كاذبة ذاهبة إلى الدمار بين جيل وجيل — أقول لو سافر الوفد ناسياً أن مصر صغيرة ، ذاكراً أن حقها كبير — ناسياً أن الأمة العربية فيها ضعف ، ذاكراً أنها سبعون مليوناً من النفوس ، التى تعاف من الخسف ما تعافه شعوب روسيا وأمريكا و بريطانيا وفرنسا والصين — إذا نسى وفدنا تلك الطوارىء ، وذكر تلك الحقوق التى يجب أن تنتصر ، ليزول الرق عن المستعبدين من الشعوب ، كما زال الرق عن المستعبدين من الأفراد — إذن فقد أبلغ وفد مصر رسالتها ، وأدى أمانتها ، و برر الثقة التى أولتها إياه مطمئنة آمنة .

***

كاتب هذه اللمحات متفائل بطبعه . ومن عناصر إيمانه أن الحياة البشرية فى جملتها تسير — إن لم نقل من حسن إلى أحسن — فمن شر شديد إلى شر أهون . ومن هنا كان مذهبه فى حياة الأمم أن تكون أملاً مقروناً بالعمل .

أما اليأس الساخر ، مقروناً بالحسرة الكاذبة على ما فات ، والنوم العميق عما هو آت ، فضرب من الموت يفرح به أصحابه ، ويحسبونه الحياة كل الحياة — بل الوطنية كل الوطنية !

ومن عجيب أمرهم ترحيبهم بكل شىء يزيدهم يأساً على يأس ، واستسلاماً على استسلام . من ذلك ما رواه « روتر » منذ يومين عن مراسل « نيويورك تيمس » فى بروكسل « من أن ثقة البلجيكيين ضعيفة فى نتائج المؤتمر ، إذ الرأى العام يعتقد

(١) أخبار اليوم (العدد ١٩)

أن المؤتمر ما هو إلا اجتماع يعقده ثلاثة من الرؤساء يتزعمون فيه مجموعة من الأطفال ، ويلقون عليهم دروساً فى الأدب والتصرف » .

بهذه العبارة فرح المتشائمون . أما أنا فأقول أن الأمم الصغيرة ، لن تقف من الأمم الكبرى موقف الأطفال ، إلا إذا نزلت عن رجولتها وعزتها مختارة طائعة . وحاشا أن يصدق هذا الوصف على وفدنا أو أى وفد عربى كريم .

وعلى فرض أن يضيق هذا المؤتمر أو سواه بحقوق مصر واخواتها ، فإن فى ميدان الجهاد متسعاً لا يُحد . لكن يجب أن نخرج من غيابة الجب إلى سطح الأرض ، إلى مجتمع الدول ، إلى الأمل مقروناً بالعمل — فلا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة ، كما قال مصطفى كامل ، وكما يجب أن يقول كل حى .

متى تضىء شمسنا (١)

داؤنا الحديث كثرة الكلام وقلة العمل . كم نتمنى ولا نكاد نسعى . مطالبنا جمة و إنتاجنا ضئيل . تسائلنا أرضنا الموات متى أحيا ؟ ومعادننا الدفينة متى أظهر ؟ وماؤنا الضائع فى البحر متى أصان ؟ وكهرباؤنا الكامنة فى مساقط أسوان متى استحيل نوراً وحرارة وقوة ؟ .

مضى ربع قرن على فجر نهضتنا — وما زال الفجر حتى ساعتنا هذه فجراً لم تعقبه شمس ولا ضحى ، رغم الدستور والمعاهدة ، وانتخاب يتلوه انتخاب ، وشيوخ ونواب يتلوهم شيوخ ونواب . ذلك بأن الاستقلال حتى إذا تم ، والحياة النيابية حتى إذا توثقت عراها وقاربت الكمال ، إنما هما وسيلتان إلى غاية ، والغاية هى أن تُبعث الأمة — حكومة وشعباً — بما يتاح لها من تكافؤ الفرص عن طريق الدستور ، وتحرر الهمم عن طريق الاستقلال ، إلى حلبة زاخرة بالكدح والمجاهدة ، مجاهدة الطبيعة حتى تؤتينا أقصى مواردها ، ومجاهدة العلوم حتى تمدنا بأحدث طرائقها ، ومجاهدة النفوس حتى تلتئم الأهواء الممزقة هوى واحداً ، هو هذا البلد الذى يئن من جراحات الداخل ، مالا يئن من جراحات الدخيل .

أقسم لو أبدل الله منا قوما غيرنا — وأقولها كلمة قاسية على نفسى قسوتها على القارىء — قوماً من أولئك الذين يحيلون الرمال بالعلم ذهباً ، والمياه بالعلم نوراً ، و يسبقوننا فى مواكب العلم والفن والاختراع والجد بمئات السنين، وليس بيننا و بينهم سوى يوم على مطايا الجو ، أو يوم وليلة — إذن لتضاعفت ثروة مصر القومية ودخلها القومى أضعافاً ، ولاتسعت مرافقها حتى لا تكاد ترى فيها عاطلا ولا عانياً ولا محروما ، وحتى لا جهل يغشى البلاد ، ولا مرض يعتصر أعواد السواد ، فإذا القرى مساكن ينعم فيها الآدميون ، لا برك ودِمَن تشقى بها الأنعام ، و إذا النيل أبداً عروس كل أيامه أفراح ، وكل لياليه جلوة وزفاف ، و إذا الوادى فردوس متصل ، والطرق بُسط

---

(١) أخبار اليوم (العدد ٢١)

ممهدة ، ووسائل النقل والانتقال شبكة لا تفلت خيوطها دسكرة ولا ضيعة ، وإذا المصانع ألوف مبثوثة تفيض بالإنتاج والرخاء ، وتطلب العامل قبل أن يطلبها ، وتزيد من رزقه قبل أن يستزيد . وإذا مصر التى تضج بالشكوى من الفقر والجهل والمرض ، قد أصبحت مصر المثقفة السليمة الغنية بخصب تربتها الزراعيـة ، وخصب كنوزها المعدنية ، وخصب مساقطها المائية ، وخصب وسائلها العلمية ، وخصب عقولها المفكرة وعزائمها المشمرة ! .

ومعاذ الله أن يبدل منا فى مصرنا الحبيبة قوماً غيرنا . ولـكن معاذ الله كذلك أن نظل على حالنا الحاضرة فى شـغل سخيف وبيل بيومنا عن غدنا ، وبالترهات عن العظائم .

لقد آن لهذا الفجر أن تسطع شمسه ، وأن يضحك ضحاه .

فلم أر فى عيوب النـاس عيباً　　　كنقص القـادرين على الـكمال

عهد مصر الجديد [1]

قلت فى اللمحة الماضية ، إن فجر نهضتنا ما زال فجراً لم تعقبه شمس ولا ضحى .

واليوم أقول : حان للشمس أن تطلع ، وللضحى أن يرتفع . فهذا عهد جديد فى مصر ، يوافق عهداً جديداً فى العالم كله .

ودولة النقراشى باشا — مستمداً عونه من توفيق الله وعطف المليك وذكرى الشهيد وتأييد الزملاء وثقة البلاد — يستطيع أن ينهض بالأمانة الكبرى نهضة وثابة لم يسبقه إليها أحد .

ذلك أن دنيا ما بعد الحرب لن ترضيها الهوينا ولا المهل . بل ستقفز فى مسالك الحياة وأفانين الحضارة قفزات لم يحلم بها حالم من قبل . فإذا نحن لم نقبل على هذا السباق متذرعين بذرائع الغد المنتظر ، فقد ضرب على مصر أن تظل سلحفاة بين الجياد السوابق .

وما أقصد بهذه الكلمات إلى استتمام الاستقلال وإنهاء الاحتلال . فهذا مطلب يسرى مع دم الحياة فى شرايين المصريين ، والعمل له فى يومه القريب مكفول .

وإنما أقصد إلى نواح أخرى أغفلتها العهود الماضية ، ولا تحتمل إغفالها مطالب الحياة فى العصر الجديد .

أقصد البعث الكامل الشامل ، لكل كمين ودفين من موارد الطبيعة فى مصر .

أقصد إلى استدعاء خبراء من ذوى الأخصاء العالميين ، يمحصون مصر تمحيص علم وفن ، واستيعاب واستقصاء . فلا يتركون فيها بقعة ولا رقعة من عامر أو غامر ، إلا درسوا سطوحها وأغوارها ، لينبئونا ماذا فيها من خامة خبيئة ، أو خير مجهول . ولا يتركون حاصلا من حاصلات الزراعة فى مختلف أنحاء العالم ، إلا أنبأونا بما يجود منها فى تربتنا وما لا يجود . ولا صناعة من الصناعات الكبرى أو الصغرى ، إلا أنبأونا بما يتيسر لنا منها وما يتعذر . ولا باباً من أبواب العمل المثمر الذى تهيؤه

---

(١) أخبار اليوم (العدد ٢٢) .

لنا بيئتنا المصرية ومواردنا الطبيعية ، إلا أرشدونا إلى مفاتيحه . ولا أسلوباً من أساليب التربية الحديثة والتعليم الحديث فى شتى فروعه ، إلا هدونا إليه — ولو كلفنا استقدام هذه البعثات واستخدامها ملايين .

أقصد أن تصبح مصر قطعة من أوربا الجادة المزدهرة ، لا أوربا اللاهية المتداعية.

أقصد أن تخلق مصر خلقاً جديداً ، وأن تبعث من رقودها الطويل بعثاً جديداً. أطفالها فى البيوت والمدارس ، وطلابها فى الكليات والمعاهد ، وزراعها فى الحقول وعمالها فى المصانع .

بمثل هذه البعوث عظمت اليابان و بمثلها عظمت روسيا السوفيتية .

فإن فعلنا تضاعف لدينا إنتاج العقول والسواعد ، وتسامت الأخلاق فوق مستوى الدنايا والمفاسد . وأصبحت مصر المستقلة — مصر القوية الغنية المستنيرة ، المساهمة فى البر والبحر والجو بنصيبها من آيات العزة والسؤدد — أو قل من آيات الحياة .

القنابل الديمقراطية [1]

إن شقيقتنا ســـوريا تَصْلى اليوم — وقد يَصْلى شقيقنا لبنان غداً — نيران الديمقراطية الفرنسية من قذائف المدافع وقنابل الطائرات .

والنيران مهلكة ، والقنابل محرقة ، والطغيان ممقوت بغيض — سـواء أكان مُشعل النار وقاذف القنابل وشيطان الطغيان ، من رجال هتلر أو من رجال ديجول .

وليس احتقار الأمم الصغيرة ، واغتصاب حقوقها الأولية أهون علينا أو أحب إلينا نحن أبنـاء العروبة ، إذا كان الحاقر الغاصب « ديمقراطية » ! ! ! ولم يكن فاشية أو نازية .

إن فرنسا قد استصرخت العالم يوم نكبتها فأنقذها غوث الغائثين حتى تحاملت على ساقيهـا — ولم تكد — فما بالها اليوم تمطر الرجوم بلدين بكيا مصرعها ونقما على عدوها ، وساهما فى معونة الحلفاء الذين أنقذوها من بلاء كان يشبه الفناء !

ألأنها تملك من بقايا الطائرات والمدافع مالا يملـكان ؟

ألأن القوة العمياء عادت فى عين فرنسا — هى الحق ، وهى الفيصل بين الشعوب ؟

أم هو مركب النقص ، قد بلغ منها مبلغاً يدفعها إلى التقتيل والتدمير ، إذلالا للأباة واستعباداً للأحرار ، بأسلحة كانت فرنسا شهيدتها منذ سنوات لا تعدو أصابع اليد عداً ؟

إذن يا لضيعة الدموع التى ذرفتها الإنسانية حزناً على فرنسا ، يوم كانت حالها تبعث الحزن والرثاء .

ويا لضيعـة المواثيق وخيبة المؤتمرات ، ما سبق منهـا وما لحق وما هو آت !

ويا لخداع التغنى بالحريات . إن هى إلا رُقًى من السحر ينيم بهـا الأقوياء عقول الضعفاء . فإن لم يستنيموا بالأناشيد والرُقَى ، فليموتوا بالحديد والنار !

---

(١) أخبار اليوم (العدد ٣٠) . على أثر اعتداء القوات الفرنسية على سوريا لتمسكها بالجلاء .

على أن الحديد قد يَبْلى والنار قد تخبو ، فأما الذى لا يَبْلَى ولايخبو ، فالروح إذا استيقظ — الروح الذى أودعه القاهر فوق الطغاة العتاة قلوب المؤمنين .

وإذا طاب للمعتدى الأثيم أن يَهلِك فى سبيل عدوانه ، فكم يطيب للمؤمن البرىء أن يُستشهد فى سبيل إيمانه ، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون . كلما تفاقمت شرورهم رماهم بالقوارع حتى يثوبوا إلى الرشد ، فإن لم يثوبوا ، فإن قوارعه لاتفنَى ؛ وهى لهم بالمرصاد . وما الإنسان الغاشم سوى طفل جامح ، إن لم تردعه داهية تلتها دواهٍ أقسى وأمر ، حتى تكون آية النور هى العليا وآية النار هى السفلى . وما القرون والأجيال فى مدى التطور البشرى ، إلا بمثابة الثوانى والدقائق فى مدى القرون والأجيال .

على أن مجلس الجامعة العربية لن يُضيع الساعات اعتماداً على الأيام ، ولا الأيامَ اعتماداً على الأسابيع .

هذا يومنا التاريخى الرهيب الذى قُدِّر لنا أن نواجهه ونحياه .وواجبنا له ولأمسنا ولغدنا ، يقتضينا عملا إيجابياً إجماعياً حثيثاً .

هـذا يوم امتحان الشرق العربى كله . فهل نكتب بأيدينا لأنفسنا صفحة النجاح والفوز المبين ؟ .

أعرني سمعك ياجون بول ![1]

فإذا أعرتنى سمعك ، فإنما تُعِيره رجلا تعلم لغتك وهو غلام ، ودرس فى عاصمتك وهو شاب ، ثم عاد إلى بلاده وفى صدره شعلة من نار الحماسة ونور المعرفة . أما الحماسة فللمُثل العليا التى قرأها فى كثير من كتبكم ، وأخذها عن كثير من علمائكم . وأما المعرفة فبوجوه الإصلاح التى لا بد منها لكل شعب يريد النهوض : أعنى إقامة نهضته على أساس متين من الأخلاق ، و إشعار ذوى السلطان أو العلم أو المال ، بأن سلطانهم وعلمهم ومالهم ، إنما هى أدوات فى أيديهم لخدمة المجتمع . وان قوام الحياة لِأدنى المواطنين حظاً ، يجب أن يكون : غذاء يكفيه ، ومسكناً صحياً يؤويه ، ورعاية طبية تحميه أو تشفيه، وطرفاً من التربية والتعليم يسمو بإنسانيته، ويحقق نفعه لنفسه وللوطن .

***

بهذه الروح الفتية النقية ، عاد صاحب هذا الحديث من بلادك يا مستر جون بول .

وعاد قبله و بعده عشرات بل مئات من إخوانه المصريين . وقد أعجبهم من دياركم وعلومكم وآدابكم ما أعجبه ، وخلبهم ما خلبه من سحر تقديسكم للحرية الفردية ، والإرادة القومية ، والعزمات الصادقة الشعبية ، وهى تطمح كل يوم إلى مزيد من العدل ومزيد من المساواة من نِعم الحياة .

عُدنا من معاهدكم ومجامعكم — لا أوعيةً من فخار صُبّت فيها علوم ومعارف ، بل عدنا مشاعل ، حرارتها من القلوب وضوؤها من الرؤوس . عدنا نحمل إلى أمتنا رسالة الحياة ، لا حياة الرضى بالواقع الذليل ، و إحالة الذنب فيه على المقادير ، بل حياة أرواح خلقت لتفطن ، وتجدّ ، وتعلو ، لا لتغفل ، وتلهو ، وتلصق بالتراب .

***

وعلَونا المنابر خلال الحرب العالمية الأولى . وقصرنا دعوتنا أيامئذ على الأخلاق المثلى فى الفرد والجماعة ، وعلى واجبات المواطن لربه ووطنه ونفسه ، ولم تنس صحفنا

---

(١) الهلال مايو سنة ١٩٤٦

ولا منابرنا ولا الخاصة منا ولا العامة فى حربك الأولى تلك يا سيد جون بول — انك مرهق بالذود عن مجدك بل عن وجودك بين الدول. فلم يخض فيك لسان، ولم يمسسك بالأذى بنان ، ولا بخل عليك صاحب جمل بجمله ، ولا صاحب حمار أو أتان ، أو شيء مما تنبته الأرض أو يُدرّه الضرع ، أو تحويه خزائن البنك من غطاء الذهب . بل لم يبخل عليك قرابة مليونين من عمال مصر بعونهم العظيم، الذى أطلق لسان لورد اللنبى بثناء سجله التاريخ .

وصَرفْتنا بحربك الأولى يا سيدى عن إصلاح أنفسنا وتنمية مرافقنا ، وحبستَ فينا أنفاس الحرية بضع سنين أفراداً وأمة . وطال اصطبارنا على الهول والأذى . . . والتمسنا لك المعاذير من بلائك ومحنتك يا سيد چون بول، وكظمنا غيظنا من إعلانك الحماية على أمة لم تطلب إليك حمايتها ، ولا ضرعتْ إليك فى أول أمرك أن تسبغ عليها شرف الاحتلال . وقلنا لأنفسنا أن الحرب مجنونة فى كل زمان ومكان ، وهى فى العصر الحديث أشد جنوناً وحمقاً ، ثم منينا أنفسنا أن تثوب إلى الحق والإنصاف إذا سكنت الحمى ، وطفىء السعير ، وعاد السلام .

***

أما الحمى فقد سكنت ، وأما السعير فقد طفىء ، وأما السلام فقد عاد ، وأما الرجاء فيك يا سيد جون بول فقد خاب !

أبيت يومئذ إلغاء الحماية وقد زالت الأسباب التي انتحلتِها للحماية . وأبيت على سعد وأصحابه أن يغادروا الديار ليضربوا فى الأرض طلباً للحق المغصوب ، وتأميناً للحياة المهددة .

وثارت مصر لا أسفاً على ما أنفقتْ من جهود ضخام ، أو قدّمت من رجال وأنعام وأرزاق ، ولكن غضباً وحنقاً على هذه الثمرة الشنعاء ، يتمخض عنها ما أسدته إليك مصر من جميل .

ويشتد عليك السخط ، وتزداد المرارة ، وتفسد علينا بيدك الغليظة وجوفك المكتظ بجعتك القوية التى تورث الدوار ، وسياستك الجافية التى تورث البغضاء .

كل ما أخذه صاحب هذا الحديث وأترابه المصريون ، عن السادة المثاليين من علماء بلادك وأدبائها الإنسانيين .

وتمعن فى شل نهضتنا و إذابة أخلاقنا، بلظى التناحر الذى أحدثتَه بيننا ، أوأعنت على حدوثه ، بما لك من دهاء ونفوذ ، سناده أيام الحرب سلطتك العسكرية وقواتك الحربية ، وسناده أيام السلام جنود الإحتلال .

***

والآن ، و بعد هذه الحرب العالمية الثانية ، وقد جبّت فظاعاتها فظاعات الحروب مجتمعة منذ بدء التاريخ — هل تظل كما كنت أنت أنت يا جون بول ؟ ألا ترُق حاشيتك؟ ألا تُطامن من غلوائك؟ ألا ترى أن عشرين مليوناً أو نحوها من المصريين، وعشرة ملايين أو نحوها من أشقائهم السودانيين ، أحق ببلادهم منك ؟ وأن الذى أجرى النيل منذ القدم ، وأنبتهم حوله منذ أجراه ، لم يدخر هذا النهر الخالد ليكون لك مشرباً وملعباً فى القرن العشرين ، ولم يدّخر أمة النيل بفرعيها لتكون لك فى آخر الزمان رقيقاً وخولا ، بعد إلغاء الرق بأجيال وأجيال !

لقد علّمتنا العداوة خمسة وستين عاماً ياجون بول ، أفلم يأنِ لك أن تعلمنا الأخاء ؟

لقد وفت لك مصر خلال حربك الأولى . فلما أسأتَ جزاءها ثارت عليك .

ولو أحسنت إلى نفسك وإليها ، لاقتصدتَ ثمانية عشر عاماً من المتاعب والصلات النكداء ، ولقبلت سنة ١٩١٨ ما لم تقبله إلا سنة ١٩٣٦ .

وها هى ذى مصر قد وفت لك فى حربك هذه الثانية . فهل تسىء جزاءها على طريقتك المنكرة ، فتمارى فى الجلاء بمعناه الشامل الكامل ، أو تقاوم وحدة الوادى — وحدة الطبيعة — ريثما تضطرك إلى الحق حرب ثالثة ؟

بادر إلى الحسنى أيها الشيخ المبجل ، قبل حرب الذرة ، فمن يدرى ، لعلك أن ماطلتنا ، لا تبقى حتى تؤدى الحق إلى أهله ، أو لعلنا لا نبقى لنستخلصه منك — فتعود إلى الحياة الآخرة غير أهل للنعيم .

لكن اسمعها يا جون بول كلمة صادقة : لقد اعتزمنا نحن المصريين و إخوتنا

السودانيين ، أن نستقل استقلالا صحيحاً فسيحاً لا احتلال فيه ولا أغلال ، ذرة ، أو لا ذرة .

ذلك لنعيش فى بلادنا سادة كما تعيشون فى بلادكم سادة . ولنبنى سيادتنا على أساس متين من الأخلاق الكريمة ، لا تفتك بها الزلفى ولا النفاق ؛ وعلى أساس من العلم الحديث ، والأدب الرفيع .

إن أملك الوحيد فى استدامة رخائك ومجدك يا جون بول ، وسط هذه اللجة العاتية من تنافس الشعوب صغيرها وكبيرها ، لا فى مجرد البقاء ، بل فى البقاء مقروناً بالعزة ، مدعوماً على السيادة الذاتية الوادعة المطمئنة . أن أملك الوحيد : أن تثبَ وثبة جريئة إلى سياسة جديدة ، سياسة الإخلاص ، لا سياسة الدهاء والإلتواء ، سياسة تجذب إليك الأمم الصغيرة مختارة راغبة ، لا مقهورة ولا كارهة .

ذلك مآل الدنيا فى غدها القريب . إذ ليس معقولا أن يثور الضمير البشرى على رق الأفراد فيمحوه ، ثم يطول احتماله لرق الأمم .

إن وفدك الرسمى بين أظهرنا يفاوض المصريين ، يفاوضهم فى حقوق طبيعية أولية ، لا يماحك فيها ولا يمارى إلا جون بول العتيق الفانى — ونحن نرجو لك ، ولأنفسنا — أن ينتفض شخصك انتفاضة جريئة ، تبعثك فتى سمحاً رشيداً من فتيان العصر الجديد ، فتى سمحاً يبتدر أنوارَ المستقبل بقلب سليم ، ولا يتيه فى ظلمات الماضى بقلب مريض .

نرجو لك السلامة من نفسك ، ولأنفسنا السلامة منك — بل نرجو للإنسانية كلها سلامة ونجاة من جموح الإنسان .

جلاء تام ـ ولكن « شركة ! » [1]

يقول غاصب الدار لصاحب الدار — « إنك صدعت رأسى وشهّرت بى خلال جيلين ونصف جيل ، والآن بلغ إحراجك لى على ملأ الأعداء والأصدقاء مبلغاً لا قدرة لى معه على البقاء ، فأنا نازح عن دارك ، رابض حولك وفى جوارك . . لكنى لن أجلو حتى تعطينى موثقاً تكتبه بيدك ، وتشرفه بتوقيعك ، توليني به حق العود إلى احتلال بيتك ، والتسلط على مرافقك ، والجثوم على صدرك ، كلما شاءت لى الظروف ، أو شاء الهوى » .

هذه زبدة البيان البريطانى الرسمى الذى تراه اليوم منشوراً فى غير هذا المكان من الأهرام .. زبدته أن بريطانيا تقبل الجلاء التام عن مصر جواً وبراً وبحراً — على شرط أن يكون لها حق احتلالها جواً وبراً وبحراً ، كلما نشبت حرب أو « لاح لبريطانيا » فى الأفق الدولى « خطر حرب وشيك الوقوع » .

فيا أيها المفاوض المصرى حذار كل الحذر . وأرجو عفوك عن هذا التحذير الغليظ من كبيرة وطنية ليس فينا ، وليس منا ، من هو بارتكابها ظنين .

خطر الحرب ! كلام يضحك منه الصبية الأغرار ، فضلا عن الساسة المحنكين .

إن الإنجليز لو جلوا عن مصر بقضهم وقضيضهم فى أربع وعشرين ساعة ، وقد أوليناهم هذا الحق المبهم المنكر الخطر ، لكان فى وسعهم أن يعودوا على أساسه بقضهم وقضيضهم إلى احتلال مصر فى اليوم التالى لمسرحية الجلاء .

خطر الحرب ! ما علائمه ؟ ما مقدماته وشواهده فى هذا العصر الذى انقضّت فيه الطائرات اليابانية على الأسطول الأمريكى فى المحيط الباسيفيكى ، فأغرقت معظم سفنه والمفاوضات « السلمية » تجرى فى واشنطن بين ساسة الدولتين .

خطر الحرب ! كنا نفهم هذه اللغة أيام كان للحروب آداب مرعية ، قوامها المواجهة الشريفة ، والأخذ والرد والإنذار والإعلان . أما اليوم فقد فقدت الحروب

---

(١) الاهرام فى ٤٦/٥/٨ لمناسبة البيان البريطانى الذى قيد الجلاء بقيود تجعله كأن لم يكن .

حرماتها الأولى ، فأصبح قوامها المخالسة والماكرة والفجاءة . ورُبَّ خلاف أو تناكر ، أو أخذٍ بالأكظام والتلابيب ينشب فى المؤتمرات بين بيرنز و بيفن ومولوتوف ، فيرتج له صرح السلام من أقصى الدنيا إلى أقصاها — ثم لاتنشب حرب . . . ورُبَّ مئات من القنابل الذرية ، فى ساعة من ساعات السلام الموهوم ، تصعق دولة من الدول ، قبل أن تفطن إلى أزيز الطائرات التى تحملها . ولن تكون حرب الذرة فى مستقبل الأيام — ونرجو من الله أن يعفى عباده من تلك الأيام — لن تكون حرباً مسبوقة بعلائم الخطر ، بل حرب غِرة وبغتة ، لأن السبق فيها بساعة أو ساعتين كفيل ببقاء البادىء وهلاك الغافل المطمئن .

خطر الحرب ! منذا يحدده ؟ ومنـذا يعيّن ميقاته ويوم وقوعه أو شهر وقوعه أو عام وقوعه ؟ . . . انجلترا طبعاً . ولن تكلف نفسها التحديد أو التعيين ، بل يكفى أن تقول : « إنى ألمح فى الأفق بريقاً ينـذر بالسوء ، فأعدّوا لى أيها الحلفاء الكرام ثغورا لسفنى ، وثكنات لجنودى ، ومساكن لضباطى فى كل مدينة وحى وشارع ، وأعدوا لهم الميرة والأرزاق وأسباب المتاع والترفية ، وأعدوا مطابع البنك الأهلى تخرج لهم أوراق نقد مصرية ، يقابلها ما يقابلها من مطابع بنك إنجلترا ، تـُكدس لكم من الإسترالينى ركاماً طريفاً فوق ركام تليد .

خطر الحرب ! على من يخشى هـذا الخطر ؟ على إنجلترا طبعاً لأنهـا حليفتنا الاستعمارية الـكبرى التى قل أن تفرغ من نزاع — أن فرغت من نزاع قط — إلا لتشتبك بأوْهاق نزاع جديد . فهل من الإنصاف الذى تريده لنا إنجلترا ، أو من الإنصاف الذى نريده لأنفسنا ، أن تظل حياتنا ، أمناً أو خوفاً ، ومعايشنا رخاء أو ضنكاً ، وحرياتنا طلاقة أو عنتاً ، واستقلالنا وجوداً أو عدماً — رهناً بخطر أو توهم خطر أو زعم خطر يراه أو يتوهمه أو يزعمه الساسة البريطانيون — فإذا نحن كما كنا دولة محتلة ذليلة مرهقة ! وكأننا يابدر الاستقلال لارحنا ولا جينا !

إن قول مصر الفصل فى هذه الأحبولة الخاتلة التى يسمونها « خطر الحرب » قولها الفصل يجب أن يكون — « كلا بل أريده جلاء دائماً واستقلالا صحيحاً فى كل

حين ، لا أن تكون ديارى ومرافقى وحريات أبنائى وأرزاق عيالى « شركة » بينى وبين الإنجليز على حد ما عبّر وقرر وكرر مستر بيفن فى تصريحات وخطب كثيرة ، فلم أفهم مراده « بالشركة » حتى انكشف اليوم سرها الدفين .

وأية شركة أهنأ وأربح للإنجليز ، وأذل وأغبن للمصريين ، من أن يخرج حضراتهم من بلادنا وبيدهم جواز العودة وحق الارتفاق ، بل حق « المشاركة » فى حياتنا كلها ، جملة وتفصيلا ، حساً ومعنى ، كلما شاءت لهم الظروف أو شاء الهوى ! ذلك هو التمليك الدائم بعينه ، أو الإشراك الأبدى فى الملكية ، كما يريد مستر بيفن ومدرسته السياسية . غير أن الانتفاع بالعين ومن عليها وما عليها سيأتى فى فترات متقطعة يختارها الشريك ، ويوقّتها بما يسميه أوقات « الخطر » .

إن الجلاء على هذا الأساس لن يكون إلا جلاء زائفاً ، وسراباً براقاً ، لا يخدع من جرّب السراب وعاناه ستين عاماً من السياسة البريطانية أو تزيد .

* * *

هذا — لا ريب — قول مصر فيما يسمونه « خطر الحرب » .

فماذا عسى أن يكون قولها فى حرب تنشب فعلا بين انجلترا ودولة أخرى ؟ هل يكون لزاماً علينا أن نعينها على عدوها كما فعلنا فى حربين ضروسين بينهما فترة قصيرة من الزمان ؟ .

إن الجواب من البداهة بحيث لو أغفله المفاوض المصرى ، لكان منه لا شك تغافلا مقصوداً ، لا تنتظره منه مصر ولا تقبله .

ذلك بأن أية حرب تنشب فى عهد الميثاق الدولى الجديد — إما أن تكون حرباً يَندُب إليها ذلك الميثاق ، ويقرها مجلس الأمن ، بل يشارك فى إعلانها وتموينها وتمويلها ، لأنها حرب تأديب إجماعى أو شبه إجماعى يصدر فيه الصادرون عن قرار ذلك المجلس وإرادته .

وإما أن تكون حرب خروج على الميثاق الدولى الجديد ، لا يقرها مجلس الأمن ولا يُسهم فيها بنصيب . بل ينهى عنها بالقول أو يقاومها بالقوة .

فالقول الفصل الذى يجب أن يستمسك به المفاوض المصرى ولا يحيد عنه قيد شعرة ، هو أن تكون مصر عوناً لانجلترا . تمدها بما تقتضيه نصوص الميثاق الدولى الجديد ، وبما يفرضه عليها نظام مجلس الأمن ، فى أية حرب تخوضها انجلترا باسم هيئة الأمم المتحدة ، وطبقاً لأحكامها ، ووفقاً لإرادتها .

أما إذا انفردت انجلترا بحرب لاشأن لها بمجلس الأمن ، ولاسند لها منه ، فلاحق فى هذه الحالة لانجلترا علينا ، ولاعون لها عندنا ، لأن الحرب التى تخوضها على هـذه الصورة ، إنما تكون خروجاً على ميثاق السلام والأمن العالمى المشترك .

تلك حدود الحق صريحة بينـة ، تنطق بهـا البديهة دون سوق لنصوص أو إيراد لمواد .

تلك حدود الحق صريحة بينة . ولن يتجاوزها المفاوض المصرى ، إلا وقد جرد أمته ووطنه من درع الوقاية الدولية الشاملة ، التى ما أنشئت الجامعة الجديدة إلا لإسباغها على الدول جميعاً ، بتأييد واضح من الدول جميعاً ، وولاء خالص من الدول جميعاً .

ذلك حق لاينبغى لانجلترا أن تمارى فيه ، وإلا قام الدليل على أنهـا تريد أن تنكث بيدها فى معاهدات حربية ثنائية ، ماتنسجه الجامعة الجديدة من خيوط السلام العام ، داخل نظام عالمى عام .

فإذا كانت انجلترا لاتحفل بهذا الاعتبار السلمى الخطير ، لأنهـا قوية ، فعلينا نحن أن نحفل به لأننا ضعفاء ، ولأن مستقبلنا رهن بتعاون الدول كلها أو جلها على توطيد النَّصَفة والأخاء بين الشعوب ، إذا حسبت انجلترا مخطئة ، ان مستقبلها رهن بتوطيد سلطانها الحربى على الدول الصغيرة كرهاً ، كما تريد بنا اليوم فى بيانها العجيب .

على أن المفاوض المصرى كفيل بنفى هذا الدخَل عن استقلالنا وهذا الزغل عن الجلاء . ولاخوف على مفاوض معه حق ووراءه أمة !

حقنا الكامل لا ينتقص [1]

ليس للمفاوض المصرى الأول ، ولا للأحد عشر كوكباً من مواطنيه الذين يشاركونه فى إنجاز مهمة الوطن العظمى — أن يتوجسوا ريبة من أقلام مصرية ، لم يكن لها طيلة حياتها همّ ولا مشغلة سوى المعونة على استنقاذ الوطن من براثن المعتدين .

وفى انجلترا صحف قوية رجعية واسعة الذيوع ، لا تنى يوماً عن نصرة باطلهم على حقنا ، فلا أقل من أن نحاول نصرة حقنا على باطلهم فى صحفنا بين حين وحين .

وفى انجلترا ألسنة حداد ورجال شداد ، يثيرون فى برلمانهم على قضيتنا الناصعة عاصفة بعد عاصفة ، كما حدث منذ أسبوعين فى مجلس العموم ، وكما حدث أمس الأول فى مجلس اللوردات ، وكما سيحدث مرة أخرى فى مجلس العموم غداً . ومثير الزوبعة الآتية ، ومرسل رياحها العاتية — مستر تشرشل أيضاً — جرياً على شنشنة عرفناها من أثرته وضراوته — وهى أن يتخذ من الأمم كلها — إن استطاع — جنوداً مقاتلة عن الإمبراطورية أيام الحروب ، وأن يتخذ من الأمم كلها — إن استطاع — عبيداً حراساً للامبراطورية أيام السلام .

***

ونحن لا نكتب لنثير الخواطر المطمئنة .

وإنما يرجع اطمئنان الخواطر إلى ثقتها بأن المفاوضين المصريين لن يفرطوا فى حبة من خردل من الحق الذى عهد إليهم فى استخلاصه ، مبرأ من الشبهات محرراً من كل التزام أو شبه التزام ، يجعل لانجلترا علينا يداً أو سلطاناً ، أو منفذاً ولو كان كسم الخياط — إلى التدخل فى شئوننا من جديد .

هى محالفة عسكرية « مفتوحة » .

---

(١) الأهرام فى ١٩٤٦/٥/٢٣ حول المفاوضات

وهى محالفة عسكرية « داخل نطاق ميثاق الأمم المتحــدة » ووفق أحكامه ، تسجل فى سجلاته .

وهى محالفة عسكرية « دفاعية » .

وهى محالفة عسكرية « موقوتة بأجل » . . .

وهى محالفة عسكرية لا تنفذ إلا «حين وقوع اعتــداء بالفعل» ، لا « توجس من الاعتداء » .

وهى معونة تقدمها مصر لانجلترا فى حدود طاقتها ، وعلى صــورة تتفق وكرامة مصر وسيادتها، وليست معونة معناها « تسليم مصر » لمرافقها براً وبحراً وجواً لقوات انجلترا، تصرّفها كما يصرف المالك ملكه الخاص ، وإنمـا تظل سيادة مصر فى بلادها هى العليا فى أوقات الحرب والسلم على السواء .

ذلك ما تقبله مصر ، ولا تقبل التزاماً غيره بحال .

* * *

ووقت الحرب الدفاعية الفعلية دون ســواه ، هو الوقت الذى يكون لانجلترا فيه اتصــال رسمى بمصر ، أعنى اتصال الحليف الدفاعى بالحليف . أما فيما عدا ذلك الوقت فــكلا .

ولماذا نحتاط هذا الاحتياط ؟ .

نحتاط هذا الاحتياط حذراً منا ، وتحذيراً للمفاوض المصرى ، معتذرين لألمعيته العبقرية — تحذيراً له من منفذ يبدو ضيقاً كسم الخياط ، ثم لا يلبث أن يتسع اتساع المحيط أن قبلناه لا قدر الله غافلين . وهذا المنفــذ الخطر يتراءى تافهاً ضئيلا فى العبارة التى جاءت على لسان الأيرل أوف بيرت من « الأحرار » ومن القائلين بالجلاء التام عن مصر فى عبارات سمحة ظريفة . قال فى مجلس اللوردات أمس الأول :

« ولــكن ينبغى أن يتبين أن القوات المصرية الحليفة كافية لمنع تدمير القنــاة بل لصيانة الأدوات والمخازن ، التى قد نرى فائدة فى تركها قريباً من القناة » .

وقال اللورد جويت « من العمال » :

« كل ما فى استطاعتنا أن نفعله هو أن نتثبت من وجود المنشآت والمعدات اللازمة لهذا الدفاع هناك ، ومن أن الجيش المصرى مدرب على استخدام هذه المعدات، بحيث يستطيع أن يلعب دوره فى الدفاع عند أول إشارة . »

***

لقائل ساذج أو متساذج أن يتساءل : وأى ضرر فى القول بأن تكون لنا قوات كافية لمنع تدمير القناة ، ولصيانة الأدوات والمخازن التى قد يرى الإنجليز فائدة فى تركها إلى آخر هذا الكلام الذى قاله الأيرل أوف بيرت ، واللورد جويت .

ألا نريد أن نقوى جيشنا وأن نأخذ أهبتنا لصيانة استقلالنا بقوات مستحدثة من كل سلاح وكل طراز !

والجواب : نعم ... غير أنها « نعم » مشفوعة — بلكن !

نعم . نريد أن تكون لنا قوات كافية مدربة . ونحن على ذلك مجمعون ، وله مشمّرون ، وفى سبيله مضحون . لأن لكل عزة ثمناً يجب أن يدفع .

نريد ذلك وننويه . ولكن لا نريد بحال أن نعطى انجلترا حق « التفتيش » أو الرقابة ، أو الإشراف من قريب أو بعيد ، فى معاهدة أو ملحق لمعاهدة أو كتاب متبادل ، أو تصريح رسمى أو شبه رسمى يوجه منا إلى الحليفة فى صورة واجب علينا لها ، ولو ترتب على امتناعنا قطع المفاوضات !

إنما هو واجب أنفسنا لأنفسنا ، واجبنا للوطن والكرامة والاستقلال .

أن أى نص من هذا القبيل فى صلب المعاهدة أو ملحقاتها ، أو فى مذكرات أو خطابات رسمية أو شبه رسمية ، يجعل قواتنا على اختلافها فرعاً إقليمياً تابعاً للقوات الإمبراطورية، لها عليه حقوق التقدير والتفتيش، والإحصاء والتدريب بطريق مباشر أو غير مباشر ، سواء تقاضتنا إنجلترا هذا الحق فى كل حين ، أو جاملتنا حيناً فلم تباشره ثم غاضبتنا حيناً فأنزلتنا منزلة التابع للمتبوع .

***

حكى أن مساوماً ساوم جحا فى شراء بيته ، وبعد أن طال بينهما الحوار ، قبل جحا أن يبيعه البيت على شرط أن يُبْقِيَ له مسماراً فى حائط بالدار ، فما أن سمع الشارى ذلك الشرط حتى استغرب فى الضحك من ذلك الشيخ المهذار ، ثم ختم ضحكه بالقبول ، وبالنص على أن جحا يملك فى الدار مسماراً مثبتاً فى حائط ، وانتقل الشارى إلى منزله الجديد.

وانه لمستغرق فى النوم ذات صباح باكر ، وإذا قرع شديد على الباب .

من الطارق المزعج فى بكرة الصباح ؟

أنا جحا . أريد أن أتفقد المسمار .

وما زال الشيخ الداهية يزداد حنينه إلى مسماره ، حتى ليطلب أن يراه فى كل حين من ليل ونهار ، إلى أن نفد صبر المالك المسكين ، فأعاد الدار إلى جحا بنصف الثمن ، والفضل للمسمار .

***

لا نريد أن يُبقى الانجليز فى ديارنا مسماراً كمسمار جحا ينصون عليه فى المعاهدة أو ملحقاتها ، ثم يتخذونه وسيلة إلى إزعاجنا فى كل حين ، وإلى « مشاركتنا » تلك المشاركة البغيضة الجديدة ، التى هى أثقل وقعاً على الآذان والنفوس من الحماية والاحتلال. ولا نغلو فيما نقول ، لأن الحماية القديمة والاحتلال الحاضر بليتان عابرتان ، قهريتان .

فأما المشاركة — إن قبلناها لا قدر الله غافلين ، وقد أعاد ذكرها وألح فيها أمس الأول لورد الترتشام — فإنما نقبلها لتكون غُلا فى أعناقنا ، ونيراً على عواتقنا ، ينتقل ذله وعاره من جيل إلى جيل .

* * *

هذا وأخوف مانخافه مايسمونه « التقريب بين وجهتى النظر » .

فقد نشرت الصحف أن كبيراً من الجانب المصرى قال : إن مشروع المعاهدة الجديدة التى قدمها الجانب البريطانى « عسر الهضم » وأنه قوبل بالدهشة من الجانب المصرى . ويروى أن كبيراً آخر قال : إنها شربة من زيت الخروع ، كما روت إحدى الصحف أن اللورد ستانسجيت قبل أن يسلم نص المشروع البريطانى للمعاهدة

المقــترحة ، اجتمع ببعض كبار المفاوضين وقال لهم بالحرف الواحد — على حد تعبير الصحيفة — : سأقدم لكم بعد أيام مشروع المعاهدة، ولكن لاتنزعجوا إذا لم تعجبكم، فهذه ليست كلمتنا الأخيرة !

« ولكن عندما اطلع المفاوضون المصريون على نص المشروع البريطانى انزعجوا ! ! ! » .

ذلك ما روته إحــدى الصحف . وفى موضع آخر تقول : — « ولكن من المرجح أن تستطيع الاجتماعات المقبلة تقريب وجهتى النظر » .

والذى نفهمه ولا نكاد نفهم شيئاً سواه ، هو أن التقريب بين وجهتى النظر إنما هو تضحية مؤكدة من المفاوض المصرى بشىء من الجوهر الأصيل ، أى بجانب أساسى من حق مصر ، قد تنهار معه سائر الجوانب ، فى حين أن هذا « التقريب » لايكلف بريطانيا إلا النزول عن جانب من مطامعها المسرفة، وشهواتها المماثلة لشهوات سنة ١٩٣٦ . والفرق شاسع بين من يضحى بشىء من جوهر استقلاله وحقه ، والتنازل عن شىء من ثمرات فضوله وعدوانه .

إن مستقبل مصر وأجيالها فى كفة القدر ، أستغفر الله ، بل فى أيدى أبنائها المفاوضين وهم من كرام رجالها الوطنيين .

إن العصفور لا يكفيه ولا يقيه أن يطير النسر عن أفنانه ، وإنما الذى يسعده ويقيه ، أن لاتمتد بين النسر والعصفور أسـباب العودة والتهديد ، ووقوع الخطر من جديد .

مثل هذا التقريب بين وجهـات النظر خير منه ألف مرة ، وقف المفاوضات ، واللجوء إلى مجلس الأمن ، فإن لم نجد عنـده النصَفة اعتمدنا على الله وعلى أنفسنا فى استئناف الجهاد المنظم المشروع !

***

أيها المواطنون الأبرار : — لقد شاء الله لهذا المقال أن يختتم بتحية مباركة نهديها إلى المفاوضين المصريين مخلصين . ذلك أنهم دلوا ، إن احتاج النهار إلى دليل ، على

أنهم أهل وأى أهل للأمانة العليا التى وكلتها البلاد ومليكها إلى ذممهم فى أمر المفاوضات ، فإنكم ترون فى غير هذا المكان من «الأهرام» بلاغاً رسمياً مؤجزاً مؤداه، أن المفاوضين المصريين يتمسكون بموقف حَملَ الوفد البريطانى على الرجوع فى شأنه إلى مستر بيفن ، وان ذلك يتطلب بعض الوقت .

فلكم التحيات المباركات مرة أخرى أيها المفاوضون المصريون .

أنا الذى خلقتها[1]

اسم الرواية التى شهدت تمثيلها « الأنانية » وضعها أديب مصرى هو الأستاذ . . . . أما موضوع الرواية فتصوير لمعايب المجتمع المصرى فى عهدنا الحاضر من طلاق وتعدد زوجات وخلاعة ومخدرات وافتئات الوالد المستبد على الولد ومضاربة مالية يتبعها إفلاس ، ودسائس منزلية ، وشهوات بهيمية إلى غير ذلك من مساوىء .

والوالد وولده يتغاضبان ، وكان الوالد ظالماً غاية الظلم ، وكان الولد مظلوماً حقاً . لكنه يعشق علوم الفلسفة والاجتماع ويعكف عليها ، وفى نيته أن يسافر إلى جامعات الغرب ليدرس هذه العلوم دراسة منظمة حتى يحرز « الدكتوراه »

هو مولع بالفلسفة ، فاسمع إذن ما كان منه حين ثارت ثورته على أبيه ! قال له فى غضب محتدم تمازجه دموع الحزن والقنوط : « لِمَ خلقتنى ؟ » (يخاطب أباه) — ثم يقول بعد كلام طويل مؤداه أن والده لم « يخلقه » إلا عَرَضاً ، بدافع من الشهوات « إنك خلقت جسمى ، جسمى فحسب ، أما روحى ، روحى ، فأنا الذى خلقتها »

ولقد أرسل الشاب هذه العبارة فى صوت جهورى ملؤه الثقة والإيمان بأنه خالق روحه !

فلم يأخذنى ريب فى أنه على يقين مما يقول . فأنا معذور إذا تقدمت إلى الأستاذ المؤلف ، أتوسل إليه أن يدلنى على « طريقة خلق الأرواح » — لأنى لست راضياً كل الرضا عن روحى الحاضرة وأريد روحاً جديدة ، ولعل بعض عظمائنا بحاجة إلى مثل هذا التبديل ، لتشبه أرواحهم روح العصر الجديد .

---

(١) سنة ١٩٢٣

موعظة الأقوياء[1]

مصر فرحة مؤمنة . أما فرحها فمبعثه انتصار الدول التى نادت بالحق ، ورفعت أعلامه ست سنوات كأنها ستة أجيال ، لما عانت الأمم فيها من هول ، وبذلت من مهج ، وأنفقت من أموال ، وخسرت من عمران .

إن الموعظة مازالت بارزة تفيض بِعبَرها . وهى عبرٌ مقرونة بإيمان الإنسانية كلها فى صبيحة عيد السلام ؛ أى فى صبيحة اليوم الذى سكت فيه لسان الحديد والنار ، ليتكلم لسان الضمير والوجدان .

والموعظة مازالت بارزة تُفيض الدمع العصى ، وتلين القلوب المتحجرة ! ملايين من القتلى، هم زهرة الشباب فى كل أمة ، وأضعافهم من عجزة ومشوهين وجرحى، لاهم إلى الأحياء ولا إلى الأموات ، فى كل بيت ثكلى أو أيم أو يتيم أو بقية من إنسان . دع أمهات المدائن ، التى أصبحت أمهات الخرائب . حضارة تقوضت أركانها ، أو جُلّ أركانها ، فى ست سنوات ضاريات أكل غولها تراث القرون إلا قليلا . ست سنوات فتاكة مهلكة ، يجب أن يعقبها عشرة أمثالها من الزمن حتى تستوى أوربا على مثل عرشها الذى اندك . ومصدر هذا البلاء العميم كله طاغيتان اثنان . قُتِل أحدهما قتلة زَرِيّة، ومات الآخر ميتة خفية ، عصفت بهما الريح المحرقة التى أرسلاها على العالم فذرتهما هباء ، ثم ركدت بهما فى نهاية الحريق رماداً .

لكن موتهما ماذا يجدى وماذا يَشفى ؟ وقد جلبا على الدنيا عامة وعلى أمتيهما خاصة ، ما جلبا من محن قد يعز علاجها على الزمان و إن طال .

ألمانيا . . . أمة العلم العميق ، يكاد يخرق الحجب ويأتى بالمعجزات ! وأمة الفلسفة الروحية ، تكاد تسمو بالنفس البشرية إلى الملأ الأعلى ! وأمة الموسيقى الرفيعة الممتنعة ، يستوحيها أساطين الفن فى كل الأمم — ذلك الشعب العظيم فى هذه النواحى العظمى ، يُفسد عليه أهدافَ علمه الإنسانى ، وآفاق روحيته السامية ، مفكرٌ مريض

---

(١) أخبار اليوم (العدد ٢٧) .

بشهوة القوة القاسية هو « نيتشه » ويفسد عليه حاضره ومستقبله رجل شاذ طموح إلى تحقيق « النيتشية » لألمانيا ، ليجعلها بالقوة سيدة الدنيا، ويجعل أبناءها — بالقوة — سادة البشر .

ثم ينقاد له فى هذا الحلم الهاذى ثمانون مليوناً من العقلاء ! إنها لمعجزة ألمانية فى السذاجة وسلاسة القياد ، لا تقل عجباً عن المعجزة الألمانية فى العلم والفن والفلسفة .

مصر فرحة مؤمنة . فرحة بانتصار أصدقائها من دعاة الحق ، مؤمنة بنصيبها فى هذا الحق المأمول ، الذى لا يحتكره قوى دون ضعيف ، ولا مسلح دون أعزل .

نقول : الحق «المأمول» متواضعين فى التعبير ، و إلا فهو حق «مطلوب» لا يسكت عنه حى إلا إذا سكت عن حظه من الحياة كريمة مستقلة ، لا إكراه فيها ولا عنت .

في طريق الهدى (١)

نشأتُ تقياً نقياً كالأبرار من أبناء المسلمين ، عيوفاً حيياً كالأطهار من أبناء الريف . وربما سنحت لى سانحة الهوى ، وأنا فتى مشبوب الصبا ، فأزويها بالكبت فى زوايا النفس الباطنة ، لا عجزاً عن الفرصة ، ولكن صوناً للمروءة ونزاهة عن الدنس .

وما زلت كذلك حتى رمتنى الأيام برفيق السوء . كان أصبر منى على الدرس ، وأسبق فى السن ، وأجرأ على المغامرة . كان فى العشرين يكبرنى بعامين . وكان يعجبنى ذكاؤه ، ويزدهينى إخاؤه ، ويسحرنى منه مظهر الأريب العليم بأسرار الحياة . لقد اتخذته إماماً ومرشداً . فكان لى إماماً ، ولكن فى غير مسجد ولا محراب . وكان لى مرشداً ، ولكن إلى غير هدى ولا صواب .

ثم افترقنا كل إلى سبيله . ولولا صحبته لظل عهدى بالشباب مرآة صافية .

***

رحلت إلى لندن أنشد المعرفة . فإذا أنا فى بحر لجىّ — أمواجه ملايين من الخلق ، لهم علوم وفنون ، وحضارة ومجد ، تليد وطارف . وفيهم جمال وفينا شباب . ولو كانت لى جاذبية الصاوى أو مبارك ، لتهافت الحسان على شخصى تهافت الفراش على المصباح . لكن شخصى لم يكن كالمصباح ، ولا كانت حسان لندن كالفراش . فلا بد لى من تلطف ، وترفق ، وسعى جميل .

واتفق أن نزلت سيدة فى المنزل الذى نزلتُ فيه — سيدة من الأنس ، لها ابنة من الملائكة — فما كاد حسنها يضىء جوانب المكان وجوانح الطلاب النازلين بالدار ، حتى كفروا بقوة العلم وآمنوا بقوة الجمال . وكان بينهم من قدم من اكسفورد ، ومن كمبردج ، ليقضى عطلة الدراسة فى حاضرة الحواضر وكبرى المدائن — وفيهم الشرقى ، والغربى ، وابن البلاد .

وأحسست أن لى قلباً وعينين كسائر المتطفلين المحدِّقين بالنجمة الزهراء . غير

---

(١) أبريل سنة ١٩٤٤

أنى أحجمت حين أقدم الآخرون . أعوزتنى ثقتى بنفسى فى ذلك المجال ، ولو أن الصديقين الحاكمين بأمرهما فى دولة الجمال ، كانا يومئذ على عرش ملكهما فى باريس ، لأبرقت إليهما أطلب النجدة . أما و بطون القدر لم تكن تمخضت بعدُ عن الصديقين العاهلين — فما كان لى أن أستولد القدر ما لم يلد .

واحتال الفِتْيان للفتاة ما وسعتهم الحيل . وفيهم ذو الجيب الملىء ، وذو الوجه الوضىء ، وذو اللسان العذب من أبناء لغتها — يتحدث إليها فكأن كلماته لؤلؤ منثور . وأنا لى فى هذه الملحمة ظاهر و باطن . أما ظاهرى فثلج ، وأما باطنى فنار . حتى إذا طاشت سهام الرماة عن الهدف ، وعاد الفتيان المدلهون من الفتاة الأنوف بخفى أخينا توفيق الحكيم — أجمعوا أمرهم على عداوة المرأة ، وصاحوا من فورهم بملء الحناجر : « ليحيى العلم — ليحيى الفن — ليسقط الجمال » !

فَهِمتُ المساكينَ يومئذ وعذرتهم ، كما أفهم اليوم وأعذِر الفنان الكبير صاحب « رصاصة فى القلب » — أعنى صاحب المسرحيــة لا صاحب الرصاصة — فليس للصديق والحمد لله رصاص محسوس تخشاه الحسان .

***

وانصرفتْ الحلوة الهيفاء عن جماعة المشاغبين ، إلى شاب متعاقل حسبتهْ هى عاقلا ، متزازن حسبته رزيناً — أعنى نفسى — بل لعلها حسبته سالياً عنها غير مستهام بها حباً . ولها عذرها فهى من بنات الأعاجم لم تقرأ قول العربى الولهان :

فإن أكُ عن ليلى سلوت فإنما ... تسليت عن يأس ولم أسلُ عن صبر
وإنْ يَكُ عن ليلى غنىً وتجلد ... فرب غنى نفس قريب من الفقر

***

ومن يدرى ؟ لعلها أنست فى سَمْتى بقية حياء لم تمحُها عِشرة السوء . و بعضُ الحسان يؤثر التحرز الكريم فى الرجل ، على التلهف المجنون .

أو لعل نبضات قلبى على همسها كانت أجراساً يُدَوِّى صداها فى قلبها السميع ،

ولعل نظراتى إليها كانت فى سكونها أخطبَ من قُس، ومن سحبان، ومن « ديموستين » و « شيشرون » .

خلاصة القول أنها تعطفت ثم عطفت، وتسامحت ثم سمحت .. سمحت باللقاء .. ولكن فى غير هذه الدار ، بنجوة من الرقباء والعذال .

يالَلعيد السعيد ! يالَضيعة المجد الذى أحرزه العاهلان المصريان فى باريس ، إذا قيس إلى مجدى أنا فى مدينة لندن . ألم يقم مجدهما على غزو الجمال بسلطان الفحولة القاهرة ؟ وأى فضل للقط حين تخضع له الفأرة ذليلة مروَّعة . حينئذ تكون الفأرة شهيدة ، ولا يكون القط بطلا .

حقاً كان حكم العاهلين فى دولة الجمال بباريس، حكما دكتاتورياً هتلرياً عنيفاً . أما أنا ، فقد كنت مع النجمة الزهراء ديموقراطى المبادىء ، دستورى السلوك .. أوليتها قيادى مطاوعاً سلساً ، فقادتنى إلى السعادة — إلى يوم العيد — إلى يوم اللقاء .

وضربنا لاجتماع الشمس والقمر ميقاتَ يومٍ معلوم — أستغفر الله لهذا الغرور . إنها شمس ، أما أنا فلا قمر ولا شهاب . لقد حسبت نفسى أحد العاهلين الصديقين !

وجعلنا الموعد مثلَ يومنا من الأسبوع القادم . سبعة أيام أبحث خلالها عن نُزُل مضياف للعابرين لا يكثر من (س) ولا يدقق فى (ج) واهتديت إلى بيت أنيق فى ميدان « رَسِلْ » .. صاحبته أجنبية عَطوفٌ على الحائرين . ففتحتْ لى جنة الدنيا حين فتحت لى غرفة مؤنسة ، هى بهجة النفس ومنية الهوى العطشان . ودفعتُ أجرة شهر هو خير من ألف شهر من الأعمار المقفرة .

وأجمعتُ رأيى — أو أجمعت هواى — على حياة الغزل شهراً بعد أن طالت بى حياة العمل دهراً . فتحولتُ إلى دار النعيم الجديد، أقيم فيها الأيام الثلاثة الباقية حتى يأتى المساء الموعود .

وسادنة « الهيكل » حفية بضيفها، سخية على غرفته بفنون الزينة والرياحين ، وما هو إلا لقاء الحبيبين ، حتى يكون هذا المخدع قطعة من الفردوس . وأنا أحصى

الأيام الثلاثة بالساعات والدقائق ، وكل آت قريب ، إلا هذا الموعد العزيز فإنه بعيد — جد بعيد .

***

و بينما أمشى مشية الهُوَيْنا فى شارع (ريجِنْت) وهو يقابل فى القاهرة شارع فؤاد ، أتشاغل بالنظر إلى معروضات المتاجر المونقة ، و إلى اللوحات المعلقة على مداخل العمائر الشاهقة — كيما أفرج عن النفس كربة الانتظار المضنى — إذا لوحة صغيرة من النحاس تغير مجرى حياتى ، وتبعثنى خلقاً جديداً ، فلا تكاد تنقضى الأيام الثلاثة ، ولا يكاد يحين الموعد المعلوم ، حتى يكونَ فكرى غيرَ فكرى وشعورى غير شعورى ، فأرى الحياة بما فيها ومن فيها بمنظار جديد — بمنظار كشف لى أسراراً وجلا غوامض ، وأبدلنى حباً بحب وهياماً بهيام ، و بصّرنى بأن للمرء رسالة قدسية فى دنياه من أجلها خُلق . فمن أغفلها عن جهل أو عن بينة ، فقد أغفل حكمةَ وجوده ، وصرفتْه القشور عن اللباب .

ترى ما هذا المكتوب على تلك اللوحة الساحرة ؟ هما كلمتان معنى إحداهما « جماعة » فما معنى الكلمة التانية ؟ أصعد الدرَج ، وانتهى إلى جناح عُلقت ببابه لوحة مماثلة . .

— سيدتى ياأمينة هذه المكتبة ،ماسم جماعتكم، وماهذه الكتب،وماذا تصنعون؟

— نحن جماعة « الثيوسوفية » . وهذه كتب فى كل نِحلة ودين ، وفى كل رسالة وفلسفة . أعضاؤنا أكثر من مائة ألف ، وفروعنا فى كل حاضرة فى الشرق والغرب . بيننا مسلمون، ونصارى، و بوذيون، ويهود. بل لانرفض عضوية الملحد إذا آمن بالإخاء الإنسانى ، فهو الإيمان الأدنى الذى لا يصلح فاقده لجماعتنا ولا لأية جماعة . أما التفكر فى منشىء الكون وتعرف نواميسه واستخلاص الجوهر المشترك بين أديانه ، فهذه كتب الأقدمين والمحدثين معروضة على من يريد أن يقرأ هنا أو يستعير .

— وهل تتفضل السيدة فتختار لى بضعة كتب أولية أقرؤها فى دارى عسى أن أصل من إيمانى القديم ما انقطع أو كاد .

— حباً وكرامة .

***

وعدت إلى الغرفة الجديدة أحمل ثلاثة كتب لا عهد لى بمثلها من قبل . أقبلت على قراءتها فى نَهمة أسهرتنى حتى الصباح . ثم تناولتُ فَطورى وأخذت مضجعى لأنام نهارى ، فما زالت الجامعة فى عطلة .

وأستيقظ بعد ساعات فأتغدى وأستأنف القراءة ، فما انقضت الأيام الثلاثة حتى أتيت على الكتب الثلاثة ، ولم يبق بينى وبين موعد اللقاء سوى ساعات .

***

لكننى الآن إنسان جديد . لا تعجب من هذه المعجزة أيها القارىء العزيز ، ففى نفسك البشرية من عجائب الأسرار ما يزيد غرابة على الأثير والكهرباء والموجة القصيرة والطويلة ، وما يكشفه العلم كل يوم من أكنان الطبيعة فى الأرض والسماء .

وإذا كان من عناصر الكيمياء ما إذا تمازج استحال فى مثل لمح البصر إلى مادة جديدة ، ليست من خواص العنصرين القديمين فى شىء ، ففيم العجب من أن تتفاعل عناصر النفس بمؤثر قوى مفاجىء ، فإذا الشخص القديم شخص جديد .

ومهما يكن رأيك أيها القارىء العزيز فهذا ما حدث لى أقصه عليك بالحق ، ولك أن تصدق أو لا تصدق ما تشاء :

تعالت نفسى عن طاعة الغريزة الجامحة ، إلى طاعة المثل الطاهر الذى رسمته الكتب الثلاثة أمام ضميرى ، فانتظرت الفتاة الحسناء انتظار عفاف لا انتظار مجون .

تسألنى : أين ذهب هيامى «بالنجمة الزهراء» ؟ فأجيبك : أبدلنى منه وجدانى الجديد هياماً أكبر وأبقى وأشرف . هو الهيام بمثال كريم أجاهر به فلا أخجل ، مثال كريم أفاخر به صادقاً على مسمع من أبى وأمى ، وعلى مسمع من أخى وأختى ، وعلى مسمع بعد ذلك من زوجى وولدى .

وجاءت الفتاة فقبّلت ... يدها ، فدهشتْ . وجلست قبالتها إلى الموقد أحدثها

فى كل شىء ، سوى الشىء الوحيد ، فازدادت دهشة . بل كاد يبدو عليها أثر المساءة ، ولو أنى ضعفت فى تلك الليلة لما كانت ليلة الفصل بين عهدين من حياة رجل .

وصالحتها بكثير من الحلوى أكلناها ، و بسهرة فى السينما قضيناها ، ثم رافقتها إلى دارنا القديمة حيث أمها الوقور ، وحيث إخواننا الخبثاء . ولم أعد إلى « الهيكل » إلا لأعيد أمتعتى إلى مسكن الدرس والعمل .

والآن ، هل يغضب العاهلان الصديقان من تعريضى ، وقد هجرت ذلك الميدان — أو فررت منه إذا شاءا — منذ أكثر من ربع قرن من الزمان .

يا لها من لوحة غيرت مجرى حياة !

ويا لها من ليلة عرفتُ فيها انتصار الروح !

« اذا صحت العزائم » (١)

إذا صحت العزائم هانت الصعاب . عبارة نكتبها على مضض ، لأنها تشبه الإنشاء المدرسى والبدائة المرتخصة ! وترديدها بالقلم أو اللسان ، ألفاظا لاتعدو الشفاه ، أو حروفاً لاتعدو الورق — عبث باطل خير منه السكوت ، كترديد حكمة شوقى : إنما الأمم الأخلاق . تدور على ألسن ألوف من الببغاوات البشرية ، وأخلاقهم صِفْر ، ومثلهم العليا فى هذه الدنيا عدم .

ورغم ذلك لن يزال تذليل المصاعب رهناً بصدق العزائم ، ولن تزال الأمم بأخلاقها علواً وانحداراً وإيجاباً وسلباً . فالعيب ليس فى هذه الحكم التى طالما مضغناها بأفواهنا حتى أذبناها ، ثم لفظناها مجاجة مع اللعاب . وإنما العيب فينا — فى نفوسنا التى تشهد اشتعال الهمم فى كبريات الأمم تحفزاً للغد الحافل ، ثم تحتفظ هممنا بجمود الثلج وبرودته ، على أن فى الثلج ناراً كامنة تنتظر مايوقدها ، كلهيب البرق ينقدح باصطكاك السحب !

فمن لنا بحساسية جديدة تذيب ثلوجنا النفسية كلما اصطكت — لا أقول بثلوج الأمم الأخرى — بل بوقود عزمها المستعِر .

إنى أهيب بصاحب الدولة رئيس الوزارة ، وإنى لمن أعلم الناس بغيرته على عزة بلاده وسبقها فى كل ميدان مجيد ، كما أهيب بزملائه المخلصين الذين أعرفهم معرفة الصديق القديم ، أو معرفة المواطن المنصف ، أهيب بهم أن يحشدوا منذ اليوم لمرافق مصر وعمرانها وشتى وجوه إصلاحها ، مجمعاً — ولو محلياً — كالذى ألفهُ للشورى السياسية فقيد مصر قبل أن يوافيه الأجل .

إن المجمع العلمى الذى صحب نابوليون إلى هذه الديار منذ زهاء قرن ونصف قرن ، أسدى إليها أيادى مخلدة فى كتبهم ، ماثلة فى عصرهم وعصر مؤسس الأسرة المالكة . على ضوئهم أنشأ مصر الحديثة ، وبفضل بحوثهم طفر طفرته التاريخية المعجزة .

---

(١) أخبار اليوم (العدد ٢٤)

قال نابوليون : لو أتيح لى البقاء فى مصر عشر سنوات ، لما ضاعت فى البحر قطرة من فيض هذا النيل ، كلمة أنقلها عن الأخ الأستاذ عزيز مشرقي بك ، رواها فى صدد حديثه عن لمحة سابقة دعوت فيها إلى استقدام أفذاذ من عباقرة العلوم والفنون والاجتماع والاقتصاد ، ليهدوا مصرنا الجديدة سبل الوثبة الشاملة . واشترك فى الحديث والتعليق جمهرة من ذوى الرأى جلهم نواب ، وكان على رأس الباحثين كبير ذو مكان مرموق من دعائم عهدنا الحاضر . قال : إن فى محفوظات الوزارات رُكاماً من الدراسات الفنية المستوفاة . فالبحوث لاتكاد تعوزنا . وإنما يعوزنا التنفيذ ، والمال عقبتنا الكؤود . وما دمنا ننفق فى المرتبات وما إليها أربعين مليونا ، فماذا يستطاع ؟ ....

فإلى لمحة قادمة .

معضلة المرتبات (١)

طالما شكا البرلمان وساسة المال والرأى العام المستنير ، تضخم المرتبات الحكومية التى تفاقم خطبها حتى لتبلغ أربعين مليوناً من ثمانين — وذلك قبل أن نعلّم أبناء الأمة أو نقاوم أمراضها ، أو نحفظ أمنها ، أو نرفع مستوى عيشها بالتعمير والإنشاء .

وهذه المعضلة المزمنة لاتكاد تُبقى للأعمال الجديدة سوى بضعة ملايين ، لا تفى بمعشار النفقات التى تقتضيها مشروعاتنا الكبرى .

فكيف إذن تثب مصر بمرافقها العامة وثبة صادقة، تنقلها من الكفاف أو مادون الكفاف إلى الرخاء ، ومن المرض إلى الصحة ، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن اللصوق بالتراب كالزواحف ، إلى النهوض للعيش كالسباع ، أو التحليق فى الجو كالبواشق .

أنَّى لمصر هذا ، وخزانتها العامة على رغم انتفاخها فى سنوات الحرب ، ما زالت وعاء مثقوباً لايمسك ما فيه إلا ريثما يمر بجوفه وحواشيه !

***

رأيُنا الذى نراه عن يقين ، هو أن مرتب الموظف الكفء لا إسراف فيه .

إنما يقع الإسراف بل السفه فى الاستكثار من الموظفين .

وهنا يجب أن نتحفظ ، ففى حين أن رجال القضاء والأمن والأطباء والمعلمين الأكفاء ورجال الطيران — مثلا — قد يحتاج عددهم إلى مزيد — نرى فى زوايا المكاتب والدواوين ، فى العواصم والأقاليم ، ألوفاً كثيرة من الموظفين العاطلين .

وإنك لترى فى أكثر المكاتب موظفاً واحداً يعمل ، وآخرين — ثلاثة أو أربعة — يعوزهم فى أغلب الأوقات مايعملون .

ولقد تضاعفت هذه الظاهرة منذ ابتداء حياتنا النيابية . تلك حقيقة نقررها مع حرصنا على النظام الدستورى والحياة النيابية .

غير أن لكل خير آفة توشك أن تشوبه مالم نصنه بالإخلاص والحذر .

---

(١) أخبار اليوم العدد ٢٥

فالعبادة قد يشوبها الرياء . والصدقة قد يتبعها المن والأذى أو انتظار الجزاء . فإذا نهى الناهى عن الرياء أو المن ، فليس ينهى عن الخير ، ولكن عن شوائبه .

* * *

وحياتنا النيابية خير خالطته شرور . منها إلحاح كثير من الناخبين فى التوسل بالنواب ، و إلحاح كثير من النواب فى التوسل بالوزراء ، فيما قد يعدو الصالح العام .

و إذا قلنا إن الكثرة العاطلة فى الدواوين هم صنائع هذه الوسائل ، لم نقل إلا حقاً . أما الكثرة العظمى من العاملين المنتجين فهم صنائع الكفاية والجدارة والسبق. على أن الموظفين والعمال مهما يكن عددهم الحاضر فهم أبناؤنا وأخوتنا، و رخاؤهم رخاء ألوف من البيوت المصرية الممتدة الوشائج والفروع ، وليس للدولة عليهم من سبيل سوى أن يعملوا مخلصين ما كُلفوا العمل .

حرام إذن أن يفكر أحد فى فصل موظف أو عامل إلا لجرم خطير . لكن أشد حُرمة من ذلك أن نستمر على سياسة « التوظيف » إلا لحاجة صارخة ، بعد أن استغرقت الوظائف نصف دخل الدولة ، وهذا مانعلم أن الوزارة الحاضرة تفهمه وتأباه . إنقاذاً لمصر من خطر العجز ، ولا نقول الإفلاس .

ماذا ضرنى سجنى

وماذا أفادنى (١)

بنى وطنى عليكم سلام .

لقد عركتُ أصابعى أمس حين خروجى من السجن ، فوجدتها ما زالت أقوى ماتكون على إرسال القلم حراً جريئاً ، لايخشى فيما يعتقده صالح بلاده — أشد أنواع الألم .

وخبرت نبضى أمس بعد خروجى من السجن ، فوجدته ما زال مطرداً قوياً كعهده طوال أيام الجهاد .

وتحسست قلبى أمس حين خروجى من السجن ، فوجدته ما زال ثابتاً بين جوانحى مكيناً ، وما زال سليم الإيمان متيناً ، لم تذهب الشهور التسعة التى قضيتها فى غيابة السجن ، بمثقال ذرة من متين بنيانه ، أو سليم إيمانه ، وما كانت لتستطيع ولو تطاولت إلى تسع سنين .

إنما حططت عن جسمى عشرين رطلا من الحشو ، لم تكن لصحتى بها حاجة ، فكانت هذه يداً بيضاء للسجن عندى . وأرجو أن لا يردّ على ترف الحياة المنزلية ذلك العبء الذى خلصنى منه شظف السجون .

وإنما أثار السجن آلاما بدنية كانت كمينة ، فأولانى يداً بيضاء أخرى ، إذ نبهنى إلى مضاعفة العناية بالعلاج .

إن ما كسبت من سجنى يربو على ما خسرت أضعافاً كثيرة . أما خسارة السجين فهل يجهلها أحد ؟ ... فقدان حريتى تسعة شهور ! وفى هذه الكلمة وحدها ما يغنى عن الشرح والإسهاب .

---

(١) نوفبر سنة ١٩٣٣ على أثر انقضاء مدة سجن المؤلف تسعة شهور ، فى قضية سياسية برأته فيها محكمة الجنايات ، وأدانته فيها محكمة النقض والإبرام برياسة معالى عبد العزيز فهمى باشا . وكانت هذه أول مرة رأت محكمة النقض أن من حقها إصدار حكم فى القضايا الصحفية دون إعادتها إلى محكمة الجنايات .

لكن ما هو الخير الذى خلص لى من هذا الشر ؟ ما وجوه النعمة التى استحالت إليها هذه النقمة ؟ هأنذا أعالج الجواب .

أحسست يوم نزعت ملابسى لأرتدى ثياب السجون — أحسست فى تلك الساعة كأنى نزعت كرامتى بيدى ، وأن الإعدام أهون على نفسى من هذا التمثيل برجل له من الأنفة ما ليس لكثير من تلك الأشباح التى لا تحسن سوى أن تهوى بمصر إلى الحضيض !

فى ذلك اليوم ، بل فى ذلك الأسبوع كله ، عانيت أزمة نفسية أوشكت أن توردنى موارد الحتوف . وإنى لفى هذه الحال ، إذا صوت خفى يناجينى من أعماق ضميرى :

أيتها النفس الأمارة بالسوء ، متى كانت الكرامة البشرية ثياباً تنزع أو ثياباً ترتدى ؟ إنى أنا الروح المتعالى فوق المكاره والمحن . وإنك لأقرب إلى الله وأكرم عنده فى ثياب المحنة هذه منك فى الحلل الفاخرة . وليس فى وسع كائن من كان أن يغض من كرامتك ، وإن كان فى وسعه أن يغض من ثيابك . إنما خلعت كساء من صوف ، لتسبغ عليك أمتك المفداة كساء من عطف وإشفاق .

بهذه الكلمات الصادقة جعل ضميرى يناجينى كل صباح ومساء ، حتى انشرحتُ لثياب السجن بعد انقباض ، واسترحت إليها بعد امتعاض ، لأنها استحالت فى عينى إلى رمز واضح من رموز التضحية بالتافه اليسير من طلاء الحياة .

* * *

أما تباريح المرض التى عانيتها فى سجنى ، ومبلغ احترام القوم لشكوى المريض ، فما أحب إيذاء القارىء بالخوض فيها ، أو إيلام نفسى بذكرها من جديد .

إن الحرية فى مصر ما زالت جنيناً فى غيب القدر .

ومن الخير أن يعانى المصريون فى سبيلها كثيراً من الشدائد ، حتى لا تهون عليهم ، إذا تمخض عنها اليوم السعيد المنتظر .

جنيت من سجنى هذه الثمرة : رجحان الجوهر على العرض واللباب على القشور ،

فأصبحت لا أبالى ماذا أرتدى ، ولا كيف أنام ، و إنما أبالى كيف شعورى وتفكيرى وكيف ثبات قلبى ، وحرارة يقينى !

***

وزوجى وأبنائى ؟ ألم تفدهم هذه المحنة شيئاً ؟

لقد عكفت شريكة حياتى هذه الشهور التسعة حبيساً فى الدار ، لم تغادرها إلا ثلاث ساعات زارت فيها السيدة أم المصريين ثلاث زيارات ، لِما والت عصمتها من الاشفاق والعطف ، ولقرب الدار من الدار .

وأبنائى الذين قضوا صيفهم بعد عناء الدراسة وجهود الامتحان ، راكدين بين الجدران لا يكادون يفكرون فى غير أبيهم السجين ، حتى إذا أزفت ساعة نومهم ، التفوا حول أمهم ، واتجهوا إلى الله بقلوبهم البريئة يضرعون .

إن أبنائى لم يعرفوا من الدهر غير ابتسامه ، فكان حقاً عليهم أن يعرفوا عبوسه . نشأوا بحمد الله أصحاء موفورين ، لا هم لهم إلا المراوحة بين الدرس واللعب . وكنت لا أكاد أخْليهم أسبوعاً من مشاهدة قطعة تمثيلية أختارها لهم ، بعد أن أشهدها على المسرح أو الشاشة ، فإذا أقبل الصيف ، وفرغوا من أداء الامتحان قضوا أشهر العطلة مستمتعين بمياه البحر أو هواء الريف . عيشة لينة هنيئة لم يكدر صفوهم فيها حادث مذكور .

طالت مهادنة الزمان ، فلا بد من أمر يقع ، لا بد من أمر عنيف يرج البيت رجاً ، ويطفر بأبنائى من غرة الأطفال إلى يقظة الراشدين . لا بد لهذه العيون الساذجة أن تذرف الدموع ، ولهذه النفوس الوادعة أن تتجرع الألم . وفوق كل شىء لا بد لهؤلاء البنين من الدرس الأول فى التضحية .

يجب أن يصوموا عن اللعب واللهو البرىء تسعة شهور . ويجب أن يصوموا عن نزه الصيف حتى فى ضواحى القاهرة ، ومع ذلك يجب أن يكدوا أنفسهم ليجوزوا الامتحان ، إرضاء لأبيهم نزيل السجون . وإذن فليجتهد الأستاذ صلاح [1] . حتى

(١) استأثر الله بقرة العين الحبيب مساء ٢٣ يوليو سنة ١٩٤١ . فى رضوان ربك يابنى — وإلى اللقاء

ينتقل من السنة الثانية إلى الثالثة الابتدائيـة ، وليجتهد الأستاذ كامل ، حتى يجوز امتحان الشهادة الابتدائية. ولتجتهد الآنسة عصمت لترقى إلى السنة الثانية من الدراسة الثانوية،والآنستان عليه و إسعاد لترقيا إلى السنة الثالثة.وكان ما أرادوا — وأم المصريين حفظها الله (١) . تختلف إليهم فتتحفهم بأفانين الحلوى ، جزاء لهم على حسن بلائهم فى الدرس والتحصيل .

لـكنهم تعلموا دروساً أخرى هى خير لهم ، ولبلادهم ، وأبقى . تعلموا درساً قيما فى الغيرية والإيثار ، بما انصرفوا عن أنفسهم ، وعن حاجاتهم ومطالبهم ، و بما توجهوا إلى أبيهم السجين .

وتعلموا درساً قيماً فى ضبط النفس ، بما أقلعوا عن ضروب اللعب والتسلية هذا الزمن الطويل .

وتعلموا درساً قيماً فى صدق الشعور بالواجب ، بما أقبلوا على علومهم إقبالا كفل لهم النجاح جميعاً — ما شاء الله — وذلك من غير حافز إلى الجد ، سوى إحساسهم بأن العمل على إرضاء والدهم سجيناً ، أوجب عليهم من العمل على إرضائه طليقاً .

ولـكن الدرس الذى تعدِل قيمته سجنى تسعة شهور، والدرس الذى تزول الجبال ولا يزول من نفوس أولئك الأطفال — عِلمُهم أن أباهم إنما سجن فى سبيل الدفاع عن عقيدته وعن صالح الوطن ، وأن الذياد عن صالح الوطن ، عمل واجب محمود ، ولو أعقب المـكاره .

وأدلة ذلك لديهم موفورة . إن إخوانهم فى المدرسة قـد ازدادوا إقبالا عليهم وعطفاً ، منذ وقوع الواقعة، بل هم يرون فى أعين المعلمين والمعلمات ، لُمعاً من هذا العطف قـد يحاولون إخفاءها ، لأنهم موظفون ، حرام عليهم إبداء الشعور ! ! والسيدات المتفضلات بزيارة أمهم ، لا يوجهن إليها عبارات التعزية، بل عبارات التهنئة ، و يغبطنها على ما حل بزوجها من ذلك المـكروه فى سبيل العقيدة .

وزيارة الزائرين من وجوه الأمة وأحرارها لجريدة الجهاد، ومن وجوه الأقطار

---

(١) تغمدها الله بأوسع الرحمات

العربية وفرق الكشافة فيها — سيل لا ينقطع — إبداء لعطفهم الكريم على الوالد السجين !

لا ريب إذن فى أن خدمة والدهم لوطنه شىء محبوب ، فهم لا بد خادموه متى استكملوا الأهبة ، وإن أدّى بهم الجهاد إلى التضحية .

وعلى هذا النحو غُرست شجرة الإيمان بالوطن فى هذه القلوب الخالية. فلو لم أجْن من شدتى سوى هذه الثمرة لكفى بها أجراً عظيماً .

***

لقد حلت المحنة وانجلت، دون أن تزيدنا إلا غيرة على خير مصر، ودؤوباً على نشدانه. وإن فينا لقوة على احتمال محن أخرى أشد وأنكى ، إذا اقتضتها خدمة البلاد ، وأملتها العقيدة .

وما هذه النوازل سوى نعم مطوية فى ظواهر نقم ، هى نعم من الوجهة العامة . فما نصرة الوطن المقهور، تمراً نأكله ولا رحيقاً نشربه ، وإنما هى مكاره نلقاها مصابرين حتى تزول المكاره . وهى نعم من الناحية الخاصة ، لأنها امتحان للعزيمة ورياضة للنفس وشحذ لروح الكفاح، ولو عاد الزمن أدراجه تسعة شهور، وجُعل إلىّ أن أختار وقوع هذه الكريهة ، أو اطراد العيش الهادىء بين جريدتى ودارى ، لاخترت وقوع الكريهة ابتغاء تلك الثمرات .

لكن ذلك لا يعنى أن القانون الذى حوكمت على مقتضاه قانون تقره أو ترضاه بلاد متحضرة .

وليس فى الدنيا كلها بلد متحضر يحشر بين اللصوص والقتلة وهاتكى الأعراض والمتجرين بالمخدرات ، رجلا وقف حياته على الصالح العام ، جريمته جريمة رأى ، يُحشر بين هؤلاء ، ويلبس مايلبسون ويفترش مايفترشون ، لولا برحاء المرض فى حالتى الخاصة ، ولولا أن الشخصية ، إذا كانت محترمة بصفاتها الذاتية ، تبعث الشعور باحترامها فيمن حولها — حتى داخل السجون .

***

لن تتم لنا أسباب الحضارة بحق حتى ترتقى فى بلادنا اللوائح والنظم ، وحتى تعترف هيئات التشريع عندنا بحُرمة المشتغلين بالحياة العامة من ساسة وصحفيين ، و إن احتدمت ألسنتهم وأقلامهم فبلغت حرارة اللهب ، وحتى تعاملهم الحكومات غير هذه المعاملة المزرية .

و إلى أن يتم ذلك، و إلى أن يصبح الصحفى الشريف فى عين الدولة وليس أقل شأناً ولا كرامة من القاضى الشريف ، والوزير الشريف ، وحتى ترتقى نظمنا ، ونظرات الهيئات الرسمية إلى سواد الشعب ، و إلى الخاصة من أفراده العاملين ، ستظل بلادنا متخلفة ، مهما يأخذ الآخذون عن حضارة أوربا من بهرج لامع وطلاء براق .

أما بعد ، فإنى أقف هنيهة حزينة أستمطر فيها الرحمات على الأعزاء الذين فارقوا الدنيا وأنا سجين . جاءنى نعى البطل الراحل سينوت بك فى برقية من أخى ، فما جزعت من السجن قط إلا فى ذلك اليوم . مات ابن مصر البار وخادمها الأمين طيلة أيامه، ومنقذ حياة صديقه وزعيمه يوم المنصورة . كان دمعى مستعصياً على الحوادث منذ سنين ، ولكن فى ليلة ظلماء داخل غرفة ضيقة موحشة ، عكفت على ذكر الرجل كل الرجل ، والصديق سينوت حنا كل الصديق ، فما هى إلا أن مثلت فى خيالى خدماته العامة ومروءاته الخاصة كأشعة من نور ، حتى ذل الدمع العصى فانحدر من عينى سخيناً .

ولم يمض على هذه الفجيعة سوى زمن يسير ، حتى نعى إلى الناعون كبيراً آخر من المؤمنين العاملين فى سكون وصمت ، الثابتين على العقيدة لا يبغونها عوجاً ولا يشترون بها ثمناً قليلا — المغفور له محمد زغلول باشا .

ثم يهجر الدنيا ذلك الزميل المحبوب الذى شغل رياسة التحرير فى زميلتنا الأهرام أربعين عاماً لم ينحدر خلالها قلمه إلى كلمة شوهاء ، الأستاذ داود بركات ، ذلك الصديق الذى أذكر له فيما أذكر من مكارم — إسراعه إلى دار الجهاد مساء اعتقالى — على رأس لفيف من الزملاء ، مواساة وعطفاً . و إن أنس لا أنس صوته المتهدج ودمعه الجائل بين جفونه ، وهو يناشدنى فى إلحاح شديد ، أن أكلفه خدمة يؤديها إلى جريدتى أو أسرتى أيام سجنى ! ! .

لقد كنت أرجو أن ألقى هؤلاء الإخوان فى بيوتهم زائراً شاكراً، فلم يُرد القضاء سوى أن أزورهم فى القبور ، مترحماً ذاكراً .

ثم ينهدم ذلك الركن الركين والخلق المكين ، المغفور له عدلى باشا، فتخسر البلاد بفقده خسارة فادحة ، تفقد زعيماً جليلا ، وسياسياً متيناً ، يترفع عن الدنايا السياسية ، ويُجل الروح الوطنية ، ولا يفرط ، أو يرضى بالتفريط ، فى شىء من حقوق أمته .

رحمهم الله جميعاً ، ورحم إخواناً آخرين انتقلوا إلى عالم البقاء ، سنلقاهم فى الدار الأخرى ، وقد عز اللقاء فى هذه الدار ! .

***

والآن أختتم هذا المقال ، حائراً كيف أعرب عن شكرى ، وكيف أوفيه أمتنا الكريمة التى أبدت نحوى من الإشفاق والعطف مالن أنساه مادمت حيا .

معنى حرية المرأة [1]

صحت عزيمة المرأة المصرية على أن تخرج من الظلمات إلى النور . فقد طال احتباسها بين الجدران كأنها قطعة من الأثاث أو أقل قيمة ، وطال حرمانها من أشعة الشمس تبعث فيها الحياة ، ومن شذى الهواء الطلق تستروح منه أنفاساً مجددة من العافية والهمة .

إنها تستدبر ظلام الأمس لتستقبل ضياء الغد . وقد أخذت المرأة المصرية اليوم تتلمس الطريق إلى الحياة الجديدة .

تؤمن المرأة المصرية المستنيرة بأنها روح إنسانية قبلها أنثى وقبلها شرقية ، وبأنه إذا اختص الرجال بشيء قد لا يعنى النساء ، وإذا اختص النساء بشيء قد لا يعنى الرجال ، فأن ثمة ميداناً مشتركا هو فوق الذكورة والأنوثة — ذلك ميدان الثقافة النقية والخدمة الكريمة للمجتمع بأقصى ما يستطيعه الرجل وأقصى ما تستطيعه المرأة .

وتؤمن المرأة المصرية المستنيرة بأن الشمس وضياءها ، والطبيعة وجمالها ، والعلم وآياته ، والفن الجميل وبدائعه ، والأدب الرائع وطرائفه — كل هذا لم يخلق للرجل وحده ، بل خلق كذلك لأمه وزوجه وأخته وابنته ، إذ هُنَّ أرواح تسمو إلى ما تسمو إليه أرواح الرجال ، إن لم تكن بالسمو أولى وأجدر .

نعم تؤمن المرأة المصرية بهذا كله وبشيء هو خلاصة هذا كله وجوهره الثمين — أريد الحرية الفاضلة ، وأقول الفاضلة لأن تقييد الحرية بهذا الوصف أمر لا بد منه ، إزالة للغموض الذى يعتور لفظ الحرية كلما ورد فى قول قائل ، ولا سيما إذا أراد بها حرية المرأة .

يسىء كثير من الناس فهم الحرية ، ولا سيما حرية المرأة ، فيحسبونها تحرر الغرائز الدنيا من عقالها ، فيصبح أمر الآداب والأخلاق فوضى ليس لها ضابط . ولو كان هــذا معنى الحرية لكان من ينادى بها ويدعو إليها ، منادياً بتهديم أركان

---

(١) أبريل سنة ١٩٢٧

الحضارة المثلى . وما رقىّ الحضارة سوى الرقى النفسى الذى تعالت به الجماعات المهذبة على مستوى العجماء ، وذلك بكبح الغرائز الدنيا ، أو إخضاعها لقوانين — بعضها أديان منزلة ، و بعضها آداب وأخلاق لا تكاد تقل عن الأديان قداسة .

إن المرأة المصرية حماها الله ، وحمتها الكرامة ، تطلب الحرية لعقلها المفكر ، وعواطفها المتدفقة بأنبل المشاعر ، المتحفزة لأبر الأعمال ، وتحس أن عليها لقومها ولنفسها فروضاً يجب أن تؤديها على أكرم وجه مستطاع .

تلك هى الحرية التى تريدها المرأة المصرية — حرية العقول المثقفة والعواطف المهذبة ، تجعلها أداة للخير والنفع العام . وهى تعلم أن المدنية الصادقة ، كما تقوم على ضبط الغرائز الدنيا ، تقوم كذلك ، وبالضرورة نفسها ، على تحرير العقول المفكرة والعواطف السامية . إذ المرأة المصرية على يقين من أن للنفس البشرية جانبين أسمى وأدنى ، وهى على يقين من أن رقيها المنشود ، إنما هو تقييد الجانب الأدنى بالقيود الكريمة ، و إطلاق الجانب الأسمى بأوسع معانى الإطلاق .

فإذا تبين هذا ، وهو حقيقة لا تحتاج إلى بيان ، تحدد معنى الحرية التى تنشدها نساء مصر بل نساء الشرق جميعاً ، ولم يبق ثمة ريب فى أن واجب الرجال هو أن يكونوا عوناً للنساء على هذا الحق العظيم الذى لا يختص به جنس دون جنس .

وليعلم رجال مصر أن المرأة المصرية لا تطلب تلك الحرية الشوهاء التى أصبحت فتنة لبعض نساء البلاد الأخرى ، حرية المراقصات الخليعة ، وحرية التبذل فى المظاهر والأزياء ، وحرية المخالطة للإغراء والأغواء ، فهذا كله عوْد أو شروع فى العود إلى إرسال الغرائز من مكامنها جامحة ، مطلقة .

المرأة المصرية أعز من هذا وأجلّ . و إنما تريد الحرية الفاضلة ، حرية أن ترى الشمس ، وتستنشق الهواء ، وتداعب الطبيعة ، وتتمتع بالعلم والفن ، وتشترك فى الخير العام ، وأن تسير فى الطريق إذا دعت الحاجة ، وتحضر المجامع ، فتلقى من الرجال ألسنة ناطقة بإجلالها ، وقلوباً خافقة بإعلاء مكانها ، كما يعلى الأخ مكان أخته ، والوالد مكان ابنته ، والولد مكان أمه .

تلك هى الحرية التى تنشدها المرأة المصرية ، وهى حرية فاضلة، من حال دونها فقد أرهق وظلم ، بل حارب مصر فى طريقها إلى أمام .

شم النسيم (١)

« شم النسيم » كلمة فيها نسيم الشعر . ويوم شم النسيم يوم يتيه على سائر العام بانصراف الناس فيه عن أساليب الحياة المألوفة، إلى الاستمتاع بمشاهد الطبيعة ونفحاتها، فى إبان إزدهارها وزخرفها . . ولقد تشم النسيم فى كل يوم من أيام حياتك إذا كنت ممن يحبون الهواء الطلق، ويسعون له كل أصيل أو غداة خارج المدينة أو القرية . لكن إفراد يوم معين لشم النسيم له معنى خاص، هو إجلالنا لجمال الطبيعة واحتفاؤنا بمحاسنها، فلا تستغرق مرافق العيش ومشاغل المادة كل مشاعر النفوس ، ولاتنسيها أن فى الحياة أزهاراً ناضرة تدعوك إلى قبلة ، وجداول عذبة تدعوك إلى رشفة ، وأشجاراً ظليلة تدعوك إلى جلسة ، وشمساً منيرة تدعوك إلى نزهة ، وخالقاً بديعاً يدعوك إلى عبادته بتدبر هذه الفنون من بدائع صنعه .

لذلك أعجب لهؤلاء الذين يبيحون لأنفسهم فى هذا اليوم الجميل أنواعاً من الشراب والطعام غير جميلة . فتراهم يحملون إلى الحدائق والبساتين أشد الخمور ضراوة ، وأخبث الأطعمة ريحاً ، فإذا الرياض حانات ومواخير، وإذا سندسها النضير بساط ، ولكن من جلود الفسيخ الملقاة بين أشجار الورد والياسمين وأشجار البرتقال والتفاح .

وعندى أن الذى يفسد أنفاس الرياحين بأنفاس الجعة والوسكى ، دع عنك « البوظة والعرقى » — ولاسيما يوم شم النسيم — يأثم إلى الطبيعة فى يوم عيدها ، وإلى بنات الطبيعة من زهر ونهر وثمار . وإلا فأى نسيم هذا الذى لا تستنشقه إلا ممزوجاً بهذه « الأبخرة » ! ألا تستطيع صبراً عن اللحوم والخمور يوماً واحداً ، تجتزىء فيه بالفاكهة طعاماً وبالماء شراباً ، فيكون ذلك لأنفسنا رياضة ، وللطبيعة تحية وشكراً .

---

(١) نشرت سنة ١٩٢٣

الشهادة الدراسية والرجل (1)

الرجل مجموعة كبيرة من القوى والمواهب والصفات — ولا تدل الشهادة الرسمية إلا على أن طائفة من تلك المواهب والقوى ، أربعاً أو خمساً فى الكثير الغالب — قد مرنت على ماخلقت له من الوظائف والأعمال ، مراناً ربما كان مشوهاً منقوصاً .

ولكن هب هذه القوى الأربع أو الخمس ، بلغت فى الرجل درجة عالية من النماء والمران ، فماذا نعلم عن القوى والصفات الأخرى ؟ تلك القوى الكمينة التى يضيق عنها برنامج الجامعة أو المعهد ، تلك القوى اللطيفة الدقيقة التى لا يفرزها غربال الامتحان ؟ .

هل بشهادة الحقوق التى أحرزها مصطفى كامل ، علمنا سرّ شجاعته وإقدامه وأنه سيحيا عظيماً محبوباً ، وأنه سينجذب إلى الحق ، وإلى الحق سيجذب أمة ، وأنه سيورى من الرماد ناراً ، ويخلق من البطون قلوباً ؟ هل كانت قوته هذه مادة من مواد الامتحان !

هل بالشهادة الحربية التى نالها نابليون فى مدرسته ، علمنا أن فيه من الصفات مايخرق به الأرض ويبلغ الجبال طولا ؟ هل كانت قدرته على أن يسود سيدات الأمم ويرغم شامخات الأنوف ، ويقهر الجبابرة العتاة ، هل كانت تلك القوة المدبرة وتلك المطامح البواسق مادة من مواد الامتحان ؟

هل بشهادة العالمية الأزهرية — وكانت فيما سمعت من الدرجة الثالثة — علمنا قدر الأستاذ الإمام الذى كتب (الإسلام والنصرانية) والعهدة على الراوى ، فى بضع ساعات فى غرفة مغلقة الأبواب ، لا يستعين فيها برأى غير رأيه ، ولا بصحيفة غير صحيفة قلبه ؟ .

سارت سورة الغيرة على الإسلام فى رأس الإمام ، فدفعت شخصه الكريم إلى غرفة أغلقها دونه — غرفة خالية إلا من يراع ودواة وقرطاس — وهناك دفعت

---

(1) فبراير سنة ١٩١٢

الحمية عقله الرزين إلى الوثوب، وعواطفه الكمينة إلى البروز — ثم حركت يده البيضاء بالقلم تعدو به عدْواً متدفقاً لا يني ، حتى خرج الأستاذ الأكبر بعد ساعات معدودات من بين أصحابه قامه وطرسه ومحبرته ، و بيمينه رسالة « الإسلام والنصرانية » !

هل شهدت الدرجة الثالثة للأستاذ الإمام بهذه المواهب ؟ هل أفرزها غربال الامتحان ؟ أى فرق بين الدرجة الثالثة فى يد فقيد الإسلام، و بينها فى يد ذلك الآخر الذى سمعه أحد تلاميذه يهتف بأن القدرة الإلهية كتبت على فخذ إمامه مالك « مالك حجة الله فى أرضه » فلما اعترض الطالب قول الأستاذ ، أسكت نعل الأستاذ لسان الطالب ؟ (على ما حدثنا الأستاذ هلباوى بك) أقول أى فرق بين الشهادة فى يد النابغة الإسلامى ، و بينها فى أيدى أمثال هؤلاء الذين كان الطلاب يسألونهم بألسنتهم فيجيبونهم بألسنة النعال ؟

الورقة واحدة فى الحالين — ولكن الفرق خارج عن الورقة لأنه فوقها . الفرق دفين فى طوايا الأستاذ الإمام لا تبديه أسئلة السائلين ولا امتحان الممتحنين ، إلا فى ظروف توقظ مواهبه من مرقدها وتبرزها من مكامنها — كما بعثتها فى عشر ساعات كتب الأستاذ فيها رسالة الإسلام والنصرانية .

***

العظيم يرى فى نفسه قوة البرهان على حقيقة نفسه .

لذلك أبت نفس (سبنسر) ذلك الفيلسوف الاجتماعى الكبير أن يتخذ من الشهادات دليلا على علمه وقدرته ، فرفض ما عرضت عليه كبريات الجامعات من شهادات شرف علمى شتى !

ليس العلم بضاعة يخزنها العلماء فى خزائنهم ، ولا وقفاً يقفونه على رءوسهم ، بل هو ملك شائع يأخذ منه من شاء ماشاء ، كيفما تتيح الظروف والفرص .

ادخلوا الجامعات فى الشرق والغرب يابنى مصر أفواجاً أفواجاً ، وأحرزوا شهاداتها الكبرى كل عام زرافات زرافات — فما أقصد أن ألويكم عن الصراط المألوف صراط الذين يطلبون العلم فى دور العلم ، و يأخذون الحكمة من معاهد الحكمة .

لـكنى مع ذلك أناشدكم أن لا تقفوا بآمالـكم ولا مطامحكم عند هذه الشهادات. وأناشدكم الله أن تنالوا الشهادة عفواً فى طريق طلب العلم — لا أن تنالوا العلم عفواً فى طريق طلب الشهادة .

« حياة العمل »

أتدرى من هو أسوأ حالا من الفقير المعدم ؟ هو ذلك الذى كلما هب من فراشه الوثير ساءل نفسه متبرماً حائراً : ماذا أصنع اليوم ؟ هو ذلك الذى يطلب شهى الطعام فيجده ، وفاخر الثياب فلا تعوزه ، وألوان النعيم وضروب اللهو فلا يحول بينه و بينها حائل . حتى إذا مل حياة الدعة والترف ، لم يعرف إلى حياة الجد والعمل سبيلا.

وفى مصر مترفون كثيرون هذا شأنهم ، تراهم سابحين فى بحار الرفاهيـة ، بل تراهم غرقى فى بحارها ، فتحسبهم ، وقد شهدت مظاهر سعادتهم — سعداء — وحقيقة أمرهم أنهم أشقياء .

ذلك الذى خارت عزيمته ، فلا يستطيع أن يكون جندياً إذا طلب إليه الوطن أن يكون جندياً، ولا يستطيع أن يكسب لعيلته بكدحه إذا عصف الدهر بما ورث ، ذلك الرجل وأمثاله الذين أفسدتهم طراوة العيش الناعم ، ليسوا شرفا للبلاد مهما يكن ما يملـكون ، ولا هم من السعداء حقاً ، لأن شعورهم بالعجز عن مطالب الرجال وهمم الرجال ، كثيراً ما ينغص عيشهم و يصغر شأنهم أمام الضمير ، يوم تتفتح فيهم عين الضمير ! يومئذ تسائلهم ضمائرهم: ثم ماذا ؟ ثم ماذا أيها الطاعمون الـكاسون اللاهون ؟ ثم ماذا بعد إذ أكلتم وا كتسيتم ولهوتم ؟ ألا تحبون وقد بذلت لـكم الحيـاة هذا كله ، أن تبذلوا شيئاً فى سبيل الحياة — أن تعملوا عملا ! .

قد يكون الترف أشد خطراً على حياة النشء من الفقر والإدقاع . فرب فقر بعث فيهم قوة الجهاد والجلاد، فإذا بهم رجالا ذوى عزيمة وهمة . فأما الترف والإخلاد إلى الرفه ، فقد يقضيان على متانة الخلق وشـدة المراس ، فينشأ الناشىء مائعاً رخواً لا خير فيـه . و إذا وهنت عزائم الـكثرة من أهل جيل ، فعلى أمتهم العفاء ، حتى ينشئهم الله خلقاً جديداً .

أيها العام الماضى وداعاً

ومرحباً بالعام الجديد

أمس فى منتهى الساعة الثانية عشرة من المساء ، وفى مستهل الساعة الأولى من الصباح ، نزعت بيدى تقويماً كان معلقاً بجدار الغرفة عن يسارى . ولم ألق به إلى سلة المهملات إلا بعد أن فصلت عنه آخر ورقة فيه . وكان يحمل اليوم وتاريخه يوم الأربعاء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ — فمزقتها فى شىء من الحنق ، وقذفت بقطعها الصغيرة إلى السلة ، وأنا أقول وداعاً إلى غير لقاء يا آخر زهرة عابسة من شجرة عام كاشر عبوس . ثم عاودنى نوع من الرثاء لهذه الزهرة البريئة الممزقة الراحلة ، وحدّثنى شعورى بأن الذنب فيما نجنيه على أنفسنا أو يجنيه علينا غيرنا ، ليس للأيام ، ولكنه من عملنا أو من عمل سوانا من الناس . وما الأيام إلا كآنية خالية يملؤها المالىء مما شاء من ماء زلال ، وألوان مريئة شهية ، وروح عاطرة وريحان ، أو مما شاء من ماء آسن وطعام فاسد ، وعناصر تحمل فى طياتها الأذى والهلاك .

فما ذنب الأيام ؟ ما ذنب تلك الآنية التى يبعث بها إلينا خالق الليل والنهار لنملأها من الخير وأسباب السعادة والمسعى الجميل ، فى سبيل المثال الأسمى لأنفسنا أفراداً ، ولأمتنا جماعة ؟

ما ذنب الأيام ؟ما ذنب تلك الآنية الربانية المصنوعة من المادة الخفية السرمدية، مادة الزمان ، ما ذنبها ، إن يكن حاكم من أبناء مصر يشايعه ثمانية آخرون ، تشايعهم طائفة تشترى بالمثل الأعلى ثمنا قليلا ، قد شاءت لهم أهواؤهم أن يملأوها من عناصر الأذى لأنفسهم ولهذه الملايين !

أما الأذى لأنفسهم فلا ريب فيه . وهل يستوى الذين يحسنون صنعاً ويحيون آمال أمة ، ويصعدون بها آخذين بيدها ، فى مرتقى الحق المنشود والرجاء العزيز المعقود والذين لا ينالونها إلا بالمساءة فيذبلون منها الأمل ، ويبطلون الحق ، ويجذبونها عنوة

---

(١) يناير سنة ١٩٣١

إلى منحدر لم تنج منه إلا بشق الأنفس ، و بعد العناء وطول العذاب !

ولو فطن المسىء ، لما أساء ! لو فطن إلى أنه ينال بالأساءة من نفسه أضعاف ماينال من سواه ، لانصرف عن ضلاله وارعوى . ويميناً بخالق الليل والنهار ، الذى خلقهما آنية روحية لنملأها من الحسنات والمآثر وأعمال الخلود ، لو أن من طعن مصر وأصابها فى عزتها وحريتها ، لو أنه يعلم كم أساء إلى نفسه ، وكم باعد بينها و بين نفوس أبناء وطنه ، وكم خسر فى هذه الصفقة التى اشترى فيها حكم عام ، بروابط الأخاء وصلات الثقة والولاء بين المصرى ومواطنيه ، وكم ألصق بشخصه من فعال ستنقضى بانقضاء الوزارات ، وانقشاع السحب والأزمات ، فى حين أن ذكراها ستظل فى صحائف التاريخ وصحائف القلوب اسطراً شوهاء لاتمحى — نعيدها يمينا بارة ، لو علم هذا الذى نقوله حق العلم ، وآمن به حق الايمان ، ما فعل شيئاً جل أو هان مما فعل .

أما الأذى لهذه الملايين فهين . لأن الشعوب لاتتم لها معانى القومية الصادقة إلا أن تصهرها المحن والخطوب . وعلى قدر ما تعانى الأمم من عنت المستبدين ، وعلى قدر حرصها على استعادة حقها ونصرة مبادئها فى غير سآمة ولا ضجر ، تعود بنصيبها من الحق والحرية كاملا موفوراً .

إذن فوداعاً رفيقاً شفيقاً يا آخر زهرة عابسة من شجرة ذلك العام العابس الذى انقضى .

وداعاً رفيقاً لأن عبوسك وعبوس أخواتك من قبلك لم يكن عملك أنت بل من عمل إخوان لنا من المصريين . وداعاً فى غير إحنة عليك فلعلك كنت تشهدين حال مصر ، وتشفقين .

وهأنذا أستجمع قطعك المتناثرة فى السلة ، وأضم بعضها إلى بعض ، لأدفن رفاتك فى ركن من حديقة الجريدة ، وسأواريها التراب مترحماً ، لأنك لمحة من الماضى بحلوه ومره ، وما كان الماضى ليهون على رجل رشيد ، إذ لولاه لم يكن حاضر تشحذ فيه العزائم ويُضاعَف العمل ، ولم يكن مستقبل نعقد به الرجاء ونحْيا له فى طليعة الأحياء

***

ومرحباً بك أيها التقويم الجديد المبارك .

إنى أضعك الآن مكان أخيك من هذا الجدار عن يسارى فى غرفتى ، وأضرع إلى الله من قرارة نفس مصرية تعز مصر فوق إعزاز الأهل والولد ، أن نقضى معاً أيها التقويم الجديد عاماً باسماً سعيداً ، عاماً باسماً لمصر ، وسعيداً بسعادتها .

أرفعك يا تقويم العام الجديد إلى مكانك بيدى ، كما وضعت أخاك بيدى .

ذلك عام مضى من حياتى . وهذا عام لست أدرى هل أتمه معك فى هذه الدنيا . غير أنى أعاهدك يا تقويمى على أن أحاول كلما انفرط من عقد الحياة يوم ، ونزعت منك ورقة ، أن أكون ذرة صالحة عاملة فى هيكل الوطن .

يا تقويمى فاشهد . أنت هنا فى مكتبى ، تنظر حركات قلمى وتسمع صريره ، وليتك تدخل خواطرى فتعلم سرى ونجواى ، حتى إذا أحصيت على صاحبك هجسة سوء أو وسوسة شيطان ، أو إيثاراً لخير نفسى على خير أمتى ، انقلبت وريقاتك خناجر نافذة فى عنق ذلك الذى يخاطبك فى هذه الخلوة الهادئة .

ويا أبناء مصر . إن الدعوات الطيبات لتزدحم على لسانى .

هل أدعو لكم بالرخاء والسعة ، والنجاة من هذا الضيق إلى فرج من النعماء فسيح ؟ وهل أدعو لكم بأسباب أخرى من غبطة اليقين ، هى العزاء عن حطام الدنيا إذا غرَّكم هذا الحطام . لو دعوت لكم أيها المواطنون الأعزاء بكل صنوف الخير التى أحبها لكم ، لقضيت الليلة فى الدعاء حتى ينبلج الفجر ! فحسبى أن أدعو لكم بكل ما ترجونه لمصر ولأهليكم وأنفسكم من أسمى أنواع السعادة والغبطة .

ويا زعماء الوطن . مد الله لكم فى أيام الحياة وفى وسائل العمل المجيد .

ويا خصوم مصر من بنيها أو غير بنيها ، هداكم الله صراطاً مستقيماً وأحال تراب أنفسكم تبراً وظلامها نوراً .

ويا أمم العالم ، ألهمكن الله آية السلام ، ومحا من بينكن آية المطامع والمكايد والعدوان .

ويا عامنا الجديد ، مرحباً بك من عام سعيد ، ستستعيد فيه مصر بإيمان أبنائها ما فقدت ، ويبتسم لها الدهر إن شاء الله بعد طول عبوس !

القرية فى ظلام [1]

القرية المصرية — عدا الليالى المقمرة — فى ظلام حالك . نور المسارج محبوس بين جدران الدور والأكواخ . أما الأزقة وما بين المنازل وما حولها فسواد كناصية الغراب . وما لم تكن حديد البصر فأنت بحاجة إلى تلمس الطريق بعصاك أو يديك. وليس يأمن المدلج أن تغوص قدمه فى أرواث لا يراها ، أو أن يصطدم رأسه بخشبة ناتئة من جدار . وقد تسمع وقع أقدام على مقربة منك وترى أشباحاً آدمية بين يديك ، فلا تتبين الوجوه ولا تميز الأشخاص حتى تقول لهم أو يقولوا لك « سلاماً » فتعرفهم بأصواتهم إن كنت من خلطائهم ، وإلا فأشباح مرت بأشباح ، أو خفير يصيح بك وهو على قيد رمح منك : من أنت أيها القادم ؟ « أنا » « أنت من » « أنا محمد » ، « ومن محمد » ، « محمد أبو خليل . شىء بارد صحيح ! »

(لا مؤاخذة يابو خليل ، الواحد معذور ! عينى كانت عسلت حبتين ، وصحيت مدروخ ، والدنيا زى الكحل ، وحسبتك دورية) .

ليس هذا غلواً فى الوصف . ولقد كنت وأنا غلام لم أبلغ الثامنة شديد الولع بالذهاب كل ليلة من الدار إلى « الدوار » كى أصغى إلى حديث الأجداد والآباء ، وكانوا يتنادرون كثيراً بحوادث العصور التى شهدوها ، ويقصون علينا نحن معشر الأبناء طرائف شائقة فيها عظات وسمر وفكاهة، فلم يكن عجباً أن يفتتن غلام فى سنى بالجلوس إليهم رحمهم الله . لكن أبى كان يسبقنى إلى « الدوار » بعض الليالى فلا أجد بداً من اللحاق به وحدى . وكنت أستحى أن أسأل خادماً أو خادمة مرافقتى لإيناس وحشتى وإيمان خوفى طريقاً مظلمة كانت تملؤنى وجلا ورهبة . ذلك أنى كنت أسمع فى مجلس السمر « بالدوار » تمدحاً عظيماً بالشجاعة والإقدام ، فكنت أحب الإقدام على خوض غمار الظلام ، وكان فى بعض الطريق حظيرة أبقار يهابها المارة بالليل « إذ يسكنها عفريت ! » لا تضحك ! لقد كان لهذا العفريت شهرة ذائعة بين

---

(١) نشرت سنة ١٩٢٣

أهل قريتنا ، فما يكاد يمر بمسكنه أحد فى الظلام إلا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وجعل يتلو آية الكرسى بلسان يلجلجه الخوف ، ولم أكن أحفظ آية الكرسى ، فكنت أمر بمسكن العفريت غير مسلح . أكنت أخاف ؟ لا ! لم أكن أخاف . ولكن كنت أحس كأن شيئاً بين جوانحى يريد أن ينخلع من شدة الخفقان ، وكأن ركبتىّ قد انفصلتا عن سائر جسمى ! وكأن تياراً من الثلج المذاب قد سرى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ! وكنت أحسب دبيب الفأرة حركة شريرة من حركات العفريت ، وصفير الريح زفرة من زفرات هذا المارد الهائل الجبار . وأغمض عينى كى لا أبصر شبحه الرهيب . وإغماض العين وفتحها فى هذا الحلك سواء ، ثم أسرع الخطو المضطرب طلباً للنجاة . حتى إذا بلغت « الدوار » فى نهاية المحنة وسألنى أبى « أجئت وحدك ؟ » أجبت « نعم »! — ألم تخف ؟ — « وهل مثلى يعرف الخوف يا أبتاه ! »

ولو أن أزقة القرية وشوارعها كانت مضاءة ، وصدقنى ، ليست نفقات ذلك بالشىء الكثير ، فدريهمات معدودة يبذلها كل بيت كافية لمحو هذه التعاسة التى تخيم على القرية المصرية وأهلها كلما غاب القمر ، لو أنها كانت مضاءة لما اصطدم المرء بأخيه ، ولا غاصت الأقدام فى الأرواث ، ولا داخلنى أنا وسائر غلمان القرية الأغرار كل هذا الروع من عفريت لا يخلقه فى أوهام الناس غير أهوال الظلام . وإذن لما وجدت بذور الخور الذى يحدثه الخوف فى الصغر إلى قلوبنا الخالية سبيلا ، وإذن لكانت القرية المصرية بالليل شبيهة بالمساكن « لا بالمدافن » — جديرة بالقرن العشرين .

ماذا يشربون [1]

إنهم يشربون كسائر الأحياء . لكنهم لا يشربون ماء ولا يشربون « شاياً » ولا يشربون نبيذا ولا جعة ولا « وسكى » إذن فماذا يشربون ؟ يشربون طيناً مذاباً فى ماء ! أولئك هم أهل القرى فى مصر .

لا تقل أنى مبالغ . ولن تقولها إلا إذا كنت من أهل المدائن ، ولم تطوح بك الطوائح إلى قرية أو ضيعة من قرى الريف وضياعه . ولا نكاد نصدق أن بين أبناء المدن أحداً لم تدعه بعض الدواعى إلى مفارقة الحضارة وأسبابها والنزول ضيفاً على بعض سكان القرى . ولا بد أن يكون قد جاع فأكل ، أو عطش على الأقل فشرب أو حاول أن يشرب .

أما الطعام فهنىء مرىء ، لولا أنه مشبع بالدسم أحياناً إلى حد قد يخشى معه سوء الإساغة والهضم . لكن الشراب ! لن تسميه ماء ، فعهدك أيها الحضرى بالماء أنه مادة شفافة لا لون لها . أما ذلك الذى يقدم إليك فى القرية فليس من الشفافة فى شىء . بل هو مادة طينية اللون بين الحمراء والسوداء ولا سيما أيام الفيضان .

لكن يجب أن نكون منصفين . قد نرى فى بعض بيوت الريف ماء . ذلك أن قليلا — قليلا جداً من وجوه أهل القرى أو المترفين منهم ، يذهبون إلى ما يذهب إليه أهل المدن من أن العطشان إذا أراد أن يشرب فليشرب ماء صرفاً ، لا طينا مائياً ولا ماء طينياً . فى بيوت هؤلاء قد تصادف الماء فتروى ظمأك من غير أن تجيش نفسك ، أو تأخذك الحيرة فى أمر ذلك السائل المخيف .

فإذا استثنينا هذا النزر اليسير الذى « يقطر » ماء النيل قبل أن يشربه ، أو يجد فى ذلك مشقة فيشرب من ماء العيون والآبار ، استطعنا أن نحكم بأن أهل القرى المصرية ، وهم سواد الأمة الأعظم ، يرتوون من ذلك الخليط العجيب من ماء وطين .

والعلم قد وصل إلى نتيجتين مختلفتين فى أمر ذلك المزيج : إحداهما أنه ينفع

---

(١) نشرت سنة ١٩٢٣

الأرض التى يرويها نفعاً عظيماً ، ذلك أن الطين الشائع فيه يغذيها فيزكو زرعها . ويزداد نماء وإثماراً . والثانية هى أن ذلك المزيج يؤذى الإنسان الذى يشرب به أبلغ الأذى : ذلك بأن هـذا الطين عينه بيئة صالحة لمختلف الجراثيم ، ثم هو مادة قابلة للتحجر ، فإذا تحجرت فى بعض الأوعية البدنية ، فياويل صاحبها من الآلام وياويله من مدية الجراح .

إذن للأرض أن ترتوى بذلك المزيج ، ولكن ما بالنا نجعله رياً للآدميين ! هب كثيراً منهم سُذّجاً لا يدركون أذاه — فهلا تحس الحكومة شيئاً من وخز الضمير ؟

معركة الوجدان

قال شوبنهاور — « ليس فى استطاعة إنسان أن يكون على اتفاق تام مع أحد سوى نفسه » .

ونحن نقول بل الاتفاق التام قلّ أن يستطاع حتى بين المرء ونفسه ، أعنى بين نفسه الطامحة إلى المثل الأعلى ونفسه المخلدة إلى المثل الأدنى . وههنا يكون النضال بين النفسين ، أو إذا شئت ، بين القوتين . ذلك هو سر ارتقاء الفرد أو الجماعة طوراً بعد طور . فإذا علوت نحو الكمال الذى تنشده — درجة ، بدت لك فوقها درجة أخرى هى أسمى وأرقى .

وكذلك يستمر الجهاد النفسى طوال الحياة . لأن مثلك الأعلى يزداد سمواً كلما سموت أنت . كطيف جميل شديد الاغراء ، كلما دنوت منه تناءى كالمداعب وهو يدعوك إلى اللحاق ، فتسعى إليه ، وما تزالان على هذه الحال يزداد بعداً وتزداد سعياً ، أو يزداد تحليقاً وتزداد فى أثره علواً ، فلا تدركه ولكنك تسمو بسمو مثلك الذى تبتغيه .

الشاعرية والأثاث (١)

لقيت أحد الأصدقاء منذ يومين ، وكان حائل اللون كاسف البال كالمحزون ، فلما استقر بنا الجلوس أقبلت عليـه أسائله : ما خطبه ؟ وما بلابله التى ارتسمت آثارها فى محياه ؟ وصديقى هذا على جانب عظيم من الفطنة والعـلم والتجربة ، فهو قادر على تحليل عواطفه ، يدرك مواطن الضعف منها ومواطن القوة ، وهو فى أكثر الأحيان شديد الاعتداد برأيه إلى حد قد تظنه زهواً وما هو بالزهو ، لكنه الإيمان بالنفس .

لـكنه فى هذه الساعة كان أقرب إلى حالة البث والشكوى ، منـه إلى حالة القوة التى تبدو فى صوته ولهجته حين يقارع الحجة بالحجة، مستمسكاً بمذهبه، فى شىء طفيف مباح من التهكم برأى مجادله .

حالته الآن حالة بث وشكوى ، فلما سألته مابه أجاب : —

« بى ضعف مصدره شدة الحساسية : ولى مخاوف عجيبة لا تعرض لـكل الناس ولى مشاعر يؤذيها مالا يؤذى الناس .

« أنا سعيد بصحتى سعيد بهناءة بيتى ، غير أنه صفو يكدره التفكير فى حلول الأجل . أنا سـعيد بالحاضر ، وأكاد أكون شقياً بالتفكير فى انقضاء الحاضر . فأنا من إشفاقى على عهد السعادة فى شبه شقاء . هذه بعض مخاوفى التى كثيراً ما تفسد على هنائى . فإذا أردت مثلا أضرب به (لحساسية) مشاعرى فهاك المثل :

« مرضت حين كنت يافعاً لم تزد سنى على الرابعة عشر، فرأى لى الأطباء أن أقيم بمدينة حلوان ، وجعل والدى يبحث لى عن جناح منزل أسكنه . فاهتدينا إلى جناح مؤثث ، دخلت أتفقده فإذا أسرة ومقاعد و بسط ومرايا (وصور فتوغرافية) ولوحات فنية . أثاث أسرة كانت تقطن هذا المـكان قبلى ، وترقد على هذا الفراش ، و تجلس على هذه الـكراسى ، وتنظر فى هـذه المرايا ! كدت أذرف الدموع . كيف هان على

---

(١) نشرت سنة ١٩٢٣

أصحاب هذا الأثاث الذين عاشروه وعاشرهم سنين طوالا أن يتركوه للغرباء . قسوة وجفاء ! إن لهذا الأثاث حرمة يجب أن ترعى » .

« فراشي ! كم من سويعات سعيدة قضيتها فيه ! وكم من آلام مبرحة لم يخففها عني سواه ! هو مهربي من متاعب يومي ، وملاذي حين تشتد على قاصمات الظهر من مكاره الحياة ! كم من آمال حلوة سعدت بها فيه ، وكم من خواطر لذيذة خطرت لي بين طياته ! كم ضمني فراشي إلى صدره حين ضاقت بي صدور الناس ! وكم أراحني حين أتعبوني ، وكم نهضت منه قوياً نشيطاً بعد أن ارتميت في أحضانه ضعيفاً منهوكاً . فراشي . ما أحلاها من كلمة ! كم تثير من ذكريات يخفق لها الفؤاد ! فراشي أصدق أصدقائي وأخلص أحبائي . هو أبداً في انتظاري يحنو عليّ ويتلطف بي ويرفه عني ، ويتقبلني على مابي من علة قد يهجرني خشية عدواها الاخلاء ! فراشي ! إن نفسي لا تطاوعني إلى بيعه أو إيجاره ولو أبدلوني منه زنته ذهبا . فراشي العزيز ! .

« كذلك شعوري نحو مكتبي ونحو مرآتي ونحو الكرسي ونحو البساط ! كلها عاشرني فأحسن عشرتي ، وخدمني فأحسن خدمتي ! وليس من الوفاء بيعها أو إباحتها غيري في سبيل المال . إنها شاطرتني حياتي ولابست أحزاني ومسراتي ، فهي عزيزة عندي عزة الولد والأخ والصديق .

« راعتني قسوة أصحاب هذه الأسرة وهذه الكراسي وهذا الأثاث . ولم أبح لنفسي الإقدام على استخدامها بعد عشرائها الأول ، إكراماً لحرمة هذه الآثار الآدمية المقدسة .

ثم أضاف صديقي : « ويخيل إليّ أن أجدادنا الفراعنة لم يكونوا يدفنون مع المتوفى أمتعة شخصه إلا إدراكاً لهذا المعنى ، وإجلالا لهذه العاطفة ! فلا غرابة أن يكون جدنا (توت عنخ أمون) قد غضبت روحه من إقدام أهل الدنيا على نبش قبره ونقل أثاثه . »

هذا ما بثني صديقي متوجعاً محزوناً ، فلم أجد لدي ما أقوله على سبيل النصح سوى كلمة حضرتني قالها (تليران) « رقة الشعور إلى حد الإفراط مدعاة إلى الشقاء ، وبلادة الشعور إلى حد الإفراط مدعاة إلى الإجرام !. »

مآتمنا (١)

فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليلة الماضية ، فزع سكان الحى فزعة يقصر دونها الوصف — فالأطفال هبوا من رقادهم ذاهلين كمن به مس . والنساء هببن فزعات يحسبن حريقاً هائلا قد امتدت نيرانه إليهن من حيث لا يشعرن . والرجال خفوا من مضاجعهم يتساءلون عن الخطب المفاجىء ؟ و بعد هنيهة عادوا إلى مضاجعهم يسخطون من عادات ممقوتة ليس لها شبيه فى بلد متمدن .

مريض طال عليه المرض وأدركه الأجل المحتوم فى تلك الساعة ، فكان ما يكون فى ديارنا عند كل وفاة من تصويت يمزق الأعصاب و يخلع القلوب ، دون أن يراعى أهل « المرحوم » حرمة الموت وجلاله ، ودون أن يذكروا أن الجيران فى مثل تلك الساعة نيام ، وفيهم الطفل الرضيع والشيخ الضعيف والمريض العانى — وقد يكون شفاؤه رهناً بالطمأنينة والسكون !

وما كانت هـذه الأصوات المنكرة ، دليلا ولا شبه دليل على أن الفقيد عزيز يشق فراقه على أهله . إذ الحزن احساس فى النفس أو دموع فى المآقى ، وليس تقطيعاً للحناجر ولا لدما للصدور ولا شقاً للجيوب . والحزن عاطفة رقيقة خافتة الصوت مهيضة الجناح أبعد ما تكون عن ثورة البراكين وهدير الرعود . لكن يبدو أننا مولعون بالجلبة والضوضاء حتى فى مواطن الشعور والوجدان .

نريد أن نعلن حزننا للناس جميعاً ، وأن لم يشاطرونا الأحزان ! بل نريد أن نشرك الملأ فى همومنا وإن كان لكل إنسان نصيبه من المتاعب والهموم . إذا قام مأتم فى دار أبى أهلها إلا أن يجعلوا كل دار فى الحى شريكة فى المأتم ، بما يرفعون به عقائرهم إلى عنان السماء من عويل أصيل ومجلوب : نقول « ومجلوب » لأن النائحة الثكلى لا تكتفى بنواحها ونواح الحميمات من قريبات وصديقات ، بل تستعين بالنائحة المستأجرة . وكلنا يعلم أن فى مصر صناعة رائجة فى المدن والأقاليم هى صناعة

---

(١) نشرت سنة ١٩٢٣

« النادبات . . » نساء قد اتخذن أثارة الشجون واستدرار الدموع مهنة ومرتزقاً .

ونحن نجد — كسائر الناس — موت عزيز من الأهل أو الأصدقاء مبعثاً للأسى واللوعة . لكن الذى نستهجنه و يستهجنه كل بيت مهذب فى عصرنا هذا — هو أن تستعين النساء الحزينات بنادبة لا تشاطرهن حزنهن إلا تكلفاً وتجارة ، فيتخذنها عوناً على ذكر الفقيد وتعديد مناقبه ، فى كلمات محفوظة تترنم بها فى صوت يتهدج بالعاطفة الكاذبة ، وهن يتبعن كل وقف من ترانيمها بصرخات مزعجة ، يصوت بها النساء فى وقت معاً ، فما أقبح وما أرذل ! . ذلك إلى لطم الخدود وتسويد الأيدى والوجوه أحياناً ، وتجليل الرءوس بالتراب والطين إذا جل المصاب! فإذا رأيتهن قائمات يدرن فى حلقة يضربن الوجوه الملطخة بأيد ملطخة ، والنادبات بينهن يضربن بدفوف يسمينها « الطار » ، إذا رأيتهن على هذه الحال لم تقل نساء ، ولم تقل من أمة متحضرة أو شبيهة بالمتحضرة — فضلا عن أن تكون حفيدة أعظم الحضارات .

ولو أن هذه الشناعات كانت مقصورة على أفنية البيوت أو محبوسة فى مضايق الأزقة لهان الخطب شيئاً . لكن ما بالك ونساء بعض الطبقات فى مصر يشيعن الجنائز على هذه الصورة النكراء ، فلا يراها نزلاء مصر والعابرون بها إلا سجلوها على أمتنا عاراً تندى منه الجباه !

ثم لا تنس أولئك الرجال الغلاظ الأشداء الذين اتخذوا الإنشاد السخيف المرذول أمام الجنائز ، صناعة أولئك الذين هم من الرجال كالنادبات من النساء :

« جيناكم يا سيادى — يا سيادى جيناكم » !

الحق أن كثيراً من مآتمنا منكر تضج منه آداب الدين والدنيا معاً .

الوطنية الفاضلة (١)

إذا كانت سلامة القلب وطهارة النية من فضائل النفس التى لا بد منها لكل من يعمل فى ميدان الحياة ؛ إذا كان التاجر لا ينجح نجاحاً شريفاً حتى يتصف بشريف الخلال ؛ إذا كان الصانع لا يحسن خدمة الجماعة بما يقدم إليها من نتائج صنعه ، إلا إذا أخلص لهذه الجماعة واستشعر حبها ، ثم جعل جهوده رمزاً إلى حبه و إخلاصه ؛ إذا كانت محاسن الشعور الباطن شرطاً لمحاسن العمل البارز ؛ إذا كانت نبضات قلبك وخطرات نفسك مصدر كل لفظ تفتر عنه شفتاك ، وكل سعى تحث فيه خطاك ، فإن شراً فشر ، وإن خيراً فخير . فإن خدمة وطنك عن طريق السياسة لا تستغنى عن سلامة القلب وطهارة النية بحال .

وليس من سلامة القلب ولا طهارة النية ، أن تحب الوطن وتكره فريقاً من بنيه انقياداً لهواك ، أوطواعية لهوى سواك ، فحب الوطن ليس معناه مجرد حب الدور والقصور ، أو حب الزرع والضرع ، أو حب الماضى المجيد أو حب المستقبل السعيد . نعم أنت تحب هذا كله . ولكن عليك واجب آخر هو أن لا تنسى أن حب الوطن ، معناه قبل كل شىء — حب المواطنين ، فهم الذين بهم ولهم تعمر الديار ، وتشاد القصور ، وبهم ولهم يحيا الزرع والضرع ، وفيهم وبهم تتزاوج ذكريات الماضى وآمال المستقبل مَن أعزَّ الوطن حقاً أعز أبناء الوطن . ومن أعزَّ أبناء الوطن ، ضن بهم جميعاً فلا يرمى أحداً منهم بسوء ، ولا يأخذه بريبة ، ولا ينابذه بلقب ، حتى يستيقن أنه لا يتهم بريئاً ولا يثلب كريماً . ذلك بأن النفس المصرية التى قد يعيبها المصرى فى غير عيب ، ويشوبها فى غير شائبة ، نفس ثمينة غالية ، لا ينبغى إرخاصها بالحكم عليها من غير دليل سوى الظن ، ولا مبرر سوى الانقياد لهواك ، أو الطاعة العمياء لهوى سواك .

ليس هذا من حب الوطن فى قليل ولا كثير . إن الزارع الذى يحب زرعه ،

---

(١) سنة ٩٢٣

ليحرص على كل سنبلة وعلى كل حبة من سنبلة ، إعزازاً لثمار جهاده ، وتقديساً للنعمة المباركة التى أنعم الله بها عليه . هذا هو الزارع المخلص لعمله حقاً . فهل ترى محب مصر يرخص أخاه المصرى مالا يرخص محب الحقل برة أو سنبلة !

إن البستانى أو الزارع ليألم حين تزعم أن شجره أو زرعه مؤوف ، ولا آفة فيه ، فهل أبناء وطنك أهون عليك من الشجرة أو الثمرة على صاحب البستان .

لقد تسب نفسك حين تسب مواطنك ، وتهدم نفسك حين تهدمه .

أيها المصرى الكريم ، أعزز إخوتك فى المصرية كما تعز إخوتك لأمك وأبيك ، ولا تغمز وطنية أحد منهم إلا أن تأتى بآية قاطعة و برهان مبين .

ياشاويش[1]

هذه كلمة الاستغاثة ، يستنجد بها المستضعف من الناس حين ينقض عليه بعض المعتدين ، أو حين يسطو بعض اللصوص بامرأة مسكينة يسلبها متاعها فى جنح الليل والناس نيام ، وعلى الجملة ، حين تعتدى القوة على الضعف بطريقة ما من طرق العدوان .

لكن الشاويش غائب . إذن نبحث عنه . نعدو ههنا وهنا مسائلين المارة فى لهف : ألم يصادف أحدكم رجلا من رجال الشرطة ، فإن بعض الأشرار يفتك ببعض الأخيار ، فى ناحيـة من ميدان الأوبرا ، والجمهور حولهما يتفرج ، ولا يعرض للمعتدى الأثيم بسوء . و بعـد جهد جهيـد وتعب شديد ، تعثر برجل البوليس يمشى الهوينا مفككك الأوصال كأن قنطاراً من الأحجار الثقال عالق برجليه ، وعيناه متجهتان إلى السماء زهادة فى شئون الأرض ، أو متجهتان إلى الأرض يحدق بهما فى حذائه كأنه مرآة يجتلى فيها حسن طلعته . فإذا نظر أمامه فإلى بائع الخيار والقثاء و إلى بائع البرتقال أو المشمش — ينظر إلى عربة ذلك البائع المتجول وما تحمل من فاكهة الصيف أو الشتاء ، فيتحلب منه اللعاب ، و يتدفق بالصياح والسباب « امشى ياراجل متجفش جولت لك يا ابن الـ . . . »

— « إحنا عملنا إيه ما احنا ماشيين . بِرَمَحْ يا شويش ؟ »

— « كان جليل الحيا . إمشى جدامى على التمن كلمة واحدة . والله ما اعتجك »

— « اتفضل . . تمن تمن . . يعنى حيودونا المشـنأة . بس من فضلك تمشى من الحارة دى يا حضرة » .

وما هى إلا لحظات قصيرة حتى يخرج رجل الشرطة فى وقار وسكينة من هـذا الزقاق ، تعلو محياه علامات الاغتباط والرضا ، فتنظر إلى يمناه فماذا ترى ؟ منديلا واسع المساحة أحمر اللون فيه نقوش بيض وصُفْر وفيه برتقال أو مشمش أو قثاء ،فإذا سألته ما هذا ؟ أجابك مزهواً : « حبتين فاكهة للعيال ، لـكن الرجل دا مغلوانى جوى ! »

---

(١) نشرت سنة ١٩٢٣

— « ما علينا يا جاويش . من فضلك تعال معى . ففى ميدان الأوبرا رجل شرير كسّر أحد الناس هناك تكسيرا » .

يحار الشرطى هنيهة ، ويلعن صناعة البوليس وما فيها من مشكلات ، ثم ينادى أحد منظفى الأحذية فينهره قليلا : لماذا يتخذ هذه المهنة من غير رخصة ، حتى يخيل إليك أنه سيقبض عليـــه لا محالة ، ولكنه يُسلمه المنديل ، ويأمره بانتظاره مع — الأمانة — حتى يعود ، « وأنجالك مسحة والا اتنين معلهش ، ولكن بكره إن شفتك هنا حتما من التمن سامع يا جربوع » !

— « سامع يا حضرة الشويش ربنا يخليك . البركة فيك » .

وفى النهاية ، يمضى معك الشرطى متململا ضجراً ، وكأنه يريد أن يسألك ماشأنك أنت ؟ وما هذا التصدى لما لا يعنيك ! لكنه يخشى أن تكون متصلا بحضرة المعاون أو حضرة البك المأمور ، لا سيما وعليك سيما الوجاهة من حسن هندام وعبوس وقلة كلام . يتبعك إذن فى كراهة وجنوح إلى الإحجام ، حتى يصل إلى حيث كانت المعركة ، فلا تجدان سوى دم تخضبت به الأرض ، يحيط به نفر من الحوذية وغلمان الشوارع .

هنالك يُنَحِّى الشرطى أولئك النظارة عن الدم العبيط المسفوح ، ويسائلهم فى شدة وعنف . . « أين المعتدِى والمعتدَى عليه . . هذا دم أيها الناس . إذن وقعت هنا جناية فأين الجانى أيها المتفرجون وأين المجنى عليه ؟ »

فيتطوع أحدهم بإجابة حضرة الشاويش بأن المجنى عليه قد حملته نقالة الإسعاف إلى المستشفى فى حالة خطرة يرثى لها ، وبأن الجانى قد فر .

— «مش عيب عليكم تبجوا رجاله كدا تخان وعراض ، وتخلوه يفر من إيديكم» .

ثم يلتفت حضرته إليك ويخاطبك عابثاً « وجنابك يا سيدنا الافندى تجى لى بعد المجرم ابن ... ما موت الراجل ، دا يصح ! »

— « إسمع يا شاويش على ، لست َلمثلى تقول هذا اللغو ، إنى أعرفك من حيث لا تعرفنى ، تفضل فاقرأ هذه الورقة ، ولعلك تستطيع القراءة . أرأيت ما فيها ؟ أعلمت

الآن أننى « مراقب » لكم من قِبَلِ المحافظة ، قبلت هذا العمل احتساباً لوجه مصر الكريم . إن رجال الشرطة من أمثالك يا حضرة الشاويش خزى لمصر وعار عليها . إن أمثالك من رجال الأمن أضحوكة قاسية وقد جعلوا أمتهم كذلك أضحوكة . إنك أنت مكنت الجانى من الفرار بمنديلك الذى أضعت ربع ساعة فى حشوه بما سلبت . وأضعت دقائق أخرى فى محاورة منظف الأحذية الذى لا رخصة بيده ، مراوحاً له بين الوعد والوعيد ، ليؤدى إليك ماتسميه — أمانة — وما هى إلا سلب ومهانة . و بعد فراغك يا حضرة الشاويش من هـذه الدناءات ، كنت أشد ما تكون بغضاً لإسعاف ذلك المسكين ، الذى يصرخ ما ترى من دمه . والشرطى القائم بحراسة الأمن فى هذا المكان مهمل وجبان . تفضل فسر أمامى إلى المحافظة ، وهأنذا أقبض عليك . لابد من إصلاح الشرطة فى مصر . أما هذه الحال ففضيحة وعار ! تفضل ! »

مرحى لهذا المراقب الجديد ، لو صح أنه موجود !

الصغائر المزعجة (١)

هبك أيها القارىء العزيز لا تسكن قصر الدوبارة ولا جاردن سيتى ، ولا حياً غربى النظام والآداب كقصر الدوبارة أو جاردن سيتى .

هبك تسكن « بير المش » أو « قنطرة الذى كفر » أو « كفر الزغارى » أو « سوق السلاح » أو زقاقاً آخر من أزقة القاهرة ، أو شارعاً وطنياً من شوارعها . فهل تستطيع النوم فى طرفى الليل ، أو الاستراحة والهدوء عصر النهار ؟ كلا . مالم تكن من مواليد تلك الأصقاع الذين درجوا فيها وشبوا وشابوا ، وإليك بعض البيان :

نفترض أنك من أولئك الذين لا يحبون السهر ، وأنك تؤثر الهجوع فى الساعة التاسعة من المساء ، وأنك الآن فى مضجعك لأن الساعة التاسعة قد حانت .

« طاظه يا لبن » صوت ضخم ممتد من حنجرة قوية ، لا يزال يلح على سمعك وأعصابك حتى يؤذيها أبلغ الأذى ، وقد تكون ممن لا يشتهون لبن « الزبادى » أو ممن يشتهونه ، ولكنك ملأت منه جوعتك وقت العشاء حتى لا موضع لمزيد ، فيقع منك هذا النداء موقعاً مؤرقاً أليماً .

يمضى بائع اللبن فتحمد الله وتغمض العين وتأخذك إغفاءة لذيذة ، لكنك تستيقظ بعد قليل على وقع صوت جديد حاد ، ينال من الأذن مالا تنال المسامير . « سميط طاظة » ويمضى بائع « السميط الطاظة » بعد أن تكون سخطت فى فراشك سخطاً شديداً يقع أذاه عليك وحدك ، لأن شدة السخط مجلبة للأرق . وكذلك شأن كل ما يهيج الدم فيصعد به إلى رأسك المسكين .

لكنك تنام على أية حال بعد ساعة أو نصف ، فترى فيما يرى النائم أنك مررت بأحد الشوارع فلقيت بائعين ، أحدهما يحمل فوق رأسه لبن « زبادى » والآخر يحمل سلة فيها « سميط طاظة » فتنقض على هذا تلكمه وعلى الآخر تلطمه . لكنك تستيقظ

---

(١) نشرت سنة ١٩٢٣

ممسكا إحدى يديك بالأخرى من شدة الألم ، لأنها أصابت قائمة السرير ولم تصب هذا البائع ولا ذاك .

تزداد حنقاً وسخطاً فتزداد أرقا ، وتسمع ساعة الحائط تدق الدقة الثانية عشرة فيأخذك شيء من اليأس ، ولكنك تعلل النفس بإمكان النوم من جديد . فتغمض العين مرة أخرى متوكلا على الله .

لا تسمع دقة الساعة الأولى من الصباح ، لأنك تستغرق فى النوم قبلها بقليل ، لكن ماذا نقول فى بائع « السجاير » إنه معذور ! خشى أن يكون الشيطان قد أنساك شراء اللفائف التى لا بد لك من تدخين بعضها فى الصباح بعد الإفطار . فهو إذن يوقظك من نومك رغم أنفك لمصلحتك أنت ، إذ يرفع عقيرته فى جوف الليل الهادىء مناديا « سجاير ديمترينو — ماتوسيان — من كل ماركة » .

الساعة الثانية بعد منتصف الليل — طار طائر النوم ولن يعود — تغمض عينيك ، وتتقلب فى الفراش ، تعالج الرقاد على جنبك الأيسر ، وتعالجه على جنبك الأيمن ، وتستلقى على ظهرك ، ثم على صدرك ، وتخبأ وجهك بين الوسائد — مستحيل طار طائر النوم ولن يعود .

الساعة الثالثة ! بدأ المسبحون فى الطرقات القاصدون إلى المساجد لصلاة الفجر يرفعون العقائر بترتيل آيات الذكر الحكيم ، ولولا أنك منهوك القوى معقود اللسان .
— لا مؤاخذة — من عذاب ليلتك ، لعبدت الله أنت أيضاً ولو فى فراشك ، لا سيما وأنت تسمع صوت المؤذن ينادى « الصلاة خير من النوم » مسكين ! كأنك نمت !

* * *

الساعة الرابعة من الصباح ! مازلت فى فراشك متبرماً ضجراً تود لو اكتحلت عينك بالنعاس ولو إلى الساعة السابعة . لكن أنى لك هذا ؟ إن زلازل العربات « الكارو » قد بدأت ترج أركان غرفتك وتصدع — لا مؤاخذة — أركان رأسك الملتهب . وناهيك بعربات نقل الأحجار . ثم تمضى الساعة الخامسة وأنت هكذا ضائق بنفسك وبالحياة ذرعاً ، إلى أن تسمع حوالى الساعة السادسة امرأة تنادى

« ياللى عنـدها نخالة» ؟ تمضى تاجرة « النخالة » ويعقبها مناد جهير الصوت يطيل المد والتغنى « غلة للوابور » — يمضى موفد « الوابور » فيتلوه ذلك الصوت الرنان « سبيرتو » — ثم « الجاز الأمريكانى » — ثم « رشيدى ياملح » — ثم ينفد صبرك بحق فتهب من سريرك فى الساعة السابعة و بينك و بين « أولئك السيطة » ثأر لن تدركه و باللأسف أبداً .

أصبحت بالطبع مضطرب الأعصاب يزعجك وقع قبقاب الخادمة على سلم البيت ، ويزعجك من يقول لك « نهارك سـعيد » لا سيما و لم تكن ليلتك سعيدة ، فأصبح من الراجح بحكم أعصابك ألا تقضى نهاراً غاية فى السعادة .

تتناول شيئاً من « الفول المدمس » — لا مؤاخذة — إن كنت من عشاقه ، أو أى لون آخر مما يطيب لك ، ولـكن شهيتك هـذا الصباح ضعيفة . ما علينا . تلبس « بدلتك » وتصلح من شأنك و إن دلتك المرآة على أن محياك اليوم حائل اللون بعض الشىء ، ولـكنك ترجو أن يعود إليك إشراقك ونشاطك إذا فررت من هذا السجن المزعج ، إلى الهواء الطلق خارج المدينـة ، فإن اليوم يوم جمعـة ولن تذهب إلى « الديوان » .

تغادر البيت وفى نيتك أن تعتاض من عبوس ليلتك بابتسام نهارك . بل تذهب إلى حد الغناء لنفسك همساً ، أو بعبارة أوضح تتكلف « الدندنة » لـكن لايخطر ببالك ، لسوء الحظ ، أغنية سوى قول الشاعر « لم يطل ليلى ولـكن لم أنم » فتذكر الليل وتذكر النوم وتذكر الأرق ، وتضرب الأرض بقدمك من شـدة الغيظ ، ثم تستأنف المسير حتى تبلغ « باب الخلق » فتركب الترام قاصداً إلى « روض الفرج » و إنما تختار هذه الضاحية تفاؤلا باسمها ، عسى أن يفرج الله عنك مابك . تدخل عربة الدرجة الأولى فتجد فيها ستة من الركاب قد اختص كل ثلاثة منهم بجانب ، فتنتظر أن يفسح لك بعضهم مكاناً ، لأن العربة جعلت لثمانية ، فلا يتحرك « البكوات » ولا يستحون، وأنت متعب، ولو أطاعت يدك ماتثيرك إليه أعصابك، لامتدت إلى وجه بعضهم بسوء ، ويكون لك بعض العذر! غير أنك تملك غضبك وتسألهم : هل أستطيع

الجلوس ؟ فيتزحزح أحدهم قليلا فى تثاقل مرذول ، كأنك تسلبه مكاناً فى سيارة أبيه. وأخيراً تجلس . وأصحابنا ينظرون إليك شزراً كأن عيونهم سهام . كل ذلك لأنك تقاضيتهم حقاً وكلفتهم فى سبيله حركة . وما أكثر الذين يضنون بحقوق الناس ولو كانت يسيرة ، و يبغضون أن يتكلفوا فى سبيلها حركة ولو كانت هينة .

ثم لا تستقر فى مكانك حتى يصعد سلم الترام رجل بادن يسد بجسمه الضخم باب العربة ، ويحجب عنك الهواء الذى نزلت فى طلبه . ثم هو لا يجلس ولا يزول ، حتى يجىء العامل فيسأله ثمن التذكرة ، فيجيبه فى عنف من يريد العراك « نازل فى المحطة الثانية » .

العامل : « ولو — لا بد من ثمن التذكرة » .

المتطفل : « مفيش ! » ثم يصفر العامل فيقف الترام . وما هى إلا لحظة حتى يمسك كلا الرجلين بتلابيب الآخر ، و بعد زمن غير قصير يصل الشرطى ، فينزل المتطفل وهو يسب الترام وأصحاب الترام وركاب الترام ، فتختنق أنفاسك من هذا البلاء المتواصل ، وتزهد فى « روض الفرج » — وتترامى منهوك القوى على أول مقعد فى أول مقهى يصادفك ! ... مسكين !

البرلمان المأمول [1]

مواطن الألم فى بلادنا كثيرة . أدر ناظريك حيث شئت ، فهل ترى إلا متبرماً ضجراً ؟ لماذا ؟ لأن المصريين طال عليهم عهد من الحكم هو إلى القلق والفوضى أدنى منه إلى الطمأنينة والنظام .

كان طالب العلم فيما مضى موفور النشاط ، عاكفاً على الدرس والتحصيل ، حتى إذا انفسحت له ميادين الحياة بعد تمام الدراسة ، وكان به نزوع إلى الأعمال العامة ، ولج أبوابها مستكمل العدة ، فإذا هو رجل ناضج فى عداد الرجال .

أما اليوم فشأن الطلاب غير هذا ، وعذرهم واضح . فإن الرجة العنيفة التى أصابت مصر على أثر إعلان الحرب الكبرى (سنة ١٩١٤) لم تدع قلباً مصرياً إلا تركت فيه أثراً عميقاً . فالنساء فى الخدور ، والشيوخ على أبواب الآخرة ، والشباب فى المدارس وفى غير المدارس ، وفى أكبر المدن وفى أصغر القرى ، كل أولئك قد شملهم تيار عنيف من كهرباء الهزة القومية ، لم تدع الطالب طالباً فحسب ، ولا المعلم معلماً فحسب ، ولا الموظف موظفاً فحسب ، بل أصبح كل مصرى مهما تكن سنه ومهما تكن صناعته ذا قلبين ، أحدهما متجه إلى السياسة ، والآخر متجه إلى عمله .

ولسنا نستنكر من أبناء مصر المشتغلين بمختلف الصناعات والمهن عنايتهم بالمسألة السياسية الكبرى . وإنما نقرر أن الاشتغال بالسياسة غلاب على الاشتغال بغيره من الشئون ، حتى لتجد هذه الظاهرة بارزة فى عهدنا الحاضر بين الطلاب . وفى هذا بالطبع استنفاد لحيوية الفكر ، التى لولا شذوذ موقفنا السياسى لانصرفت إلى وجوهها الملائمة لعهد الصبا من تحصيل المعارف وتكوين الأخلاق . وإذن لأصبح النشء المصرى بعد حين ، جيل مصر المتأهب للحياة القادر على احتمال عبئها فى غير عجز ولا قصور .

والمعلم إذا ألفى تلاميذه منصرفين عن الدرس غير جادين فيه ، أورثه ذلك بعض السآمة واليأس ، فلا يلبث أن يلقى عليهم « المقرر » فى شىء من التكلف قد يطول

---

(١) نشرت فى سنة ١٩٢٣

به العهد ، فيصير عادة وخيمة العواقب . والفرق شاسع بين المعلم إذا أقبل عليه تلاميذه يستقون من مورده فى حرص وشغف ، وبينه حين يجرعهم تجريعاً وهم عنه فى شغل شاغل .

هذا شأن كثير من طلاب العلم فى مصر اليوم ، وشأن كثير من المعلمين . لكن الزارع والتاجر لهما شكاة أخرى من غير هذا الطراز . يشكوان كساد الحاصلات وخمود الأسواق ، ويعزوان ذلك إلى إهمال ولاة الأمور وقلة حرصهم على مرافق البلاد . والحق إن الحكومات المصرية لم تظهر يوماً من الأيام عناية صادقة بحماية الحاصلات ولا بتشجيع التجارة أو الصناعة .

وأول جهد فى هذا السبيل إنما هو المبلغ الذى دفعته وزارة المالية إلى بنك مصر يتولى توزيعه قروضاً على أصحاب الصناعات الناشئة . فأما تأليف النقابات المنظمة الثابتة ، وأما حماية الحاصلات من ذوى المطامع والجشع من تجار الصادرات ، وأما تسهيل القروض الصغيرة على الفلاح المسكين بفائدة قليلة معقولة — فذلك ما لم تصنع حكومة مصرية فى سبيل تحقيقه شيئاً . فلا غرابة أن يكون الزارع والتاجر ، وهما سواد المصريين ، فى ضنك شديد .

والموقف السياسى الذى تقفه البلاد ليس مما يسهل معه تذليل هذه العقبات . فإن وزارة مصرية تذهب ووزارة تجىء ، وهمها منصرف إلى شىء واحد هو المسألة السياسية الكبرى . وليت الوزارات تنزل فى هذه المسائل الكبرى على ما يريده الشعب بل كثيراً ما تتخذ وجهة مناقضة لما يريد .

هذه حال الطالب والمعلم . وحال التاجر والزارع . لكل طبقة من الأمة نوع من الشكوى وسبب إلى القلق .

وفى مسائلنا العامة . هل تولت وزارة مّا شئون مصر ، فأرضت الشعب بسياستها إرضاء يحقق آمالا ؟ كلا ! إنما هى فروق بين درجات التقصير ، لا تنافس فى المراتب العليا من الخدمة القومية التى ترضى المصريين ! وإذن ، فما هو الدواء لهذه الأدواء الكثيرة المتشعبة ؟ كيف يكون الطالب طالباً حقاً والمعلم معلماً حقاً ؟ وكيف تتوافر

للزارع والتاجر أسباب الطمأنينة والرفه ؟ وكيف يثق المصريون بحكومتهم فلا تتولى أمور البلاد إلا عن رضاهم ، ولا تصدر إلا عن إرادتهم فيما جلّ وهان من شئون البلاد ؟ كيف تتولى الأمة شئون الأمة ، وكيف تحسن رعاية مرافقها وتربية بنيها وترفيه الآلام عن كل طبقة متألمة ؟

هل أنت بحاجة إلى جواب عن هذا السؤال ؟

أليس تأليف البرلمان هو وحده دون سواه منقذنا مما نحن فيه ؟ إنه لكذلك وأيم الحق — ولكن على شرط — على شرط أن يكون أعضاء البرلمان رجالا قادرين على احتمال العبء بما فى رءوسهم من حكمة ، وبما فى صدورهم من إخلاص .

فخر النيابة (١)

الانتخابات عند كثير من الناس ميدان تنافس فى الوجاهة والنفوذ ، لا ميدان تنافس فى الكفاءات والمواهب . يشق على فلان أن يكون واسع الرحاب خصيب الجناب موفور الأموال كثير « الأطيان » — ثم لا يكون عضواً فى أكبر هيئة نيابية فى البلاد . فإذا أتاح لك القدر أن تحدثه فى الشئون العامة ، ألفيته خلواً من إدراك الأوليات التى لا بد منها لكل نائب يريد أن يكون ذا رأى وصوت فى البرلمان . وإذا أمعنت فى بحث الدافع الذى يحدو به إلى الدخول فى المعركة الانتخابية ، كان دهشه منك فوق دهشك منه . ذلك أنه يرى الانتخابات مباراة يتكافح فيها الوجهاء والأعيان ، كل يحب لنفسه السبق والتبريز ، كالسباق فى الحلبة لا أقل ولا أكثر . وليس معقولا عنده أن تعلن المباراة ثم ينكص على عقبيه . وهل يكون ذلك إلا اعترافا منه بأن غيره من أهل الإقليم أرجح منه وزناً وأعلى شأناً ، وأولى بمظاهر المجد وألقاب الفخار والزهو ؟ والاعتراف بهذه الهزيمة شين لاحق بكرامة البيت العظيم الذى يتولى صاحبنا زعامته ! بيت « أبى فلان » لم يتقدم منه أحد إلى البرلمان ، أو تقدم ولم ينجح ! عار لا يطاق . إذن لا بد لهذا المجد الأثيل من مقعد فى البرلمان بجهل أو بعلم ، بحق أو بباطل .

وهل يجوز أن يكون « فلان » افندى « ابن امبارح » والذى لا يملك ضيعة واسعة ، ولا نعمة ضافية ، ولا يزدان اسمه بلقب ولا صدره بوسام — أيجوز أن يكون هذا الأفندى الذى لا ميزة له سوى أن بيده شهادة يقولون إنها شىء ، أوله إلمام بما يسمونه معارف وعلوما ، أيجوز أن يكون هذا عضو البرلمان عن دائرتى أنا — أنا صاحب الألف من الأفدنة الخراجية السلطانية ، أنا صاحب العزة أو السعادة ، أنا صاحب « الدوار » المفتوح لكل طارق ، وصاحب الكبش المذبوح لكل ضيف ، وصاحب الجاه بين جيرانى والنفوذ بين أجرائى وعمالى ، — أهذا هو ما يريد منا

---

(١) نشرت فى سنة ١٩٢٣

العهد الذى يصفونه بالجديد ، والنظام الذى يسميه بعض « المتحذلقين » ديموقراطيا ! ما شاء الله ! لا يا عم ! القديم على قدمه . و إن كان لا بد من التغيير والتبديل فليكن ذلك بعد دهر مديد وعمر طويل .

***

لسنا فى تصوير هذه الحالة مسرفين . بل هو الواقع بعينه فى بعض بلاد القطر وعند بعض أهله ممن أخذوا من المدنية مظاهر كثيرة ، ولكن نفوسهم ما زالت على حالة شبيهة بالبداوة الأولى . ففى بيوتهم الزخارف والرياش ، وطاسات من الذهب وأسرة من الفضة ، ولكن فى قلوبهم خلاء من المعانى الحديثة التى يفهمها الغربيون حين يذكر لفظ « البرلمان والانتخابات » — ولا يعرفها أصحابنا حق معرفتها أو يقدرونها حق قدرها . إنما هى عندهم وسائل إلى الفخر وسبل إلى « الظهور » كائناً بعد ذلك ما يكون من عجز وتقصير .

على أن الذى يسرنا و يسرك أيها القارئ الكريم ، أن هذا البعض الذى أشرنا إليه قليل إذا قسناه بالعدد الجم من أهل الفضل والفطنة . وليس كل ذى ثروة أمياً . ولا كل ذى جاه ومكانة جاهلا بالشؤون العامة . وأكثر الذين يؤنسون من أنفسهم عجزاً عن النهوض بأعباء النيابة من أعيان البلاد ، قد يجتنبون المعمعة المقبلة ، وقد يكون لهم من أبنائهم أو قرابتهم أو من أهل بيت آخر نائب ، إن لم يكن من أغنياء المادة ، فإنه من أغنياء العقول والعواطف والهمم .

من أجل ذلك لا نتطير بل « نتفاءل » خيراً . ونعتقد أن مجلسنا النيابى المقبل لن يكون دون المجالس النيابية الغربية بكثير إن لم يماثلها . ولن تمضى إن شاء الله إلا أعوام قليلة حتى يضارع جمهورنا جمهور أوروبا معرفة بالشئون القومية . وحتى يكون أغنياؤنا كأغنيائهم وأعياننا كأعيانهم ، دقة فهم للمسائل العامة ، وشدة غيرة على المصالح العامة .

نحن المصريين : لا نقل عمن سوانا من شعوب الغرب ذكاء وحسن استعداد . فإذا خطت أقدامنا على النهج القويم بضع خطوات ، ألفنا النهج القويم ، واشتد

مضينا فيه ، غير ضالين ولا واهنين ، كالسهم تحسن تصويبه ثم ترمي به الغرض فتُصْميه . كذلك المصريون سيحسنون انتخاب النواب . وسيحسن النواب خدمة البلاد . وسيصلون إلى ما يبتغون لمصر من حرية مطلقة واستقلال كامل الأركان .

فإذا تمّ لهم ذلك إن شاء الله وشاءت هممهم العالية ، لم يكن استتمام استقلالهم سوى سلم إلى مجد فوقه مجد فوقه مجد .

العاطفة «المتنجرة»[1]

هو شاب كريم الطبع ، حلو الشمائل ، من أسرة عريقة النسب واسعة الثروة ، عزيزة الجاه . لم يفسد الترف سجاياه على ما يظهر . ليس بنفور من البحث فى معضلات المجتمع وأمراضه . ولِعٌ بقراءة القصص فى اللغات الغربية ، يعجبه منها ما كان تصويراً بليغاً للآفات الاجتماعية . ويعجبه من أنواع البطولة القصصية ما كان مداره النجدة والرحمة والإحسان .

كنت أجد لذة عقلية فى محادثة هـذا الشاب ، وكنت أشعر كأنّ الكامن فى نفسى من عاطفة الإشفاق على الإنسانية المعذبة — ينبعث قوياً ملتهباً كلما استمعت إليه وهو يصف أهوال الحرمان الذى تعانيه الطبقات الفقيرة ، وأهوال العلل الجثمانية والخلقية التى يجرها الفقر على أولئك التاعسين . وعلى الجملة ، كان صاحبى يرثى النظم الاجتماعية الحديثة كلما جلست إليه رثاء محزناً ، تكاد تنحدر له دموعه ودموعى أنا أيضاً .

سحرنى جمال هذه النفس الرقيقة الحساسة ، وقلت إن فى شباب مصر لخيراً يرتجى .

ولما أن وجد صاحبى منى أذناً مصغية وعاطفة مشتركة ، ازداد إقبالا على مصاحبتى وتبسطاً إلىّ .

لكن بقى شىء لم أفهمه من خلائق الفتى . إنه جميل طوايا النفس ، جميل الرغبات ، جميل الأمانى والأحلام — أحلامه لا تدور حول نفسه بل حول الفقراء والمرضى والمساكين . وأكثر همه الشكوى من تلك الهوة السحيقة التى تباعد بين الأقوياء والضعفاء ، وبين الأغنياء والفقراء ، وبين السعداء والأشقياء . فماذا يمنعه إذن من أن ينتظم فى سلك المصلحين لهذه المعايب المداوين لهذه الآفات ؟ فإذا لم تكن فى مصر جماعات منظمة من العاملين لهذا الغرض الأسمى ، فلماذا لا يبدأ هو فيتبعه الناس ، أو لماذا لا يقوم هو بنصيبه ولو كان فريداً .

لكن لم تكن صداقتنا بلغت المبلغ الذى تسقط معه الكلفة . ولست أحب الهجوم على الرفاق أسائلهم : ما سر تقصيرك فى هذا الأمر وما سر تقصيرك فى ذاك . لاسيما وصاحبنا مرهف الحس ، فأخشى أن يقع منه سؤالى موقعاً يسوءه .

---

(١) نشرت سنة ١٩٢٣

وفى ذات ليلة لقيته فى « سولت » حوالى الساعة التاسعة ، فرجا منى إن لم أجد بأساً أن أرافقه إلى دار من دور الصور المتحركة ، لأشهد معه قطعة عنوانها « الشقاء » قال إنها مؤثرة تمثل مساوىء المجتمع فتستبكى العيون ، ولم أكن مشوقاً إلى البكاء من مشاهد السينما لأن بكاءنا — والحمد لله على السراء والضراء — من مشاهد الحياة متصل لا يكاد ينقطع ، لكنى طاوعته لأنه رقيق وحساس .

و إنَّا لنى بعض الطريق بشارع عماد الدين حيث «العربات» تزحمها السيارات والسيارات يزحمها « المترو » وحيث الأنوار الساطعة والجموع المائجة ، هذا إلى الكوزموجراف وذاك إلى « الراديوم » وآخر إلى « رمسيس » وغيره إلى الكسار ، وحيث الملاهى متنافسة على ساق وقدم ، ومشارب الخمور والمقاهى متقابلة فى الصفين ، غاصة بالجلوس فى هذا الحى الصاخب بعجيج المباذل والملاهى ، بين ممجوج ومقبول ، و إذا صرخة تندّ من غلام لم يبلغ العاشرة ، داسته قدم عابرة ، فأزعجته . وكان المسكين مستلقياً إلى جنب جدار فى ناحيةٍ من الطريق إعياءً ووهناً ، غلام عارى البدن إلا من بقية خرقة بالية . وكان الفصل شتاء وأسنان الغلام تصطك وجسمه يرتعش وعيناه معان ، فيهما ذلة وفيهما ضراعة ، إلى هذه الدنيا الضاحكة حوله وهو يبكى ، يبكى من جوعه وعريه و برد الشتاء وثلج القلوب .

نظرت إلى الغلام ثم إلى صاحبى ، ثم إلى صاحبى ثم إلى الغلام ، وحدقت فى صاحبى مرة ثالثة أريد أن أتبين فى وجهه مبلغ تأثير هذا المشهد فيه ، فلم أر شيئاً ، بل تعجّلنى إلى دار الصور لأشهد معه « رواية الشقاء » !

عجبت ! وحزنت ! ظهر لى فى تلك الساعة ما قرره علماء النفس من أن بعض الطبائع مرزوء بتبخر العواطف الطيبة .

يبكى صاحبنا إذا قرأ رواية فيها تصوير خيالى للشقاء . ويبكى إذا شهد رواية الشقاء على المسرح أو على الشاشة البيضاء .

لكن الشقاء الحى الماثل أمام العيون ، الشقاء الذى ينخر عظام المجتمع المصرى فى عاصمة الديار المصرية وفى أحشد شارع من شوارعها — ذلك لا يحركه ولا يؤثر فيه .

أيها الشباب من أبناء مصر ! من كان منكم ذا عاطفة طيبة فليتخذ منها دافعاً إلى عمل طيب !

القناعة فضيلة (١)

إخوان ثلاثة أتموا الدراسة العالية منذ عشر سنين : مهندس رى ، وطبيب مركز ، ومحام فى الأقاليم ، ما زالوا إلى اليوم أصدقاء كما كانوا أيام الدراسة ، وقد جمع الزمان بينهم هذا العام فى مقر واحد . ذلك أن وزارة الأشغال نقلت المهندس إلى حيث يشتغل صاحباه .

فاحتفاء بمقدم صديقهما ، أولم الطبيب والمحامى وليمة عشاء يتخلله و يتلوه شراب ، ورأيا أن أحظى بأنسهم فحظيت ، لأن لى سابق معرفة بأشخاصهم منذ كنا طلابا بالمدارس الثانوية .

فأما الطبيب ففى نعمة واسعة ، لأن الأمراض فى الأقاليم ليست قليلة ، ولأن المعارك التى تنشب بين أهل القرى لأتفه الأسباب ، فتشج فيها الرءوس وتهشم العظام وتسيل الدماء — ليست نادرة الوقوع ، ولبعض الأطباء سلطان على الجريح والمشجوج والمهشوم ، سلطان يتصل بمدة العلاج طولا وقصراً ؛ والمصاب يحب الإطالة رغبة فى تضخيم الجريمة أمام القضاء !

أما المحامى فكذلك فى رخاء ، لأن الشجة التى يداويها الطبيب ، لا بد أن يتولى المحامى وصف شناعتها للمحكمة ، و إن استطاع أن يجعل منها بساطع برهانه « عاهة مستديمة » فعل ، ثم لا تنس أن الخصومات المدنية من تزوير وتهريب ودين ممطول ، وحجز يعقبه استرداد ، واسترداد يتلوه حجز — كل هذه لا تقل فى الأقاليم انتشاراً عن الأمراض المتوطنة ، فإن كان الطبيب أوسع رزقا من المحامى ، فلأنه الطبيب الرسمى الأوحد ، أما المحامون فى عاصمة المركز فكثير .

وكان المهندس كثير النفقات . ولست أدرى أله مصدر للرزق آخر ، أم يستدين !

فرغنا من العشاء فتحولنا إلى حجرة الجلوس ، واستأنف الإخوان رشف المدام ، لكن بقدر مقدور أحدث فيهم نشوة سرور . والنشوان كثير الكلام ، ولكن

---

(١) نشرت سنة ١٩٢٣

عن شعور لا عن تكلف ، فلا غرابة أن تكون هذه الحالة النفسية أصلح الأحوال لاستبانة ما يختلج فى قلب صاحبها من عاطفة أو يستهويه من أمل .

وكان المحامى أكثرهم كلاما ، وأجهرهم صوتاً ، وأعنفهم إشارة بيمناه ويسراه . ولقد أراد أن يضرب بيده مائدة الشراب توكيداً لكلمة قالها : « الثروة ، الثروة قبل كل شىء ! » فتحطمت الكأس تحت يده ، وشقت إحدى الشظايا كفه فأدمتها ، ولو أن هذه المأدبة كانت فى غير منزل الطبيب لخرجنا نلتمس لكف صاحبنا ضِماداً .

ثم أخذ المحامى مكانه وقد زايلته النشوة قليلا ، لكنه استمر يقول ، موجهاً إلىّ الخطاب : « هل تعجب أن ترانا غير عاكفين على الدرس والتحصيل ؟ وفيمَ وعلامَ ولمَ الدرس والتحصيل ؟ أمحامٍ أنا أم مؤلف فى التشريع ؟ أطبيب كالأطباء هذا أم يريد أن يكون « باستور » الثانى ؟ أمهندس كالمهندسين هذا الآخر أم يريد أن يكون ويلكوكس ؟ . . . القناعة فضيلة . . . خصوصاً فى العلم ! » ثم ضحك ، وقهقه صاحباه !

أما أنا فابتسمت ابتسامة الأسف ، ورجوت أن لا يكون هذا الطراز من فهم الحياة متفشياً فى الجيل المأمول .

فرح عظيم [1]

كان أمس فى الحى الذى نحن فيه « فرح » : عروسان آن لهما أن ينعما باجتماع الشمل فاجتمعا . إنهما من بيتين يسبحان فى بحار الثروة . أتدرى كيف عرفت هذا ؟ الأمر بسيط . أحصيت المصابيح التى أقاموها على جانبى الطريق للزينة فوجدتها مائة مصباح من تلك « الفوانيس » الفخمة الضخمة التى تنظر أضواءها من بعيد فيخيل إليك أنها قطع من الشمس تساقطت فأحالت الليل فى هذا الحى نهاراً .

ثم شرعت أحصى ثريات الكهرباء ، فلما بلغت المائة الخامسة أتعبنى العد ، لأن تألق أنوارها ردَّ عينى كليلة . تركت إحصاء هذه الكواكب المصنوعة إلى إحصاء الأرائك المصفوفة ، والزرابى المبثوثة ، والكراسى المطلية بأمواه الذهب ، المفروشة بألوان الخز والحرير ، أحصيت منها ألفاً أو تزيد . وقد ضربت حولها قباب بديعة الصنع مترامية الأطراف لا يكاد البصر يدرك مداها .

وآلات الموسيقى أيها القارىء العزيز تصدح لك بالتحية إذا دخلت السرادق ، فيخيل إليك أنك فاتح عظيم ، تستقبلك الموسيقى الحربية بأناشيد الظفر . وصدقنى . ربما أحسست فى نفسك شيئاً يسيراً من الزهو حين تدخل محفوفا بهذه الحفاوة الصادحة لولا أنك تذكر فى طرفة عين أنك أنت أنت ولست أدهم باشا ولا مصطفى كمال .

وعلى موائد الطعام . عفواً : أريد « البوفيه » عشرات من الضأن ، « وعشرونات » من الديكة الرومية ، « وخمسونات » من الدجاج ومئات من الحمام والسمان ، وألوف من العصافير ، و ... كم من الدنان ، وكم من الكؤوس ؟ شىء لا يحصيه العد .

كان شعورى حين رأيت هذا الذى أردت أن أصف لك ولو بعضه فلم أستطع ، شعوراً مزدوجا . مئات من الثريات والمصابيح تملأ العيون نوراً ولكن تملأ النفوس ماذا ؟ أما نفس من يحدثك هذا الحديث فقد امتلأت عطفاً على العروسين وحبا

---

(١) نشرت فى سنة ١٩٢٣

لهنائهما ، ولكن يمازج هذا الشعور شعور آخر ، هو وُدّى لو أن بعض هذه الألوف من النيِّرات كانت تضىء الليلة مئات من الأكواخ المظلمة التى يطلب أصحابها ثمن مِسرجة ، أو ثمن زيت يوقدون به المسرجة فلا يجدون !

إذن لمَا ضاعت نفقات هذه الأضواء سدى كما ضاعت أمس ، و إذن لسرتْ أشعة من هذا « الفرح » العظيم إلى بيوت مئات من المعوزين بل إلى قلوبهم . نعم . ولو أن الأموال الطائلة التى أنفقها آل العروسين فى إطعام الأغنياء من سراة المدينة ، كانت أُنفقتْ فى بعض الملاجىء ، لكان هذا القران السعيد مصدر سعادة أخرى لمئات من المعوزين الذين هم بحاجة صارخة إلى المأوى والطعام .

وما كان ذلك ليضر حضرات المدعوين من وجهاء القاهرة شيئاً ، لأنهم يجدون فى بيوتهم وفى « شبرد » و « الكونتننتال » مثل الذى أكلوا وشربوا أمس فى « البوفيه » .

ترى متى يمسك مواطنونا عن تبذير أموالهم فى مفاخر ليس فيها من فخار !

ومتى يكتفى العروسان بحفلة سرور من الأهل والأقربين فى غير « مظاهرات » ولا مباهاة بالترف والإسراف . فإذا كان لا بد من المباهاة ، ففى ميدان البر والعمل النافع ، — .

متى أيها المواطنون !

« النكتة » اللاذعة (١)

قال بعضهم تعريفاً لموهبة « النكتة » «انها الفن الذى ينفّر منك الناس» .

ولا ريب فى أن اشتهارك بالنكتة اللاذعة من أشد العوامل على استيحاش الناس منك . ذلك أنه على الرغم من إعجابنا بذوى الخواطر الحادة السريعة ، فإنا نخشاهم .

ولا أنكر انك تحس لذة خاصة حين تبدى ملاحظة ساخرة رائعة . فإن لضحك السامعين من « نكتتك » وقعاً حسنا فى نفسك . ونظراتُ الإعجاب التى يرسلها إليك الحضور تبعث فيك اغتباطا بموهبتك . وما أسرع ما تكون أنت محور المجلس ومركز الدائرة . لكنك تشترى هذا كله بثمن باهظ هو إغفالك حسن العشرة والمجاملة .

إن شعور المرء بسلطانه على من حوله شعور لذيذ . ولعل ألذ أنواع هذا الشعور قدرتك على أن تبهرهم فتحملهم على الضحك .

لكن لا ينبغى أن تنسى أن بعض الضحك مر المذاق . وشر السموم ما كانت خميرته السخرية .

لذلك ترى بعض نوابغ « النكتة » فى شقاء كلما اقتربت منه نهاية الحياة . يجد نفسه منبوذاً ، بينما الرجل الرصين الفهم يحيط به الأصدقاء المخلصون .

والسبب واضح . لقد أحرق نابغة « النكتة » خيوط الصداقة والمحبة بنار حرصه على إحراز الإعجاب .

عرفتُ واعظا كان أسرع أهل القرية خاطراً وألذعهم « نكتة » فلم تكن تقام حفلة إلا دُعى إليها .. وكانت عباراته التى يقولها على البديهة مثار ضحك لا ينقطع . ونكاته يتناقلها الرواة . والسامعون يُطرونه ويشيدون بموهبته .. وذات يوم هفا هفوة

---

(١) معربة عن البالى مال جازيت .

فى شئون كنيسته ، فما كان أشد ذهوله وغمه حين عرف عدد أعدائه وشدتهم . فقد هبّ الرجال من أما كنهم هبة رجل واحد ، وهبت النساء هبّة امرأة واحدة ، ثم جذبوه قسراً من على المنبر . أسفتُ لحاله إذ كان طيب القلب — لكنه اشترى مزماره بثمن باهظ .

كثيراً ما يكون اصطناع النكات اللاذعة غطاء لطبيعة حساسة . أما ذوو الطبائع الصُّلبة والعقول الرصينة فقلما يرغبون فى الاشتهار بالنكتة . إنما هو القلب الرقيق الخفاق ، يريد أن يوارى ضعفه بتصويب سهام حادة حامية إلى من حوله .

* * *

قليلا ما تكون المرأة ذات اللسان الذرب محبوبة .

ليس ذوو المواهب العادية موضع إعجابنا ، ولكنهم مع ذلك موضع حبنا .

وهذا هو السر فى أن الفتاة الذكية الفؤاد السريعة الجواب الفياضة بروائع الكلم ، كثيراً ما تراها مهملة ، بينما يختار الشاب لنفسه زوجة أسيلة الخد عادية المواهب ذات دل ووفاء .

فإذا مُنى إنسان بحدة الذهن وتوقد الفؤاد ، فليكن من همِّه أن لا يرسل « نكتة » موجعة تثير الموجدة .

إن انتقام البلداء شديد مروّع .

قد ترتكب الخطايا على مشهد منهم فيعفون عنك . وقد تخدعهم فيصفحون . أما إذا صوّبت إليهم سهم ابتسامة ساخرة ، فإنهم لا يصفحون ولا ينسون .

إذا ضحكت منهم ، أو أضحكت منهم آخرين ، فذلك هو الذنب الذى لا يغتفر .

تربية الأخلاق فى المنازل (1)

جان جاك روسو

أصاب جان جاك روسو حين فزع إلى الآباء والمعلمين ينعى عليهم طريقتهم فى تربيـة الأطفال لعهده . لأنهم كانوا فى ذلك العصر يتخذون من الطفل شبه آلة ميكانيكية يسيرونها كما يشاءون لا كما تشاء مصلحة الأطفال . فكانت أوامر الآباء والمعلمين ونواهيهم ، وشدة استبدادهم بأولئك الصغار المساكين ، وما يريدونهم عليه من تعاليم لا يفهمون حكمتها ولا مغزاها ، ومن حشو للعقول لا يدركون نفعه ولا غايته ، كان هذا كله أمراً مألوفاً فى كل منزل وفى كل مدرسة ، وكان مصدره الجهل بنفوس الناشئين وما تقتضيه أطوار نموهم من أناة ورفق ومن فطنـة وعطف ، وكان مصدره كذلك جهل القائمين بأمر التربية ، إن الطفل لا تنمو نفسه ولا ينشط عقله ولا تسمو أخلاقه إلا إذا جاء الوازع من داخل نفسه لا من خارجها ، ومن أعماق ضميره حين يستيقظ الضمير رويداً رويداً بشىء قليل من الإرشاد الحكيم وشىء كثير من الحرية الشخصية يستمتع بها الأطفال .

ثار روسو على ضلالات العصر فى شأن التربية فعادت ثورته على أساليب رعاية الأطفال بنفع عظيم . وهو نفع ما زال علماء التربيـة يعترفون به ويأخذون بكثير من الوسائل المؤدية إليه كما أشار بها روسو .

لكنه أفرط حين أراد أن ينشأ الطفل نشأة فردية بحتة فلا يخالط أمثاله من صغار نوعه وذرارى البيئة التى هو منها . فجاء « أميل » وهو الطفل الذى أراد روسو أن يجعله نموذجاً ومثالا للتربية الصحيحة ، جاء طفلا صناعياً نشأ نشأة لا تسمح الطبيعـة ولا شؤون الحياة الواقعة بمثلها مهما عانى الآباء وولاة التربية فى أى عصر أو بلد .

على أنه إذا أمكن الجرى على هذه الوتيرة الفردية الموحشة فى تربية الطفل ، لما كان ذلك من المصلحة فى شىء . إذ ليس من مصلحة الطفل نفسه ولا من مصلحة الجماعة التى

---

(1) ألقيت فى نادى المعلمين العليا سنة ١٩٢٥

ينتمى إليها أن ينشأ فى عزلة عما حوله من ظروف الحياة ، وفى عزلة عما حوله من طبائع النفوس التى سيضطر إلى ملابستها والعيش بينها يوماً ما قرب أو بعد . والطفل لم يخلق لنفسه فحسب . ولا هو وحش من وحوش الغاب يسعى لصيده فيأكل ولمائه فيشرب كائناً بعد ذلك ما كان . بل من الوحوش ما يتعاشر ويأوى إلى الآجام زرافات ، ومن الطير ما يطير أسراباً ويقع إلى مرتزقه فى الأرض أو الشجر أسراباً .

وهنالك أغلاط أخرى وقع فيها روسو لا يتسع المقام الآن لذكرها . وإنما الشىء الذى يعنينا فيما نحن بسبيله من القول هو أن روسو على رغم إسرافه فيما رمى إليه من هدم لكل قديم ودعوة صارخة إلى كل جديد ، ورغم قوله أن القاعدة فى توخى الصواب هو أن تنظر فى كل ما يجرى عليه أهل العصر فإن خالفته كله بحذافيره فقد وفقت إلى الصواب ، على رغم هذا الإسراف فى الهدم ، وهذا الإسراف فى التجديد قد نجح نجاحاً باهراً ووفق توفيقاً عظيما . ذلك أنه استطاع اختراق الآذان إلى القلوب فأيقظ أهل جيله من كل بلاد العالم المتمدين إلى أن التربية بحاجة شديدة إلى الإصلاح . ومنذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا أخذ العلماء والمعلمون والمستنيرون من الآباء يوجهون هممهم وهممهم إلى العناية بشؤون التربية . حتى لقد أفرد علماء النفس كثيراً من جهودهم وأوقاتهم لدراسة نفوس الأطفال وأطوار نموهم دراسة بعيدة الغور واسعة المدى . وأخذ رجال التربية يفاضلون بين الأساليب المختلفة ويكثرون التجربة والاختبار . فمن أعظم علماء النفس الذين عكفوا على دراسة أحوال الأطفال « هربرت الألمانى » وقد أفادت بحوثه ودراساته رجال التربية أعظم فائدة . ومن رجال التربية الذين عكفوا على التجربة والاختبار « بستالوزى » الألمانى وتلميذه «فروبل» فأثمر اختبارهما فى هذا الحقل الجديد ثمرات قيمة .

عقاب الأطفال

كانت العصا أداة الآباء والمعلمين لا تكاد تفارقهم فيما يزعمونه تربية للأطفال . فإذا خالف الصغير أمر أمه أو أبيه عجلا إليه بهذه الإداة ، أداة الإرهاق والتعذيب ، وإذا تخلف المسكين فى حفظ درس أو « تسميع » قطعة من المحفوظات ، كانت العصا مفزع المعلمين . فكان التخويف والتربية مترادفين ، وكانت الرهبة لا الرغبة قاعدة المدارس والبيوت .

فلما نهض المصلحون نهضتهم التى أشرنا إليها أخذ الترغيب يحل محل الترهيب ، وأخذت المحبة تحل محل القسوة والإرهاق . « وهربرت » الألمانى هو أول من درس « شعور الرغبة » فى الأطفال وهو ما يطلق عليه علماء النفس بالإنجليزية والفرنسية لفظ «Interest» . قال : إنه لا سبيل إلى امتلاك مشاعر الطفل ولا إلى ضمان إقباله على ما تقول وأخذه بما تريد إلا إذا استطعت أن تحدث فيه « الرغبة » فيما أنت بسبيله من قول أو عمل . ومن ثم أخذ اللجوء إلى طرق الإكراه ، ولا سيما العقوبة البدنية ، يزول قليلا قليلا حتى أصبح بعض المدارس يحظر العقوبات البدنية حظراً ، بل أصبح بعض المدارس يحظر العقوبات على اختلافها بدنية كانت أم معنوية .

« بستالوزى » والعقاب

على أن « بستالوزى » ،وقد كان أباً رحيما لتلاميذه الصغار ، ولم يكن تلاميذه فى أول الأمر سوى لمة من ذرارى الدرك الأدنى من طبقات المجتمع ، حشدهم إلى مزرعة كانت له تحيط بداره وكان ينفق عليهم من ريعها حتى أثقلته الديون فنزل عنها للدائنين ، نقول إن بستالوزى ، وهو ذلك الأب الرحيم لصغاره الذين جمعهم من هنالك ومن هنا ، كان يلجأ أحياناً قليلة جداً إلى عقاب أحدهم إذا ركب منكراً عظيما لا يناسبه النصح الرفيق .

لكن عاطفة الأبوة التى كان يشعر بها ذلك المربى العظيم نحو أطفاله ، وروح

العطف التى كانت تمازج كل صغيرة وكبيرة فيما بينه و بين أولئك الأطفال ، رفعتهم من ذلك المستوى الوضيع الذى عاشوا فيه بين آبائهم وأهليهم ، وأيقظت فيهم شعوراً حياً جديداً بعرفان الجميل لمن يدأب هكذا على رعايتهم والقيام الخالص بتعهد نموهم أجساماً وأخلاقاً وعقولا ، حتى إن أحدهم لو اجترح ذنباً كان أسفه لغضب ذلك المربى العظيم أشد من ألم العقاب الذى قد يناله . ولقد كان أحدهم يفضل أن يوجهه « بستالوزى » بعصاه ثم يرضى عنه بعد ذلك على النجاة من العصا مع استياء هذا الأب الرحيم .

و إن بستالوزى نفسه ليصف هذه الحالة النفسية عند أطفاله فى خطاب مسهب أرسله إلى أحد أصدقائه فيه شرح مفصل لأساليبه وطرقه . وليس فى مقدور قارىء أن يقرأ هذا الكتاب دون أن يلهمه ذلك أكبر إجلال لعظمة الرجل الذى سنّ للتربية العملية خير طريق قائم على الأبوة والرفق وعلى حفز المشاعر السامية فى نفوس الأحداث ، لا من طريق الإرهاب ولكن من داخل تلك النفوس الناشئة . ومن أرق ما يؤثر فى النفس ما رواه « بستالوزى » عن أحد أولئك الصغار : على ما أذكر ، وقد اجترح سيئة غض عنها الأستاذ نظره فجاءه الصغير منفعلا والدمع يجرى فى عينيه من وخز ضميره وحبه لأستاذه وهو يقول : « ألا عاقبتنى على ذنبى يا سيدى ؟ فإنى أستحق ! »

هربرت سبنسر والعقاب

أما هربرت سبنسر ، العالم الإنجليزى المشهور ، فقد أفرد باباً للتربية الخلقية فى كتابه « التربية » أبدى فيه دهشة عظيمة كيف لا تكون تربية الأطفال موضوعاً هاماً من موضوعات الدراسة فى كل المعاهد العلمية التى يتخرج فيها الطلاب من بنين و بنات . ذلك أنه يرى كما يرى جميع الفلاسفة والمفكرين أن إحسان القيام بتربية النشء هو الوسيلة الأولى والوسيلة الناجعة إلى ترقية المجتمع ، وأن بنات اليوم هن أمهات المستقبل وأبناء اليوم هم آباء المستقبل ، لكن الصعوبة العملية التى تقوم فى سبيل ما يدعو إليه « سبنسر » هو أن فريق الطلاب ، ولا سيا الذكور منهم ،

لا يحسون من تلقاء طبائعهم — ومنهم ما زالت حديثة — بغرائز الأبوة ولا غرائز الأمومة حتى يعانوها . ومهما يكن من أمر فإن الذى يعنينا فيما نحن فيه الآن هو ما كتبه هربرت سبنسر فى شأن عقاب الأطفال .

كان سبنسر شديد الحنق على حماقات بعض الآباء الذين يتولون هم عقاب أبنائهم بأنفسهم . وكان يروى فيما يروى أن من الآباء والأمهات من يرى طفله وقد جاءه محمولا على الأيدى لزلة زلتها قدمه فانحطمت لها ذراعه ، كان يروى أن من الآباء والأمهات من يرى طفله على هذه الحالة فينحى عليه بالضرب واللطم لأن قدمه زلت ولأن ذراعه انحطمت . وليس شىء أقرب إلى الجنون من هذا ، لأن الطفل الذى يكون وهو فى هذه الحال أحوج الناس إلى الرفق والعطف يعامل معاملة المجرم الآثم ، وهكذا يضرب « سبنسر » الأمثال لحماقة الآباء وشدة سخف بعضهم فى معاملة الأطفال ثم ينتهى من ذلك إلى أن « الطبيعة » هى التى يجب أن تتولى عقوبة الأطفال كلما خرجوا على قوانين الطبيعة . وليس على الوالدين سوى أن يخليا ما بين الطبيعة والطفل فلن تلبث هى أن تتولى تربيته وتخريجه . فإذا بسط الطفل يده إلى النار لذعته ، فإذا لذعته كان فى ذلك درس له وعقوبة . أما الدرس فهو ما عرف من أن النار لذاعة وفى هذا توسيع لعلمه بطبائع ما حوله من الأشياء ، وأما العقوبة فهو ما أصابه من ألم اللذعة فلن يعود إلى بسط يده إلى النار مرة أخرى .

لكن هربرت سبنسر قد غالى فى ذلك غلوّ روسو من قبل فى عزل الطفل عما يحيط به من ظروف المجتمع . لأن الطبيعة ليست من الحكمة ولا من الرفق بحيث يجوز فى كل الظروف أن يخلى بينها و بين الأطفال . طفل على حافة هاوية ! ولو تركناه حتى يدرك نتائج عمله لألقى بنفسه إلى التهلكة فمات . أفينبغى أن نتركه للطبيعة يتعلم عنها مباشرة ، ولهذا العقاب الصارم عقاب الموت ؟ كلا . إن تجاريب الآباء يجب أن يرثها الأبناء و ينتفعوا بها ، فلا بأس على الوالدين أن يلقوا فى روع أطفالهم أن هذا العمل ضار ومخوف ، وأن ذاك نافع مأمون ، على شرط واحد هو أن يعقل الأطفال ما استطاعوا هذه التعاليم لا أن يجروا عليها كالآلات الطائعة فى غير فهم ولا إدراك .

على أن من ذنوب الأطفال ما لا يسهل إخلاء السبيل فيه إلى الطبيعة . ما للطبيعة ولطفل سرق درهما من جيب أبيه . ما للطبيعة ولطفل كبير اعتدى على أخيه الصغير فوكزه وكزة قاسية وليس فى مقدوره دفع الأذى عن نفسه ؟ إذن فعقاب الطبيعة فضلا عن أنه قد يكون قاسياً غير مناسب لمقدار الجرم فهو لا يشمل كل أنواع السيئات التى يراد إصلاحها فى الأطفال .

شروط العقاب

إذا كان لا بد من العقاب فليكن شذوذاً نادراً إلى الحد الأقصى ، لا قاعدة يجرى عليها الوالدان . وإذا وقعت العقوبة فلتكن لسيئات خطيرة يريد المربى أن يقرنها بألم يبغض إلى الطفل نزوع العودة إليها . وهذا قانون « تقارن الأفكار » فى علم النفس « Association of ideas » . فكلما عاود الطفل نزوعه الى العمل المنكر الذى من أجله عوقب عاودته مع هذه النزعة ذكرى الألم الذى ناله من جراء جريمته فيزدجر . لكن المربى يجب أن لا يعتمد على العقاب وحده دون أن يحاول إصلاح ذات النفس فى الصغير . وإلا فإن ازدجاره بعامل الخوف وحده مجبنة للطفل مفسدة لأساس الرجولة فيه . وإذن فبعد العقاب ، إن لم يكن بد من العقاب ، يجب على المربى أن يصالح الطفل ويعود إلى الترفق له وملاينته ، فيبين له وجه الضرر البليغ الذى يعود عليه من مسلكه الذى سبب له العقاب والألم ، ولن يزال الوالدان أو المربى بالطفل الصغير حتى تشعر أعماق نفسه بأنه أخطأ خطأ جسيا ، وبأن العقاب لم يكن ثورة غضب ولا شهوة انتقام ، ولكن وسيلة خير لجأ الوالدان أو المعلم إليها آسفاً مضطراً رغبة فى مصلحة الصغير . ولن يتيسر هذا المسلك حتى تكون المحبة الصادقة والعطف الشديد وضبط النفس أساساً دائماً لصلة الأهل والمربين بالأطفال : ذلك حتى يترعرع فى الطفل واعز الضمير فلا يعود فى حاجة إلى واعز من الخارج أو إلى عقاب مهما لطف ، وكلما بكر الآباء فى إنماء هذه الحاسة الباطنة المستقلة كان ذلك خيراً وأبقى .

المراد بالكبح

إن تربية الأخلاق فى الصغير تقتضى أمرين : حفزاً وكبحاً . والكبح وإن كان ضرورياً فإن أساليبه تختلف ، ونسبته إلى الحفز والتشجيع تختلف ، والآن نزيد هذه النقطة الهامة التى هى أساس التربية كلها شيئاً من التفصيل فنقول :

ليس كبح الغريزة الضارة معناه قتلها وإبادتها ، وانما معناه صرف الحيوية التى يبذلها الطفل فيها إلى غريزة أخرى أسمى وأنفع . وإذن فطريقة الإصلاح ليست محو الغريزة الضارة محواً يطرأ من الخارج . وإنما طريقة الإصلاح هى تحويل النشاط الذى تستنفده الغريزة الضارة إلى بعض الغرائز النافعة . خذ غريزة التدمير فى الأطفال مثلا ، هب هذه الغريزة شديدة الطغيان فى طفلك الصغير . هبه لايكاد يصل إلى شىء من أدوات المنزل إلا حطمه مادام قابلا للتحطيم . كيف يكون سبيلك إلى تحويل نشاطه من هذه الغريزة إلى غريزة نافعة . ليس السبيل أن تنهاه عن التدمير وأن تزجره وتعاقبه عليه . وليس السبيل أن تجعله ذا غرفة خالية من الأثاث ليس فيها مايستطيع تدميره . إنك بذلك تقتل فيه نشاطاً وتخمد فيه حركة يجب تحويلهما إلى غريزة نافعة قد تكون بحاجة إلى التشجيع . وإذن فالسبيل هو أن تحيطه بلعبة ذات أجزاء قابلة للتفكيك والتركيب دون أن تنكسر . فإذا هو فكك أجزاءها حاول بعد ذلك أن يردها إلى ما كانت عليه . وعلى هذا الأسلوب تنمو فيه غريزة عكسية نافعة هى غريزة الإنشاء . فإذا آنس فى نفسه هذه القدرة على تركيب الأجزاء ازداد فيها رغبة وعليها حرصاً لما هو دفين فى طبعه من فطرة المنشىء الخالق .

أو هب طفلك شديد الضراوة بالحيوان الأنيس بالمنزل كالقط الأليف أو الطير الداجن . هبه لايرى قطاً إلا نهره ولايرى دجاجة إلا طاردها . هذه غريزة الافتراس تبدو فى أبسط مظاهرها فكيف تداويها ؟ لا بالأمر والنهى ولا بإخلاء المنزل من القطط والدجاج ، ولكن بأن توقظ الأم فيه غريزة تناقض هذه التى تشكوها ، فلو أنها على مشهد منه أخذت تبدى عطفها على الدجاج وعلى القطط ، فتلقى إليها الغذاء

راثية لهـا مشفقة عليها ، متمتمة بكلمات العطف والإشفاق ، مشيرة فى لطف ورقة أمام طفلها « المفترس » الى أن هذه المخلوقات مسكينة شديدة الحاجة إلى رعايتنـا ، معربة عن هذه العواطف فى صوتها المتهدج بشـعور الحنان الذى ألفه ذلك الطفل من أمه حين تدلله وترضيه ، ثم دعته بعد ذلك إلى أن يعاونها على تغذيتها وإسعادها ، فإن هذا الطفل عينه سينصرف قليلا قليلا عن غريزة «الافتراس» إلى غريزة الشفقة و «الغيرية» (altruism) — ثم تنمو فيه حتى تراه بعد حين نشيطاً فى رعاية الحيوان الضعيف نشاطه من قبل فى مطاردته و إيلامه .

فهل ترى الآن معنى الكبح الذى يريده علماء التربية وطريقته؟ إن هو إلا تحويل لنشاط الطفل من غريزة إلى غريزة ، من غريزة مرغوب عنها إلى غريزة مرغوب فيها . كل ذلك فى غير عنف ولا ضغط ولـكن بأسلوب لطيف من الحيـلة النفسانية المحمودة . وهكذا لا تقتل فى الطفل نشاطاً ولا تمحو منـه حياة ولـكن تحوّل مجرى النشاط فيـه ومجرى الحياة . وهكذا دواليك فى كل ضار من غرائزه . تبدل شعوره السيىء بشعور حميد وعمله الضار بعمل نافع . شعور يطرده شعور . وقوة فائرة من شهوة فاسدة إلى قوة فائرة من عاطفة صالحة ، حتى إذا امتلأت النفس من رغبات إيجابية فاضلة لم يعد ثمت فى نفس الطفل ولا فى نشاطه متسع للرذائل .

وعلى هـذا القياس يستطيع الأب أو الأم علاج غريزة بغريزة وصفة بصفة . هب غريزة خوف الظلام شديدة فى طفلك . فلن يكون الدواء أن تضىء له كل مكان يدخله ، ولا أن تزج به إلى الظلام ثم تتركه مذعوراً ينتحب ، ولا أن تنيم معه الخادمة فى الغرفة المظلمة خشية أن يفزع أو خشية « الأسياد » — ولـكن سبيل العلاج أن تضرب له الأمثال بأخيـه الذى لا يخشى الظلام و بأخته التى تدخل الغرفة فتطفىء السراج ثم تظل وحدها فيها . «تعال يا عزيزى نجرب» . ثم تأخذ الأم بيده وتماشيه حتى يدخلا الغرفة المظلمة فتضيئها ثم تطفئها ثم تضيئها ، وهى فى خلال ذلك تلقى فى نفسه القابلة للتشجيع أن الظلام لا ينبغى أن يخيف ، وأن الطفل الذى يريد أن يكون يوماً من الأيام رجلا كأبيه لا ينبغى أن يخاف ، وأن الغرفة وقت الظلام هى هى عين الغرفة

حين تضاء ، لا يزيد منها شيء ولا ينقص منها شيء . ولن يمضي على الطفل غير حين قصير حتى يألف غشيان الظلام فلا يستوحش منه ولا يفزع . ويكون هذا أول درس من دروس الشجاعة ألقته الأم فى روع طفلها الصغير .

المرحلة الأخيرة — تحويل الغرائز إلى عادات

فإذا تكشفت حركات الطفل عن مختلف غرائزه ، وإذا اهتدت الأم إلى النافع منها والضار ، لم يبق عليها سوى أن تصرفه كما قدمنا من الغرائز الضارة بأن توجه نشاطه إلى إبراز الغرائز النافعة . فإذا توالى ذلك تحولت الغرائز التى تظهر أحياناً وتختفى أخرى إلى عادات ثابتة لا خوف من تغلب الظروف عليها وإخفائها بين حين وحين . وهذه هى المرحلة الأخيرة فى تربية الأخلاق عند الأطفال .

إن قوة العادة هى تأثير الماضى فى توجيه المستقبل . والعمل الذى يقوم به الطفل أول الأمر فى مشقة وعناء لا يلبث أن يسهل عليه مع الإعادة والتكرار . ألا تراه يتخاذل فى أول عهده بالمشى فيسقط مرة وينهض أخرى ؟ ألا تراه لا يرفع قدمه فى ذلك الطور إلا بمقدار ولا يخطو إلا بمقدار ؟ ألا تراه يتحامل على بعض المقاعد تارة ويعتمد إلى الحائط أخرى . ثم هو يزداد كل يوم قدرة على المشى فلا ينقضى عام أو بعض عام حتى تراه يقفز ويعدو . زال العناء وزال الجهد الذى كان يكابده الصغير لأول عهده بالمشى . والسر فى ذلك راجع إلى قوة العادة . كل خطوة يخطوها تسهل عليه الخطوة التى تليها . وكل عناء يبذله يخفف عنه ما يتلوه من عناء . ولولا قوة العادة ما حذق صانع صناعته ، ولا مهر فنان فى فنه ، ولا نمت لنا موهبة من مواهب العمل أو الأخلاق .

وهذه القوة العظيمة ، قوة العادة ، لا يقتصر فعلها على الجوارح والحركات الظاهرة ، بل الروح والشعور وخلجات النفس وحركات العقل وعزمات الإرادة كلها خاضعة لتأثير العادة . فإذا عودت طفلك إظهار غرائزه الصالحة فى أعمال صالحة منذ رطوبة عوده وانقياد نفسه كان ذلك سنة سابقة لأيامه التالية ، وقاعدة لا يخرج عليها لأنها من مألوفه

ومتجهه . تظهر شجاعته حين مقتضيات الشجاعة و إقدامه حين مقتضيات الإقدام ، ويظهر عطفه فى كل ظرف يحتاج إلى العطف وجهاده فى سبيل حياته وحياة أمته فى كل وقت يدعو إلى الجهاد . يثابر على عمله و يقوم بواجبه و يؤدى نصيبه من الخدمة المشروعة لنفسه . ومن الخدمة الواجبة لأمته ، كل ذلك فى غير عناء ولا كلفة لأنها عادات تعودها منذ نعومة أظفاره ، كما تعود المشى صغيراً وكما تعود اللعب يافعاً وكما تعود القراءة والكتابة غلاماً .

فأما قول روسو : « إن خير العادات التى يجب إنشاء الطفل عليها أن لا تكون له عادة » فقول هو إلى ثورة الغضب من حالة الجمود التى كانت عليها التربية لعهده أقرب منه إلى القول الجد الذى يصدر عن الرجل الحكيم وهو ضابط لنفسه واع لعواقب ما يقول . إن علماء النفوس قديماً وحديثاً لمجمعون على أن تكوين العادة الصالحة منذ الصغر أساس الفضيلة وكبار الأخلاق . ولقد أجمع أفلاطون وأرسطو على أن لا سبيل إلى إيناع شجرة الفضيلة فى الكبر إلا إذا غرست بذورها لعهد الطفولة فى الفطرة التى تولد مع المولود ، أى فى الغرائز الصالحة بتحويلها إلى عادات ثابتة . ولكى لا يكون المرء عبداً خاضعاً لعاداته كأنه دولاب يتحرك لا إنسان يعقل و يشعر و يريد ، كان لا بد من أن تكون عادات المرء كلها خاضعة لعادة كبرى هى الحكمة التى تجعل العادة شيئاً غير مقصود لذاته ، بل للغاية السامية التى ترمى إليها . وهذا أمر ليس يتعلق بتربية الأطفال فى المنازل ، بل هو داخل فى تربيتهم بالمدارس والمعاهد حين تكون سنهم قد أعدتهم لمثل هذا التدقيق .

أما بعد

أما بعد فهل يجرى الآباء فى منازلنا على هذه الأصول ؟ أيعنون بأطفالهم هذه العناية و يراقبون غرائزهم هذه المراقبة ، و يقاومون الطالح منها هذه المقاومة ، و يروضون الصالح منها هذه الرياضة ؟ أليس كثير من الآباء والأمهات يضخمون فى الأطفال غريزة الخوف بما يخيفونهم به من سطوة العقاب الدائم ، و بما يذكرهم بعض الخدم

من أقاصيص المردة والعفاريت ؟ أليس بعضهم يغرى الأطفال بالكذب لأنه يكذب أمام أطفاله ، و بالخور والضعف لأنه يخور أمامهم و يضعف ، و بالشتيمة والسباب لأنه يسب أمامهم و يشتم ، و بالقسوة والغلظة لأنه يتغالظ أمامهم و يقسو ؟

سيداتى وسادتى :

لا تبحثوا عن عظمة الأمم فى أساطيلها ، ولا فى جيوشها ، ولا فى مظاهر الأبهة والمجد التى ترونها فى القصور والقلاع . لا تبحثوا عن عظمة الأمم فى أى مظهر من هذه المظاهر مهما تعددت وفخمت . ولكن ابحثوا عنها بين جدران البيوت ، وفى مهد الطفولة ، وأحضان الأمهات . هنالك فى مدارج الصبا تغرس الأم أول بذور العظمة الصادقة التى تنمو فيما بعد وتنبسط فروعها وتعلو ، فتريكم من آيات العظمة البارزة ما تنظرون . فهلا أزلنا من أطفالنا جراثيم الخوف أطفالا فلا تعوزهم الشجاعة رجالا ؟ وهلا وسعنا لهم فى ميادين اللعب النشيط أطفالا فيقبلوا على الحياة متذرعين بقوة النشاط والهمة رجالا ؟ وهلا عودناهم الرحمة بالحيوان الضعيف ، والحب للزهر الأنيق ، والأنس بمظاهر الطبيعة من شجر ، ونهر ، و بحر ، وجبل ، ليرتوى فيهم كل شعور ظمآن ، وتزدهر فيهم كل عاطفة محبوسة ؟ ألا حببنا إليهم الجمال وحببنا إليهم الرحمة وحببنا إليهم الشجاعة والإقدام ؟ ألا غرسنا فى نفوسهم الخصيبة هذه الفضائل الإيجابية القوية التى يغالبون بها البيئة رجالا فيسعدون بها فى الحياة و يخدمون بها المجتمع .

ألا إن مصر ترنو إلى كل طفل فى كل مهد ، فى كل قصر ، وفى كل كوخ . ترنو إليهم وهى عالمة بأن هؤلاء الأجنة فى بطون الأمهات ، وهؤلاء الأحداث فى بطون البيوت ، هم ذخرها الأعز الأغلى تواجه به المستقبل معتزة واثقة .

ليس الفخار بكثرة المواليد وعدد النفوس ، و إنما الفخار بمعدن النفوس وأخلاق الرجال . و إن من صغار السمك فى جوف البحار ما يلد ملايين فى اليوم ، فما هو إلا يوم آخر حتى تبيد تلك الملايين إلا قليلا . نريد أن يكون لنا خلف جدير بمصر . ولن تحظى مصر بهذا الخلف إلا بعناية الآباء والأمهات .

تربية الأخلاق فى المدارس [1]

نشأة المدرسة

سيداتى وسادتى :

كانت التربية فى العصور الأولى من عمل الأسرة دون سواها ، لأن الأسرة كانت هى «الهيئة» الاجتماعية الوحيدة قبل أن تتألف البيوت قبائل ، والقبائل أمماً . فلما نشأت القبائل ، ثم الأمم ، لم تعد التربية موكولة كلها إلى الأسرة ، ولكن بقى لها حتى اليوم قسط عظيم فى هـذا الشأن هو الأساس الأول الذى عليه يقوم بناء الأخلاق . فتقصير الأسرة فى العناية بتربية الأبناء ضار أبلغ الضرر حتى يومنا هذا ، ضار مهما اختلفت العصور وتبدلت الأحوال . و إن فى أبناء الفقراء والمعوزين الذين جمعوا إلى ضيق الفاقة شديد الجهل بتربية الأطفال ، وفى أبناء الأغنياء الذين يستخفون بصغارهم فيذرونهم لرعاية المراضع والخدم ، أقول إن فى سوء تكوين هؤلاء الأبنـاء وأولئك ، لموعظة بليغة ودليلا ماثلا على ما نقول .

كانت الأسرة إذن مربياً لاشريك له فى العصور الأولى ، فلما أخذت الإنسانية فى معارج الرقى قليلا قليلا ، أخذت أغراض المجتمع تسمو وتتشعب ، وأخذ بصيص التربية الأولى يستحيل شعاعاً منيراً .

وبدأت أول مرحلة فى هذا السبيل حين أخذ المجتمع يرتقى من نظام الأسرة إلى نظام القبيلة ، هنالك أخذ الإنسان القديم يشعر بحاجة غير حاجات البدن ، أخذ يشعر بحاجة روحية إلى إله يعبده و يقدسه ، فنشأت أديان ونشأت عبادات ، ونشأ معها رجال يهدون إليها و يقومون بطقوسها و يحتفظون بأسرارها ، أولئك هم الكهنة والقسيسون ، وأولئك هم الذين بذروا أول بذرة للتربيـة المنظمة — خارج المنازل — لأول مرة فى التـاريخ .

(١) المحاضرة الثانية ألقيت فى نادى المعلمين العليا سنة ١٩٢٥

وكانت التربية فى هياكل الكهنوت روحية صرفة أول الأمر ، ثم اتسعت للقانون والطب والفنون الجميلة والعلوم لذلك العهد البعيد ، حتى كان رجال الدين مصدر الثقافة القديمة ومصدر كل فن جميل وعلم . ولم يزل الحال هكذا فى الغالب حتى عصر النهضة الأوربية بعد انقضاء القرون المظلمة .

ثم نَفِس الملوك والأمراء على رجال الدين احتكارهم لتربية الناشئين ، فأخذوا يلحقون بقصورهم شبه مدارس يتخرج فيها من الشباب من يطمح إلى أن يكون حاكما أو جندياً ، وكانت هذه المدارس مقصورة على أبناء الأشراف يتعلمون فيها كيف يحكمون وكيف يحاربون . ففنون الحرب وصناعة القانون كانت إذن أهم أغراض تلك المدارس ، وقديماً ناهضت القوانين الوضعية قوانين الهياكل والكنائس .

فلما نما العمران فى كبار المدن ، ولما اتسعت ثروة الأفراد باتساع التجارة ونمو الصناعة ، بدأ عهد جديد أنشأ فيه القائمون بأمر التجارة والصناعة مدارس تروض الشباب على هذا الضرب من الكفايات . وكانت هذه أول خطوة فى القرون الماضية خطاها المجتمع إلى توسيع نطاق التربية ، بعد إذ كانت موقوفة على طبقات معينة من الناس . ولم تزل الأمم توسع دوائر التربية وتنوع أغراضها حتى بلغنا إلى مانحن فيه اليوم ، وحتى أصبحت التربية الأولية على الأقل حقاً أولياً لكل فرد من أبناء الأمة لامجرد ميزة يمتاز بها بعض الناس ويحرمها بعض .

منذ عهد قديم إذن فطن رجال الأديان إلى أن المدارس أنجع وسيلة إلى الإكثار من المؤمنين ، ومنذ عهد قديم أخذت الطوائف الأخرى تنافسهم فى هذا الميدان الخصيب ، ومازال التنافس فى توجيه التربية عظيما حتى عصرنا الحاضر ، فكل حركة جديدة فى التجارة ، وكل حركة جديدة فى الفنون أو العلوم أو نظام المجتمع ، تحاول أن « تضم » المعلم والمدرسة إلى جانبها ، وأن تحملهما على وجهتها ، حتى أصبحت تربية الناشئين أعقد المسائل وأشدها استرعاء لأنظار كل مشتغل بالشؤون العامة .

من هذا الإلماع الموجز إلى تاريخ المدرسة نرى أن التربية — فى أول عهدها على الأقل — كانت ترمى إلى أغراض سامية ، وكانت تحاول أن تروى ما تجده

الروح الإنسانية من ظمأ . ولو ظل الإنسان القديم يكتفى من عيشه بالطعام والشراب، لو ظل يكتفى بتوفير مطالب البدن فلم تتسام نفسه إلى ما فوق ذلك ، لكان بحسبه أن يعيش كما تعيش العجماوات ، يقلد آباءه تقليداً آليا لا فطنة فيه ولا غاية بعده ، أولظل مدى الملايين من السنين على نشأته الأولى كأخيه الحيوان يعيش ليأكل ، ويأكل حتى يفنى ويموت ، يومه مثل أمسه ؛ لأنه لا يحمل بين طواياه تجاريب الماضى ، وغده مثل يومه ، لأنه لا يحمل بين طواياه آمال المستقبل . نعم لو اكتفى الإنسان القديم بحاجات البدن لظل كما كان ، ذئباً فى جملة الذئاب ، أو قرداً فى جملة القرود ، لا يفضلها فى شىء لأنه لا يختلف عنها فى شىء . لكن فى قلب الإنسان جوهرة كمينة ، فى قلبه مشكاة فيها مصباح ، هى التى أضاءت له سبيل الارتقاء منذ عهده الأول ، وكلما مرت عليها الدهور ازدادت وضاءة ونوراً . حتى كان من بين بنى الإنسان رسل وأنبياء ، وكان من بينهم فلاسفة وعلماء ، وكان من بينهم مصلحون مجاهدون ، وكان من بينهم أهل إيثار يعيشون للمجتمع خداما ، ولسعادته فداء .

تلك أيها — السيدات والسادة — هى الجوهرة الكمينة التى لمعت فى الإنسان القديم ، فأنعشت من آماله ، ووجهت قلبه إلى المعانى السامية — وتلك الآمال القديمة ، وتلك المعانى السامية ، كانت هى الدافع الأول إلى إنشاء المدرسة فى العهد القديم من التاريخ .

* * *

توسيع التجارب

قلنا فى محاضرتنا الأولى وفى هذه المحاضرة : إن تربية الصغار فى المنازل هى الأساس الأول لكل ما يليها من أنواع التربية . لكن التربية المنزلية وحدها لا تستطيع كل شىء . ذلك أن تجارب الأطفال فى المنازل ضيقة محدودة ، فهى لا تكفى لتنمية ما أورثتهم الطبيعة من قوى ومواهب . فلا بد لهم من بيئة أوسع نطاقا فيها عوامل جديدة تستثير من طبيعة الطفل ما لم توقظه بيئة المنزل ، أو ما أيقظته ولكن إلى حد محدود . ولو رأيت صبياً قضى طفولته فى منزل قليل الاتصال بالناس ، دون

أن يلتحق بمدرسة أو جامعة لرأيت عليه طابعاً من الخمود والوحشة واحتباس القوى ليس يخفى على أحد .

وروح النظام فى المنزل كثيراً ما تكون شديدة إلى حد القسوة ، وكثيراً ما تكون هينة لينة إلى حد التراخى والتفريط . ففى الحالة الأولى ينشأ الطفل مرهقاً بالأوامر والنواهى ، وما هو أشد من الأوامر والنواهى ، وفى الحالة الثانية ينشأ الطفل راكبا رأسه جموحا ، ليس يعترف لأحد بسلطان ، ولا تحس نفسه إجلالا لأحد . وكلا الحالين خطر يجب اتقاؤه ، وإنقاذ الصغير من عقباه ، وليس إلى ذلك من سبيل سوى المدرسة .

دائرة المنزل ضيقة وتجاريب الناشىء فيه محدودة . فصلته بوالديه وإخوته ، إن كان له إخوة ، وصلته بالخدم وبغير الخدم ممن يغشون المنزل بين حين وحين ، كلها لا تكفى لإيقاظ مواهبه وشحذ قواه . فإذا كانت تربية المنزل هى الخطوة الأولى التى لا بد منها ، فتربية المدرسة هى الخطوة الثانية التى لا بد منها كذلك . كلا التربيتين من دون الأخرى عمل ناقص لا غناء فيه .

يدخل الصغير المدرسة فيحيا حياة الجماعة فينمو فيه من الصفات والعادات ما يتكون به خلقه ويلائم الجماعة . فى المدرسة مباراة بين التلاميذ فى تحصيل العلم ومباراة فى كسب الصفات الممتازة ، ومباراة فى أنواع شتى من اللعب المنظم . وهذا التنافس يثير من عزائم الناشئين ، ويؤجج فى قلوبهم حب العمل ورغبة الإتقان . تضع المدرسة أمام أعينهم غرضاً ثم تدعوهم إلى أن يتسابقوا إليه ، فإذا الهمة الراكدة نشيطة ، وإذا النفس الفاترة قد ألهبتها حماسة الظفر . وفى هذا خير إعداد لمعترك الحياة الحديثة التى لا يهدأ فيه تنازع البقاء . فإذا خرج التلميذ بعد الدراسة من جماعة المدرسة ليكون أحد العاملين فى الجماعة الكبرى خرج مزوداً بعزيمة مروضة على مجالدة المصاعب فى سبيل غرض نافع .

لكن شرطين خطيرين يجب توافرهما فى كل ضرب من ضروب المباراة ، يجب ألا تكون المنافسات المدرسية مثاراً للأحقاد بين التلاميذ ، ويجب ألا تنسيهم حماسة

التنافس أصل الغرض الذى فيه يتنافسون . ذلك أن الأحقاد إذا لوثت نفوسهم أفسدتها ، وكان شرها أكبر من الخير الذى يرجى عن طريق التنافس . و إذا لم تكن سن الصبا مزرعة المحبة والأخاء فلن ترتوى النفس بعد ذلك بإخاء ولا محبة . على أن خطر هذه النزعة قليل . إن قلوب التلاميذ فى الغالب أصفى من أن يشوبها حقد أو يفسدها خصام . والشرط الثانى ألا ينسى التلاميذ الغرض الذى ترمى إليه المباراة لا ينبغى أن يكون حب الظفر دافعهم الأول ، و إن كانت هذه الغريزة قوية فى طبائع النفوس . لكن التربية معناها أو من معناها تهذيب الغرائز : فالشبان المتبارون فى لعبة الكرة مثلا يجب أن يجعلوا غرضهم الأول فى المباراة رياضة أجسامهم على الحركة القوية ، وحواسهم على اليقظة الدائمة ، والفريق الذى هم منه على التكافل . فأما أن يغالبوا الفريق الآخر لرغبة الفوز ولذة الانتصار ليس غير ، فذلك مالا ينبغى ولا يجوز . كذلك من ينافس إخوانه فى إحراز جائزة علمية ، ليس ينبغى أن يكون دافعه إلى الجد مجرد أحراز الجائزة ، فإنه إذا تعود التلاميذ إغفال الجوهر وحصر أنظارهم فى العرض ، لم تلبث طبائعهم أن تعروها البلادة فى كل ظرف لا يحفزهم فيه حافز « صناعى » من إحراز نصر مبين أو جائزة بارزة . يجب أن تكون الجائزة الأولى وأن يكون النصر الصادق : شعور التلميذ بلذة أداء الواجب . فإن لم يكن هذا أساساً تقوم عليه جميع المنافسات ، ثم برز التلميذ يوماً إلى ميدان الحياة ، كان من العسير عليه أن يعمل ويجد فى ظروف هادئة ليس فيها شديد عراك ، إذ يكون أشبه شىء بالآلة الثقيلة لا تتحرك إلا بمحرك عنيف .

***

روح التعاون

وفى المدرسة يدرك التلميذ معنى التعاون ويتلقى فيه دروساً عملية قيمة . نضرب لعبة الكرة مثلا — أليس همّ كل عضو من الفريقين اللاعبين أن يعاون فريقه بكل ما فيه من قوة جسم وسلامة شعور ومضاء عزيمة ؟ جسمه وعاطفته

و إرادته كلها تعمل لغاية مشتركة هى غاية الفريق الذى هو منه . وهـذا أول عهده بروح التكافل وسنة التعاون فى هذا الوجود . يعمل ولكن لمجد فريقه لا لمجد شخصه ويكد لا ليحظى بسرور خاص ولكن بسرور يعمّه وزملاءه أجمعين . فإذا جاء اليوم الموعود يوم يودّع المدرسة و يواجه الحياة لم يدخلها فج الأخـلاق ، ولا خالى الذهن والقلب من معانى التعاون فى المجتمع على غرض شريف مشترك .

لا زهو ولا انكماش

وفى المدرسة لا يدأب التلميذ المزهو على زهوه ، ولا التلميذ المنكمش على انكماشه . فى بعض البيوت ينشأ الطفل مدللا إلى حد يملؤه إعجاباً بنفسه وزهواً . وهـذا خطأ فى التربية مصدره أن يكون التلميذ وحيد أمه وأبيه ، فهما يحفلان به فى كل وقت و يرسمان على جبينه كل ساعة قبلة . وهما فيما يرضيه دائبان ، ولو كان ما يرضيه أمراً غير صالح . هذان الأبوان ومن على شاكلتهما يغرسون فى أطفالهم من ضروب الضعف ما لا ينبغى . هنالك يتولاه نظام المدرسة وتقاليد جماعة التلاميذ ، وهى تقاليد قائمة فى الغالب على المساواة ، فلا ابن الفقير يزدرى لفقره ، ولا ابن الغنى يعز لغناه ، ومن ثمة يشعر الصبى المدلل أن أحضان المدرسة أقل نعومة ورفها من أحضان المنزل ، وأنه يجب أن يعامل إخوانه بما يحب أن يعاملوه به ، فيعتدل المائل من خلقه ، ويحول زهوه القديم أدب نفس و إنصافا للزملاء .

وبعض البيوت يأخذ الأطفال بالقسوة ، ويجعل دافعهم إلى الطاعة دافع الإرهاب فينشأ الطفل المسكين منقبض النفس مستوحشاً شـديد الحياء والخجل . لأنه كان يحاسب على اللفظ وعلى الحركة حسابا عسيراً فلا تندفع طبيعته إلى حب اللعب البرىء ، ولا إلى تلك المظاهر الحية التى يمتاز بها عهد الطفولة . ذلك الطفل يدخل المدرسة فيجد نفسه بين وجوه لا عهد له بها ، فكيف لا ينكمش بين هؤلاء الغرباء وقد كان شديد الانكماش بين الأهل والآباء . لكن مرح الزملاء الذين يحيطون به من كل جانب وما يشاهده فيهم من حياة طلقة فيها نشاط ولعب وكر وفر ، لا يلبث أن يعديه

على التدريج فيلعب كما يلعبون ، ويضحك كما يضحكون ، و يتفتح من طبيعته ما كان مغلقاً ، و يزدهر ما كان جافا ذاويا ، وبذلك يعود الطفل كائناً حياً بالمعنى الكامل من جديد .

حقوق وواجبات

وفى المدرسة يشعر التلميذ الصغير بأن عليه واجبات إلى جانب ماله من حقوق . يشعر بواجبات حيال سلطة المدرسة قد تكون أوسع وأدق من واجباته حيال أبو يه . يشعر بواجبات حيال معلميه وأخرى حيال زملائه فى غرفة التدريس وفى ملعب المدرسة .

وعلى هذا الأسلوب يجد نفسه بين جماعة منظمة هى « الرأى العام » فى مرتبته الأولى . فالمدرســة إذن هى الأمة الصغيرة التى يلابسها التلميذ عدداً من السنين قبل أن ينـدمج فى الأمة الكبيرة و يأخذ نفسه مآخذ الرجال . المدرسة أمة وسـط بين عشيرة المنزل وعشيرة المجتمع الأكبر . وهذا « الرأى العـام » الذى يعالج التلميذ أطواره فى عهـد الدراسة ، أصرح وأصفى من الرأى العـام الكبير . فهو يحكم على أفراده من التلاميذ ، بل على معلميه — أحياناً — أحكاماً يغلب الصـدق فيها على الكذب ، والإخلاص على الرياء .

فالرأى العام فى المدرسة يسمى المسىء مسيئاً فى وجهه ، والمحسن محسنا . وهو يجل الصفات الطيبة فيعجب بالشجاع و يلتف حول المهذب الحميد الخصال . هذه حال المدرسة ، أو هكذا يجب أن تكون حالهـا . فما أحسنها من بيئة و إن شابتها الشوائب أحياناً ، وما أصلح عهدها عن عهد حلو لذيذ .

النظام والنسق

ولا ننس فضل ما يعتاده التلميذ فى مدرسته من جرى على نظام محترم ونسق مطرد . نحن لا نقول بأن تكون المدرسة آلية الحركة فى كل شىء فلا يأخذ الطلاب فى شأن من شؤونهم إلا بأمر ، ولا ينتهون عنه إلا بنهى . كلا ! و إنما نقول بأن روح النظام المعقول وروح « الترتيب » للأوقات والأعمـال وروح المثـابرة على طلب

ما أنشئت له المدرسة من تثقيف للعقول وتطهير للعواطف و إنهاض للعزائم والهمم — كل ذلك من شأنه فى المدارس التى تجرى على هذه القواعد الفاضلة ، أن يكون ذخيرة الطلاب فى مستقبل أيامهم ، حين ينتقلون من عالمهم الصغير إلى عالم الجهاد والعمل . يومئذ يقدمون على الدنيا وقد ألفوا احترام النظام واحترام الأعمال المنتجة ، و بذل الجهود فى غير ملال ولا وهن .

حياة تتفتح

أليست هذه العوامل إذا توافرت — ويجب أن تتوافر فى كل مدرسة جديرة بهذا الاسم العظيم — تفتق من فضائل الفتيان والفتيات كل كمين وتوقظ منها كل نائم ؟ تلك الحماسة التى تغلى فى صدور الناشئين فى ميعة الصبا ، وتلك العدوى الجميلة التى تسرى فيهم جميعاً فتوجه قلوبهم وجهة طاهرة صالحة ، لأن روح الجماعة تسهل انقيادهم إلى كل صالح طاهر ما دامت المدرسة فاضلة ، كما تسهل انقيادهم إلى كل خبيث ضار ما دامت المدرسة فاسدة ، نقول أن تلك الحماسة وتلك العدوى عاملان عظيمان يتدرج الطفل بفعلهما من عجز الطفولة إلى استقلال الرجال . وعلى هذا الأسلوب تؤثر المدرسة الفاضلة فى تهذيب العواطف وشحذ الإرادة ، أى فى تربية الأخلاق أحسن تأثير . وعلى هذا الأسلوب يدرك التلاميذ معنى الواجب ويفهمون معنى الحياة . يفهمون ذلك بأ كبر مقدار يستطيعونه فى أطوار سنهم المتوالية على التدريج . وكذلك ينشأ التلميذ بحكم هذه البيئة المدرسية الفاضلة وقد ألف توجيه نفسه من تلقاء نفسه و بإرشاد ضميره إلى ما ينبغى وصرفها عن كل أمر لا ينبغى . وهل ترمى تربية الأخلاق فى كل أدوار النمو إلى شىء غير هذا ؟ أم هل تقصد الفضيلة على رغم ضخامة هذا اللفظ وفخامته إلى شىء غير هذا ؟

الرخاوة والعنف

لسنا نقول بأن تكون المدرسة رخوة النظام تطلق لتلاميذها من الحرية ما يفسد معنى الحرية الصحيحة . ولسنا نرى مع « روسو » أن ينشأ التلاميذ على النحو الذى أنشأ هو عليه فتاه الوهمى « أميل » . لقد بلغ من إفراط روسو فى الدعوة إلى حرية الناشئين و إطلاقهم من كل رقابة وقيد أن كان يفاخر بأنك إذا ذكرت « لأميل » وقد بلغ الثانية عشرة من العمر لفظ الطاعة أو لفظ الواجب لم يفهم من مدلولهما شيئاً ، لأنه لا يعرف ما هو الواجب ولا ما هى الطاعة . نحن نؤيد روسو حين يدعو الآباء والمعلمين إلى أن « يحبوا الطفولة و يشجعوا ألعابها ومسراتها وغرائزها البريئة » لكن هل معنى المحبة أن تخلى الناشئين من كل نظام ومن كل قيد ؟ لقد رأى روسو أن الجماعة لعهده كانت فاسدة الأساليب جامدة النظام ترمى إلى «أن تجعل من الطفل لا طفلا ولكن رجلا عالماً » . وكان يدرك هو بحق أن حياة المرء أطوار من النمو وأن كل طور وكل مرحلة من الحياة لها أوان تتم فيه وتصل إلى الكمال أو النضج الذى يناسبها » . وكان غرضه أن يلائم بين أطوار التربية وأطوار النمو . لكنه بالغ فى إطلاق الحرية للأطفال إلى حد الإفراط حتى لجأ إلى عاطفة تشبه الأنوثة حين رجا من المعلمين أن لا ينالوا تلاميذهم بأى ألم و إن كان الدافع إليه رغبتهم فى « إصلاح الميول الفاسدة فى قلب الإنسان » . ثم أنشأ يقول « أيها الآباء ! هل تعلمون الساعة التى يحل فيها الموت بأطفالكم ؟ إذن لا تسلبوهم الساعات القليلة التى جادت بها الطبيعة عليهم ، فإن ذلك يورثكم حسرات (أى إذا وافاهم الأجل صغارا) .

لا نقول بهذا الرأى الفطير لأنا نعلم أن محبة الطفل هى نفسها التى يجب أن تدعو إلى مراقبة الضار من غرائزه رغبة فى سعادته هو قبل كل إنسان . وفى هذا نوع من التضييق على الحرية ، ولكن على أى أنواع الحرية ؟ على الحرية التى تورث الطفل أذى بليغاً يوما من الأيام لا يقاس بالأذى الطفيف الذى يناله من مقاومة الغرائز الشريرة . ولأن نقاوم فى الطفل نزعة السرقة صغيراً أقرب إلى معنى الرحمة الصحيحة

من أن ينشأ لصاً مصيره ظلمات السجون . فنحن إذا قاومنا الحرية الخبيثة فى الصغير فإنما نريد أن يستمتع بالحرية الصحيحة فى سائر أيام الحياة .

لا نرى إذن أن يكون نظام المدرسة رخواً ولا أن يكون الرفق بالأطفال معناه التجاوز لهم عن كل سيئة مهما شنعت و إلقاء الحبل على الغارب لكل غريزة مهما ساءت . لكننا مع هذا نرى القسوة مفسدة للقلوب الناشئة أى مفسدة . ولسنا فى مصر نخاف على الأطفال غلو المدارس فى اللين والهوادة و إنما نخاف عليهم غلوها فى القسوة والجفاء . ذلك أن موادعة التلاميذ فى المدارس هنا لم تصل بعد إلى حد يخشى معه الخطر . و إنما الخطر الذى نخشاه وهو واقع بالفعل فى بعض مدارسنا خطر القسوة الحمقاء . فى تلك المدارس لا يتحرك الصغير إلا عن رهبة ولا يسكن إلا عن رهبة . إذا قام بواجبه فخشية العقاب و إذا انصرف عن سوء فخشية العقاب . فإذا غفلت عنه عيون الرقباء يوما لم يقم بواجب ، و إذا أخلى سبيله يوما بدا شره المختفى بين جوانحه فى أشنع صورة ، ذلك أن مدرسته قد عودته العمل الصالح — الصالح فى ظاهره — بسائق العقاب وحده ، فإذا فتر عنه العقاب تكشفت طبيعته التى أفسدتها المدرسة القاسية عن سيئات قد يكون فيها هلاكه يوماً ما وضرر شديد بالمجتمع .

أسوأ المدارس

أسوأ المدارس إذن هى المدارس القاسية . و إذا كان لابد من خوف فليكن خوف الخروج على الواجب . أو إذا كان لا بد من خوف فليكن خوف شىء غير عقاب البدن . إن خشية عقاب البدن أحط أنواع الخوف وأدخله فى معنى الجبن المهين . يجب أن يكون فى جو المدرسة وفى أشخاص القائمين بأمرها شىء معنوى مهيب هو الذى يخشاه التلميذ ، نوع من الجلال ومن الحرمة الموقرة هو الذى يجب أن يملأ نفس التلاميذ ويحول بينهم و بين التقصير فى الواجب أو ارتكاب السيئات . وهذا هو الشأن اليوم فى كثير من المدارس فى أمريكا و بلچيكا وسويسرا وبلاد أخرى . أدرك بعض القائمين بأمر التربية هناك أن فى نفوس الأحداث خيراً كثيراً

لو عرف المعلمون كيف يفتشـون عنه ويوقظونه . والنفوس فى حداثتها سهلة منقادة لمن يعرف كيف يترفق فى تناول القياد .

عرف بعض رجال التربية هذا السر الثمين فانتفعوا به ونفعوا التلاميذ . وهذا مذهب جديد تقوم عليه أحدث طرائق التربية . حتى لقد استغنت بعض المدارس عن جل أنواع العقاب إن لم نقل عن كلها . أما العقوبات البدنية فقد صارت فى رأى تلك المدارس الراقية أثراً من آثار الوحشية القديمة ودليلا على قصور المربى فى صناعته أفضح قصور . ومن أحدث هذه النهضات فى ميدان التربية نهضة جماعة من العلماء يطلقون على مذهبهم اسم « المدرسة العاملة » L'école active وعسى أن يتاح لى فى العام الدراسى القادم أن ألقى بعض محاضرات فى هذا الموضوع الجليل .

فى قلوب التلاميذ إذن مهما بدا من جموحهم أومن خمودهم نقطة خصيبة بيضاء هى مصدر صلاحهم إذا اهتدى إليها الأستاذ برائد من الكياسة والرفق . ولقد صدق جون ستوارت مل حين قال : « إن الشياطين بين الناس قليلون قلة الملائكة » وأنا أقول إن الشياطين بين الأطفال لايوجدون لوعرف الآباء والمعلمون كيف يعالجون الطفولة بالتى هى أحسن وأقوم .

إن المدرسة الفاضلة أجمل بيئة بعد بيئة المنزل الفاضل . وإن عهدها لألذ العهود التى تنازعنا النفوس إليها فى حنين ترافقه ذكريات الصبا العزيز . ولكن وا أسفاه ! بعض المدارس يبغّض إلينا هـذه الذكريات ويخمد فى نفوسنا جذوة هذا الحنين . بعض المدارس مغلاق لامفتاح لفضائل النفوس ومدارك العقول . فى تلك المدارس ترى المعلم أشد الناس انقطاعاً عن تلاميذه لأنه بينهم بجسمه وليس بينهم بقلبه وروحه . صلته بهم مقصورة على الدرس يلقيه — بحكم الضرورة — لا بدافع من الرغبة الصادقة فى خير هؤلاء المساكين . فإذا قصر أحدهم فى الدرس يوماً لم يجد هذا المعلم وسيلة إلى تنشيطه سوى « ورقة العقاب » . أين الأبوة العاطفة المرشدة ؟ أين الإخاء العذب النصوح يحسه الصغير من معلمه فينقاد إلى نصائحه الحكيمة وإلى رغائبه الرشيدة لأنها عن هذا الأخ الكريم أوعن هذا الأب البار قد صدرت ؟ أين الأستاذ

الذى يصل عقله المجرب بعقول تلاميذه ويصل قلبه النضيج بقلوبهم وعزيمته القوية بعزائمهم ؟ قد كان ذلك قليلا بمصر فى العهد الذى مضى . كان قليلا لأن ولاة « التعليم » ولا نقول التربية يومئذ لم يكن يعنيهم سوى حشو الرءوس بالمعلومات غثها وسمينها ، لأنهم لم يكونوا يبتغون سوى آلات مطيعة لا ترمى فى الحياة إلى غاية سوى الوظيفة والمرتب . أما الأخلاق فلم تكن لتعنيهم فى مراح ولا مغدى . وكيف يحفلون بالأخلاق فى أمة لا يستطيعون أخذها إلا من جانب الأخلاق ؟ .

لكن العهد قد تغير . ورجاؤنا فى المعلمين أن يحدثوا لنا فى التربية عهداً جديداً ، عهداً لا يقتصر على تحسين البرامج فحسب ، فإن البرامج من دون القلوب والأخلاق لا تنفع .

معلمو مصر سينشئون لمصر أرواحاً فتية قوية قادرة على مكافحة أحداث الزمان .

---

(١)

الحب المفقود

حوادث هذه القصة وقعت بالفعل قبل الحرب الماضية الكبرى . والذى قصها علىّ هو نفس الشخص الذى وقعت له تلك الحوادث . وهو صديق حميم من أصدقائى وزملائى فى جامعات الغرب منذ أكثر من ربع قرن .

وكان يقصها على تارة كمحب قديم يستعيد حوادث الماضى ، وتارة كمحب شاب يلابس بالفعل تلك الحوادث . فلا عجب إذا جاء سياق القصة على هذا النمط المزدوج ، مما قد يخيل إلى القارىء أن وحدة الزمن فى سرد القصة عنصر مفقود

لذلك رأيت التمهيد بهذا البيان إيضاحاً للحقيقة

* * *

قال صديقى :

شغف الحب قلبى صغيراً لم أبلغ العاشرة . وحبيبتى كانت فى مثل سنى . طفلان غريران بص فيهما بصيص الوجدان .

هى بنت خالى . أول اسمها ع . وما ينبغى أن أفشيه مخافة الحرج . وبحسبى ، بل بودى أن أسميها الآن « عين » — حنيناً إلى ذلك العهد العزيز البعيد ، يوم كانت عينى وقلبى ، أبصر بهما الدنيا وأحس الحياة ، ذلك العهد الذى مضى ، فمضت معه روضة الصبا ، ثم مضت فى أثرها جنة الشباب ، واليوم تكاد بعدها تذوى شجيرات عجاف فى وادى الكهولة لتفضى بنا بعد حين إلى صحراء الهرم ، إذا توانى عنا الأجل الواقف بالمرصاد .

* * *

كيف عرفت الحب فى سنتى العاشرة ؟

كما عرفت الرضاع والتنفس ساعة الميلاد ، وكما عرفت الخطو نحو « حبى الأول » فى سنتى الأولى — نحو أمى ، وكما عرفت النطق بكلمة الحب فى سنتى الثانية — أقولها لمن أحس منه الحدب والإشفاق .

---

(١) سبتمبر سنة ١٩٤٣

هى كوامن فى الفطرة ، تتفتح عنها قوى الأجسام أو قوى الأفهام والقلوب ، كالرياحين يسقيها الغيث أو يسقيها النيل ، وتمدها العناصر ويغذوها الثرى الخصيب وترسل عليها الشمس نفحة الحرارة ونفحة النور ، فإذا الأكمام تفترّ ضاحكة عن زهر غض وورد بهيج .

صادفت ريحانةُ قلبى مثل هذه العوامل . بدأت النبتة بذرة خفية ألقتها فى الفؤاد نظرة عابرة . فلم نحسبها أول الأمر شيئاً . لكن والدتى كانت كثيرة الزيارة لبيت أخيها . وكان زعيم قرية كبيرة فى هذا الإقليم من الريف . وهى من قريتنا قريب ، تبلغها المطايا فى دقائق . وكان هذا الخال أندى إخوته يداً وأرفههم عيشاً ، فلا عجب أن يسبقهم إلى العناية بتربية « عين » — فيرسلها إلى مدرسة أجنبية للبنات ، فترتدى الثياب الغربية وتلبس القبعة ، وتبدو فى هندام وشارة ، وفى رشاقة ودل — كانت زهرة القرية فى ذلك الزمان .

وأنا تلميذ بالمدارس الابتدائية ، أقضى أيام الدراسة فى القاهرة ، وعطلة العيدين والصيف بين الآباء والأخوال .

والبذرة قد نبتت فى قلبى الخالى ، لأنها لم تسقط فى أرض موات . نبتت وأريد لها السقيا من البستانية التى غرستها عفواً فى ذلك المكان . أريد منها أن ترويها وتنميها وتشاركنى فى رعايتها عن بينة . والكفيل بهذا كله — أن تفطن إلى حبى الوليد فلا تسخر ولا تنهر ، وأن تفطن إليه من غير حديث باللسان أو بادرة منى يأباها الاحتشام .

إنما أرجو منها إذا نظرت إليها أن تبادلنى النظر ، و إذا جلست إليها أن تستريح إلىّ ، و إذا قالت لها عينى « أحبك » قالت لى عينها « أرق لك وأعطف عليك » أما القبلة العذرية النقية فلم تتسام إليها أمنيتى فى تلك السن ، ولو تسامت ، لأوجب الحياء والحذر أن تدفن من توها فى بئر عميقة من الشجن الدفين ، و إذن سيكون حبنا شجواً لا يُبين ، وشعراً لا ينطق ، ومتاعاً بقربها ألتذه فوق كل متاع ، حتى متاعى بأحراز الشهادة الابتدائية ، ونصوع إسمى فى الصحف بين أسماء الناجحين .

قصـدت فى ركاب والدتى إلى القرية المحبوبة ، فأنعشتنى منها نسائم ما أظن الأستاذ الصاوى وجد مثل أريجها فى حدائق باريس، ولا الأستاذ زكى مبارك وجد مثله فى حديقته بسنتريس . ذلك وبيوت القرية — عدا بيوتاً تعد على الأصابع ، — مبنية من لبن نيئ ، مسقوفة بفلَقِ النخيل يعلوها قصب مضفور يغشاه ركام من قش وحطب ، وعلى قوادم السطوح تقوم أطواف من تلك الأقراص المشهورة ، يتخذها أهل الريف وقوداً للنار لا سماداً للمزارع . والمستنقعات والبعوض والذباب ، وموارد الماء القـذر ، هى بسمومها وأوضارها فى قرية الأخوال كشأنها فى قرية الآباء والأعمام .

غير أن شعاعة من ضيـاء الحب تسكن هـذه القرية . والشعاع ينفُذ الأوساخ ولا يتسخ .

وإذا نشـأت الحبيبة فى هـذا الدمن ، فـكما تنشأ اللؤلؤة فى الموضع المريض من سمك اللآلىء .

هذه هى — قرة العين التى لم تمتلىء منها إلا مرة منذ عام . يدى تنبض فى يدها ، ونظرتى تتصل بنظرتها ، وشفتاى تنبسان بشىء أريده تحية تسمعها الوالدتان والسيدات الأُخر . ولـكن لسـانى ينعقـد ، وأذنى لاتسمع همسى ، وأحس إجماعـاً فى نفوس الشاهدات على أن هذا « سلام عاشِقِـيْنِ »

ياللهول ! « عاشقين » ! وفى الريف ! وفى هذا البيت القديم المحافظ ! وفى سننا التافهة التى لا هى طفولة فتثير الضحك ، ولا هى شباب مكتمل ، فتثير الاهتمام . .

فإذا لم يكن هذا عشقاً بمعناه الـكثيف فماذا هو ؟

هو حب بمعناه الرهيف النظيف ، وحب الجمال محمود بل مفروض فى بدائع الفن ، محمود بل مفروض فى بدائع الطبيعة فـكيف يُستكره فيما تصوغه يد الفنان الأكبر ، من معجزات الحسن المجدد فى بنات الجميل آدم والجميلة حواء !

على أن والدتها وخالى لم يكرها لى ولها أن نتحدث بالنهار وأن نسمرُ بالليل ، مجتمعين بغيرنا أو منفردين .

وكذلك حاطتنا الأسرة بجو مهذب من الطمأنينة والثقة .

لقد احترموها واحترمونى ، فاحترمت نفسها واحترمت نفسى . ولو كان لأهلها أو أهلى أبصار كأبصار أهل الكشف ترى من وراء الحجب ، أو آذان كآذان سليمان تسمع حديث النمل أو ماهو أخفى ، لما استطاعوا أن يحصوا علىّ أو عليها فى سنوات حبنا العشر كلمة نابية أو حركة شائنة .

لقد كانت عبادة . . . عبادة لمن أبدع هذه الآية وأودعها سحرها العجيب .

ولم أكن أعبد فيها منْ أبدعها عن معرفة . إذ لم تكن فلسفتى فى الزلفى إليه تبارك جماله وحبه للجمال قد بلغت بعد هذه المرتبة .

و إنما عبدته فيها عن غير روية ، كالبلابل تعبده حين تغرد ، وكالأشجار تعبده حين تُثمر ، وكالشمس تعبده حين تضىء . و إن من الملحدين من يعبده عن غير قصد كلما أخذته روعة رائع من خلقه فى الأرض أو فى السماء .

***

تسألنى كيف كان جمالها و كيف كان سحرها ؟

أما جمالها فلو سألتنى عنه فى أوائل عهدى بحبها ، يوم لم أكن أعرف من اللغة ألفاظ الخد الأسيل ، والطرف الكحيل ، والشفة اللمياء ، والثغر النضيد ، ويوم لم أكن أعرف أن الخصر النحيل والغصن الرطيب الريان ، فى غير رَهَل ولاضمور — إذا اجتمعت لحسناء سميت هيفاء ، ويوم لم أكن أعرف أن عينها تشبه بالنرجس ، ودمعها باللؤلؤ ، وخدها بالورد ، وشفتها بالعناب ، وثغرها بالبَرَد — فإذا بكت وعضت على شفتها أمطرت لؤلؤاً وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد ، أقول لو سألتَني عن جمال حبيبتى قبل أن يبلغ معجمى من اللغة هذا المبلغ — لما أحرت جواباً ، أو لأجبتك « أحبها » — ولا أصف .

أما الآن وقد تبضعتُ من الألفاظ هذه البضاعة ، فهل تصرّ على أن أصف لك فتاتى من ناحية الجمال ؟ أما تخشى أن تَغرِق فى بحر خضم من اللفظ المحفوظ والقول المكنوز ، وأن يجىء الوصف صورة كاذبة لحسن صادق ، لا لشىء سوى كثرة ماتطغى الوسيلة التى هى البيان ، على الغاية التى هى الحقيقة ؟

حسبك أن تعلم أن شخصها كان وحدة من الحسن متناسقة ، لكل جارحة منها نصيبها السعيد من إسباغ الجمال على مجموعها المؤتلف ، ولو أخذك سحر عينيها لأتتك بَسْمتها بسحر مثله ، ولو أعجبك منها اعتدال الأنف ، لم تبخس فيها استدارة الأذن ، وإذا شغلك من جمالها جزء عن كل ، نادتك من الوجه كله صباحة ومن الجسم كله رشاقة ، وإذا نسيت فى زحمة هذه المحاسن شيئاً ، هتف بك : أنا هنا فاذكرنى .

***

وهى مع ذلك أكرم على نفسها من أن تتعمل إبراز المحاسن . ولو لم أرَ منها إلا عينها وثغرها لكفى بهما فتنة .

أى لغة باطنة لغة النواظر ! وما الأسرار المطوية فى هذه الألحاظ ! لو استطعنا لقضينا العمر فى نجوى العيون ! ونجوانا — أجد لذتها ولا أستبين فحواها .

أيكون للأرواح حوار فى الحب ، ليس له لسان سوى سكون الطرف ، أو رموز اللحظ ، أو وميض الحدَق .

وهذه الابتسامة الحلوة المُسعدة المُشقية ماسرها ؟ مسعدة لأن إشراقها يضىء الساعة ، مشقية لأن انطفاءها الوشيك نذير بأن لذات الحياة قصار .

ما أعذب تلك الأيام فى السنين ، وأعذب تلك الساعات فى الأيام .

***

الدهر يطوى الأيام ، والقلب يطوى العواطف ، شبت «عين» فتجاوزت نصف عقدها الثانى ، وبينى وبين الشهادة الثانوية عامان .

انقطعت «عين» عن الدراسة بحكم البيئة وضغط التقاليد ، وما كان أبوها ليسمح لها بالبروز إلى المعاهد ، وقد اكتملت أنوثتها ، ونضجت الثمرة ، ودنا القطاف .

وأنا أحبها . . . وماذا بعد الحب الشريف إلا الزواج .

أيصبر أهلها عن زواجها ست سنوات على الأقل ، حتى أتم دراساتى انوية وعالية !

محال . . . !

أأطلق علومى وكمال تكوينى وآمال مستقبلى لأتزوج الحبيبة « عين »
ماذا تكون يومئذ قيمتى عندها ، أو عند أهلها ، أو عند أهلى ، أو عند نفسى.

***

كبدى حرى من لواعج الشوق إلى «عين» .

إنى لا أزورها الآن إذا عدت إلى قريتى إلا قليلا .

إن فى عينيها الحبيبتين أسى أحسه وأراه ، وفى ابتسامتها ذبولاً يبكينى .

لهف نفسى من تصاريف القدر ، كانت حظوتى من حبها بمقدار حبى ، وإنها لتحس بأنى طيف بدا فى أفقها ، فأفرحَ قلبها عشر سنوات ، ثم اختفى على كره منها وكره منه ، ويل لأحلام الصبا من قسوة الحياة .

***

ليلة أمس . يا لحاك الله يا ليلة أمس . تناجى فيها الحبيبان نجواهما الأخيرة . . .
تحدثت الدموع فى هذا اللقاء ولم تتحدث الشفاه ولا العيون . تبادلا الزفرات ولم يتبادلا النظرات لأن الرأسين منكّسان والطرفين منكسران .

طلقات البنادق تدوّى فى « الدوار » على مقربة من بيت الحبيبة «المفقودة » .
وإنما تدوى حفاوة بعقد القران القاسى ـ قران «عين» بشيخ من ذوى الثراء فى إقليم بعيد.

ما أشد وجدى لفراق الحبيبة إلى الأبد .

وما أنبـل والدة العزيزة « الراحلة » . رقّتْ لى ولابنتها فأذنت لنا فى هذا الوداع الباكى .

والسيدات والخدم يحاولن أن يزغردن فتختنق حناجرهن لما يعترضها من شجا الحزن للحب المحروم .

ستكون حظيةّ الشيخ يضمها إلى حريمه كما يفعل الجبابرة فى القرون الوسطى .
ستضمها أحضان شيخ تفنى أيامه ولا تفنى شهواته . ليس لمثله متاع سوى متاع الحيوان حدّه فى الطعام أن يكتظ ، وحدّه فى الشهوات أن يموت .

وداعاً «ياعينى» المسكينة ، وداعاً ياحلم الصبا الغرير — ياظبية شادنة قد احتواها حيوان هرم .

***

خمس سنوات قضيتها فى أوربا حافلة بالفوائد والمتع . عرفت من ألوان الحضارة جديداً ورشفت من مناهل العلم عذبا . وأنا مع ذلك أحن إلى وطنى حنين اليتيم إلى أبويه . نيلنا الوفى سيد الأنهار وينبوع الحياة فى وادينا الأمين . أرض بلادنا السخية ، وحقولها السندسية ، وشمس الشتاء فيها ، وضوء القمر . وبر والدتى وإشفاق أبى ، وولاء إخوتى ، وعطف أهلى وعشيرتى . . والمسكينة «عين» فى جمالها المسلوب وشبابها المنكوب !

كل أولئك ماثل بين الجوانح فى حلى وترحالى ، وهو حديث نفسى بالنهار وأحلامها بالليل .

***

ماتت المسكينة «عين» ماتت مِيتَة لم يمتها أحد من قبل ، ومأأظن أن سيموتها أحد من بعد .

عدت إلى مصر منذ شهر . وكان زوجها قد توفى قبل عودتى بقليل . فعكفت على أطفالها الثلاثة فى دار أبيهم ، حتى انتقلت أمها إلى رحمة الله أمس الأول .

وقصدنا إلى قرية الخؤولة للتعزية . وعللتُ النفس بأن أرى « حلم » الصبا ، فأعرب لها عن عزائى وشوقى ، عسى ذلك أن يخفف عنها البلاءين — بلاء الزواج الممقوت ، وبلاء محنتها فى أمها الراحلة .

فبعد أن قضيت فى تعزية الرجال ساعة ، قصدت إلى الدار لأعزى السيدات والحبيبة « المفقودة » .

توسطت جمعهن ، فاستقبلتنى الخالات بالقبلات ، وأكثرهن لم يكن رآنى منذ سفرى إلى الغرب .

وبينا أنا وهنَّ فى ذلك ، إذا صوت غليظ تنبو عنه المسامع فالتفتُّ فإذا سيدة

لاعهد لى بها بين نساء الأسرة ، ولاصواحبهن ممن أعرف . وهى لحيمة الوجه لحيمة البدن إلى حد الافراط . . . ثيابها ثياب الريفيات الأقحاح من ذلك السواد الصفيق يتخذنه فى غير فن ولاذوق ، ولو عالجها الفن بالثياب المهذبة لاستعصى عليه بدنها المكتَّل .

وحددت إليها النظر إمعاناً فى العجب من هذا المخلوق الغليظ الصاخب ، فإذا صوتها يزداد إرعاداً ، و إذا بالرعد يناديني . . . ألاتعرفنى ياسى أحمد . . أنا «عين» .

***

ألم تمت «عين» ! بلى ! مات فيها الإنسان فاستفحل الحيوان واستكرش .

رحمة الله على « عين » — براً بالذكرى الغالية ، و بالحلم العزيز .

الوصايا العشر للشباب[1]

شباب كل أمة أملها الحبيب فى يومها ، وعملها الماثل فى غدها . هم اليوم غرس ونبات ، وهم غداً شجر وثمر .

والنبتة الصالحة ، والشجرة الفارعة ، والثمرة السليمة اليانعة ، لا تجود بها الطبيعة عفواً بلا رعاية ولا تعهد . كذلك حقل الشباب فى كل أمة ، تتولاه البيوت والمدارس والمعاهد — أو يجب أن تتولاه — منذ الطفولة إلى أن يستتم العقل رشده ، والجسم نموه ، والخلق أهبته لميدان الحياة .

لكن فرقاً أصيلا يميز نبتة الطفل والصبى والفتى من نبتة القمح والشعير مثلا ، أو نبتة النخيل والأعناب . وذلك الفرق الأصيل كمين فى خصائص النفس البشرية . وأهم خصائصها نعمة الوعى الذى يمكنها من إدراك نفسها و إدراك ما حولها . .

فهل لنا بعد هذا التمهيد أن ننصح ؟

وهل لنا أن نخص شبابنا المأمول بنصائح عشر لو أساغتها النفوس ، وتمثلتها القلوب ، وانعقدت عليها العزائم الفتية ، لبنوا لبلادهم مجداً جديداً ، وكانوا خير جيل يعتز به النيل ؟

١ — إحياء النزاهة :

أدوى أدوائنا فى عصرنا الحاضر إيثار صارخ لمصلحة الذات على مصلحة الجماعة . فهذا رجل يطلب المال ، وهذا آخر يطلب السلطان من أى سبيل يواتيه ، حلال أو حرام ، خسيس أو شريف ، حتى أوشكت النزاهة أن تكون « فقيداً قومياً » يبكيه المواطنون بدمع سخين . فمن لإنقاذ مصر من هذا الخطر الداهم غير حماسة الشباب للكرامة والشرف ؟

---

(١) أبريل سنة ١٩٤٦

٢ — تجنب المخدر القومى :

ومن أدوائنا الدوية إقبال الشباب على هذا المخدر القومى المشهور — أعنى وظائف الحكومة — وأقول « المخدر » وأعنى ما أقول ، فالفتى الذى يفيض حيوية ونشاطا ، يجب أن تأبى له همته الجلوس بضع ساعات فى الديوان ، وقضاء سائر النهار وطائفة من الليل فى نوم الأصيل ، ثم فى سلوة المقهى ، ثم فى سهرة المساء ، سادراً بين عبث القول وعبث العمل .

على هذا الأسلوب لا تنهض الأمة بشبابها ولا ينهض الشباب بأمته .

٣ — حياة الكفاح الحر :

أهِبْ أيها الشاب الأبى بزملائك وأترابك . قل لهم إن الحياة ليست كلها مرتبات وعلاوات ودرجات ، ومنافسة فى الأجر وفى المعاش فى ظلال الحكومات ، واطلب إليهم أن يخافتوا من أصواتهم فى هذا العراك الناشب بينهم حول وظائف المستقبل وألقاب المستقبل ومرتبات المستقبل ، فمثل هذه المعارك لاعهد لأحد بها فى بلاد الشرق أو الغرب ، وبخاصة يوم تكون الأمة بأسرها فى شغل شاغل بقضيتها الكبرى عن قضايا الطوائف وطلاب المعاهد ، وفى طليعة الآملين العاملين هذا الشباب !

٤ — إحياء تجارتنا :

وهذه تجارتنا ليست جلها فى أيدينا ، وهى ميدان فسيح لجهود الشباب ، وليس يكفى أن نغضب من لافتات الحوانيت وبيوت الأعمال لأنها مكتوبة بالحروف الأجنبية ، فلو كتبت بالحروف العربية مضخمة مفخمة ، دون أن يعنى شبابنا بالجوهر وهو أن يجاهد جهاداً منسقاً مدروساً ليحل فى غده ، بعلمه وعمله ، محل أولئك ،

فى مجال المنافسة الحرة ، لذهبت صيحات الشباب مع الريح ، ككل صياح لا يصحبه أو يعقبه عمل مثمر .

سيقولون وأين رأس المال ؟ فنجيب : وكم كان رأس المال الذى نزلوا به ديارنا يوم جاءوا أصفارا فأصبحوا أرقاماً كبارا ؟

٥ — إحياء صناعتنا :

وصناعاتنا ضئيلة ، ولو عقد الشباب عزمه على أن تكون مصر فى الغد بلداً صناعياً ، لاستطاع . وإن حداداً أو نجاراً يبيعك سلعة متقنة بربح حلال ، لأرفع منزلة عند الله والناس — أو عندى أنا على الأقل — من صاحب لقب ضخم ، فى مكتب فخم ، لا يبيعك إلا جعجعة فى غير طحنة ، وكلاما فى غير عمل . . فما بالك بالشباب إذا عقد العزم على أن يكون جيلا صناعياً ، لا يترك فى أرض مصر فلذة من معدن ، ولا قطرة من نفط ، ولا مسقط ماء فى نهر ، إلا اتخذها أداة لإحياء مصر الصناعية ؟ .

نريد للشباب أن يكون شباب تجارة وصناعة وزراعة ، لا شباب تناحر رخيص على وظائف قد يكسب أضعاف أجرها سائق سيارة مأجورة .

٦ — وإحياء زراعتنا :

وزراعتنا ما زالت بحاجة إلى الترقية والتنويع ، وما زالت ضياعنا وحقولنا بحاجة إلى الصناعات الزراعية التى بحت الأصوات فى الدعوة إلى إحيائها دون مجيب ! .

فهل للشباب أن ينهض هذه النهضة ؟ هل لولد الغنى الذى يملك مئات الأفدنة ألا يحتقر عمل أبيه ، وأن يتوفر على إتقانه وتنظيمه والزيادة فيه ! وهل ينصرف عن تفضيل المدينة ولهوها ، أو ندوتها وديوانها ، على تنمية ثروته ، وتعهد عماله وعشيرته ، والارتفاع بريف مصر إلى الحدائق والجنات التى يسمو إليها الريف فى بلاد الغرب !

٧ — حياة الأقدام :

إنما يبلغ شبابنا ما نريده له من قوة النفس وكمال النضج يوم يؤثر العمل الحر الشريف ، ولو كان عرقاً يتفصد منه الجبين ، وسعياً تدمى له الأقدام ، على حياة الترف الناعم والدعة المميتة التى طالما أهلكت نفوساً وأودت بأمم .

ولن يضطلع شبابنا بأعباء غده ، وتبعات زمانه ، إلا أذا راض نفسه منذ اليوم على مجابهة الحياة فى أخشن مسالكها ، وأوعر سبلها ، ليخرج من هذه الرياضة شديد المراس ، قوى العزم ، سريع المضاء .

٨ — ووسائلكم العلم :

و إنما يبلغ الشباب ما نريده له من قوة النفس وكمال النضج ، يوم يغار على نصيب مصر من علوم العصر الحديث ، غيرته الأبية المحمودة على نصيبها من السيادة والحرية ، ويوم ينادى بجلاء الجهل الممقوت نداءنا جميعاً بجلاء الاحتلال الممقوت .

وما أريد بالجهل مجرد جهل القراءة والكتابة ، و إنما أريد تخلّف علمائنا فى كل فرع من فروع العلم الحديث ، الذى يطفر فى كل ساعة طفرة ، عن نظرائهم فى أوروبا وأمريكا . فها نحن أولاء نسمع كل يوم بكشف خطير لسر من أسرار الطبيعة ، أو عناصر المادة . وقصارى أهل التخصص من رجالنا أن يسمعوا بها كما نسمع ، أو ينقلوها إذا استطاعوا نقل تقليد ، لا نقل تجديد .

فهل يطمح شبابنا من طلاب العلوم على اختلافها إلى أن يكونوا فى غدهم طلائع بين الباحثين الكاشفين ، لا مجرد ذيول تابعين !

٩ — للحياة غاية :

و إنما يبلغ شبابنا ما نريد له من قوة النفس ، وكمال النضج ، حين يؤمن بأن كل فتى وفتاة إنما يعيش فى هذه الدنيا لغاية سامية . وهذه الغاية منوطة بك

أيها الفتى ، معهودة إليك أيتها الفتاة ، تلتمسان النور لوجدانكما لتضيئا ما حولكما ، وتلتمسان القوة والصحة لتفيضا على ما حولكما صحة وقوة ، وتزدادان على الأيام رقياً فى النفس ، ونقاء فى الضمير ، وقدرة على خدمة البلد الذى بعثتما منه وفيه .

وعلى هذه الصورة لا تعلوان فى ذات نفسكما إلا على قدر إعلائكما للعشيرة والوطن .

١٠ — استعينوا بالملك وأعينوه :

أيها الشباب المصرى الكريم . إن أجدادكم من قدماء مصر عاشوا ألوف السنين سادة الدنيا وأساتذتها بالعلم والفن والقوة البالغة الخيرة .

وإن آباءكم من العرب فى صدر الإسلام بنوا مجدهم على الرجولة والأخلاق وكبار المساعى . ثم أحيوا دولة العلم وأضاءوا ظلام القرون الوسطى فى بلاد الغرب وقد أطبقت عليها غواشى الجهالة .

واليوم يناديكم تاريخكم المجيد المزدوج : أن اتخذوا الفاروق لكم قائداً إلى عل ، وإلى أمام . وما أجدر أمة يلتف جيلها الفتىّ الطموح ، بملكها الطموح الفتىّ — ما أجدرها بالفلاح والتوفيق .

(١)

علمتنى الحياة

علّمتنى الحياة قيمة ما يضيع من أيام الشباب ، ولو تحققت لى أمنية من قال : « ألا ليت الشباب يعود يوماً » — لما أخبرته بما فعل المشيب من توهين عظامى ، أو تعجيز حطامى عن أن أثب وثوب الأسد ، أو أن أطفر طفور الغزال . كلا ، لو يعود الشباب يوماً لما أخبرته بشىء من هذا ، ولا بأن المشيب قد نفّر الحسان من تغضّن سحنتى ، وانحناء قامتى ، بعد إذ كنت سمهرى القد بهىّ الطلعة ، قذًى لعيون الناظرين — من الحسد ، وقرة لعيون الناظرات — من الفتنة ! لأنى أترك هذه الحقائق وأمثالها لصديقى فلان ، يذكرها لأيام الشباب إذا عاودته بعد خمسين عاماً من العمر الموفور إن شاء الله .

أما أنا فكنت أقول للشباب إذا عاد : مرحباً بالكنز النفيس الذى أضعت فيما مضى أكثره سُدًى ! لو كنت أعلم فى شبابى الأول — ياشبابى « الثانى » — ما أحرزتُه الآن من التجارب والعبر ، لحصلت من العلوم والفنون ، وعودت نفسى من الخلال والشيم ، وأكسبت جسمى من العافية والصحة — ما حال بينى وبينه جهلى بأن أيام الشباب هى الدعائم التى عليها يقوم صرح مستقبلى أو كوخه ، وخصبه أو جدبه ، وجلاله أو هوانه .

أجل ! لو علمت فى شبابى الأول قيمة الثقافة ، لما أنفقت ما أنفقت فى قراءة التافه المبتذل الذى إن لم يضر فلا ينفع . ولو أيقنت يومئذ بما أوقن به اليوم ، من أن حضارة العصر حضارة علم يتناول ذرات الأرض وأفلاك السماء ، وما بينهما ، بالتحليل والتحقيق والتدقيق ، حتى ليصبح البون الشاسع بين العالم والجاهل بأسرارها وطبائعها ، كالبون الشاسع بين الناس والقردة — لو أيقنت يومئذ بهذا إيقانى به اليوم ، لسلكت نفسى فى زمرة طلاب العلوم ، أتعرف النبات والحيوان والإنسان ، وأتعرف

---

(١) نشرت فى ١٩٤٦

تلك الخفايا التى تضمرها الطبيعة ، وفيها تكمن عظمة الأكوان ، كما تضمر الأمهات أجنتها ، وفيها تكمن عظمة الإنسان .

ولو عرفت يومئذ أن أكثر الفضائل عادات طيبة تتعودها أنفسنا فى الصغر ، وأن الرذائل عادات سيئة ترسخ فينا بتكرار السيئات ، لحذرنا أول منكر نأتيه ، لأن انزلاقنا إليه أول مرة ، قد يغرينا بالمرة الثانية ، ثم تكون كل ذلة أهون على النفس من سابقتها ، حتى تستحكم العادة ويعز الخلاص .

ألا ليت الشباب يعود يوماً ، وتصحبنى إليه تجاربى وعلمى بالحياة ، إذن لاستغفرته من جهلتى الأولى ، ومن طيشتى الأولى ، ومن تقصيرتى الأولى فى واجب ، ومن احتسائى لأول كأس ، إن أكن من الشاربين ، أو إشعالى لأول لفافة إن أكن من المدخنين !

إذن لصنعت نفسى من جديد صنعاً متيناً حصيناً ، تعظم به الأفراد وتعلو به الأمم.

***

وعلمتنى الحياة أن أزن النجاح بوسائله ، لا بثمراته . هذا من أهل الثراء يملك الملايين ، وذاك من دنيا المناصب فى « عليين » . لست أحفل بهذا ولا ذاك ، إلا أن تكون صفات نفسه — أعنى محاسنها لا مساوئها — هى التى آتته ملايينه أو أحلته منصبه . وإنى لأرى الفقير الكريم فأحتفى به حفاوتى بالنفس الفاضلة ، وأرى الغنى اللئيم الذى كسب ماله أو بعض ماله عن طريق يأباها الضمير ، فأزوى عنه وجهى أو قلبى ، كما أزويه عن كومة من الذهب المسروق .

على أن من الناس ، بل قل : على أن أكثر الناس ، يكبرون صاحب المال من حيث هو صاحب مال . كعباد عجل الذهب على عهد هارون . وعندى أن عباد عجل « أبيس » كانوا أقرب إلى الله من هؤلاء ، لأنهم كانوا يعبدون فى العجل الحى مصدر الحياة والإحياء ، أما الآخرون فكانوا يعبدون معدناً جمداً أصم لا حياة فيه .

علمتنى الحياة إذن أن أزن الناس بما تحتوى أنفسهم لا بما تملك أيديهم أو تحتوى

خزائنهم . وليس ذلك حسداً لأهل الثراء ، أو جنوحاً إلى الشيوعية ، ولكنه تقديم للجوهر على العرض . والجوهر شرف نفسك ونبل قلبك ، وتقصّيك وسائل الكسب النزيه فى السر والعلانية ، حتى إذا نجحت وسائلك من طريق النزاهة والشرف ، وأحرزت من دنياك ماتبتغى ، عدت على مرافق بلادك ومفاقرها ، وأسهمت فى عمرانها ومفاخرها ، بما يجعل ثروة شخصك ينبوع رخاء لبلادك ، ويجعل لنعمتك التى أنعم بها عليك جدك ودأبك — مصدر نعمة للمجتمع ، الذى لولاه ما كنت أنت، ولا كانت لك ثروة أو عزة أو جاه ؟

ولقد يكون الفقر أحياناً رمزاً إلى الكرامة والشمم . وذلك إذا عرَضْت للفقير وجوه الكسب ، بل وجوه الثروة العريضة أحياناً فيأباها ، لأن وسيلتها مشوبة بشبهات لا يطمئن إليها ضميره . هو فقير ، ولكنه آثر الفقر على الترف والسعة ، فى حرج من الوجدان . هو الفقير الغنى . والآخر هو الغنى الفقير . يقول شكسبير : « ما المال ؟ عارية عابرة ، تكون اليوم فى جيبك ، ثم تفارقه غدا إلى جيبى ثم تعدوه إلى جيب غيرى — دون أن يمس ذلك أنفسنا بسوء . أما الشرف ، فتلك هى الجوهرة التى إن فارقتنا يوماً فلن تعود » .

علمتنى الحياة ، أن أتحسس فى الناس معادن النفوس ، فمن كانت نفسه من خزف لم أقومها إلا بقيمة الخزف ، ولو كان جسمه وبيته وخدمه وحشمه من لؤلؤ وماس .

وعلمتنى الحياة أن أقيس أصحاب المناصب والمراتب ، لا بعلو الكراسى ولا بسعة النفوذ ، ولكن بعلو الهمم وسعة الأفق والتسامى عن الصغائر والحقارات .

***

وعلمتنى الحياة أن الناس ضيَّقوا رحاب الحب ، حتى ضاقت بهم رحاب السعادة .

فى أكثر القصص التى يقرؤها أبناء هذه الحضارة ، وفى أكثر المجلات والصحف ، وفى أكثر ما تشهده فى المسارح وعلى الشاشة البيضاء فى الشرق والغرب — حب وهيام ، وحب ودماء ، وحب ودموع ، وحب هازل ، وحب جاد — ولكن أكثره محصور فى نداء الغريزة ، وفى إرضائها أو محاولة إرضائها بألف سبيل وسبيل

ولو أضاف سكانُ الأرض سكانَ المريخ ، لأخذهم الدهش منا نحن أهل هذا الكوكب ، ولظنوا حين يرون ما نرى من الاتجار بغريزة الجنس فى أكثر ما نقرأ وما نشهد — أن أبناء حواء وآدم ، لم يرثوا عن أبويهما سوى هذا الطراز من الحب البدائى ، الذى لافضل فيه لإنسان على حيوان .

نعم هو جزء حيوى من طبيعتنا ، لكنه ليس كل طبيعتنا ، وهو نوع من الحب العابر الموقوت ، لكنه ليس كل الحب ، ولا هو أبقى أنواعه وأنقاها وأصفاها .

حب الأبوة والأمومة والبنوة — أين هو فى هذا الخضم المصطخب، من النزعات البدنية الدنيا ؟ إنه مغرَق ، أو يكاد يكون مغرقاً ، فى بحر لجى من الشهوات، فى القصص وعلى المسارح والشاشة البيضاء أو السوداء ؟

حب الإنسان للإنسان من حيث إنسانيته و إخاؤه . لا من حيث ذكورته أو أنوثته — وحب المواطن للمواطن والجار للجار والغنى للفقير والقوى للضعيف — حب الجمال فى النور إذا محا الظلام ، وفى الطبيعة إذا زانها الربيع ، وفى المبدع الأعلى لبدائعه ، وفى البدائع لمبدعها الأعلى !

أين الجداول والأنهار ، والحب الشامل ذو القنوات ، يجرى بالعذب الفرات من الرحمة والعطف إلى كل قلب يتوجع وروح تظمأ ؟

طغت عليه غريزة الجنس فكأنما الدنيا كلها ذكور ليس لهم إلاخصائص الذكور وأناث ليس لهن سوى خصائص الإناث — أما صفات الإنسان المشتركة بينهما، المتسامية عن التفريق والتخصيص ، فيكاد الناس يجعلونها فضولا لا غناء فيه ولا حاجة إليه .

لكن الحياة علمتنى أن هذه الحضارة الحديثة إذا لم توسّع رحاب حبها وترتفع بمستواه ، دون غض من غريزة الجنس فى نطاقها الكريم المشروع — فلن يزال الإنسان تعوزه السعادة بقدر مايعوزه من آفاق الحب الروحى الرفيع .

المزواج والمضرب عن الزواج[1]

لعلكم تذكرون ما أريد بهذه اللمحات : أريد بها توجيه شيء من النظر والتفكير ، إلى بعض مانشهد فى حياتنا اليومية ، من أمور ، قد تبدو لنا هنات هينات ، لا تستحق حديث المتحدث ، ولا استماع السامع ، وهى فى الحق جديرة بأكثر من الحديث وأكثر من السماع ، جديرة بالعناية مضاعفة ، والاهتمام جداً ، لأنها وثيقة الصلات ببناء المجتمع ، بعيدة الأثر فى تقوية ضعفه ، وإضعاف قوته .

ولمحاتنا تتجه وجهة طالما لُفِتتْ إليها الأنظار ، وتناولتها الألسن والأقلام ، أعنى موضوع الزواج ، لذلك أخشى أن تنبو أسماعكم عنه ملالة وضجراً ، إلى أن تتفضلوا فتصبروا قليلا ، عسى أن تجدوا فى غضون الحديث نفحة من طرافة وجدّة ، تذهب عنكم السأم ، وتجعل من هذه الدقائق ترويحاً وسمَراً ، إلى ما قد يكون فيها ، من نفع وثمرة .

***

منذ شهر أو بعض شهر ، بعث المحسنون من أهلى ، فى ريف مصر الكريم إلى منزلى بالقاهرة ، فتاة فى الثامنة عشرة من العمر ، كيما تعين على خدمة البيت ، وقد علموا من أزمة الخدم فى المدائن ما تعلمون . والفتاة على شيء من وضاءة الوجه ، ونضارة الصبا . وهى ومثيلاتها بين الأسر ، ودائع طاهرة يجب أن تصان ، وأمانات فى الذمم يجب أن ترعى . ففتاتنا إذا برزت فى بعض شأنها ، أو شؤون المنزل ، لم تخرج إلا ومعها زميلةٌ ثقة ، تكبرها سناً وتجربة . لكن حدث ذات يوم أن صحبت الفتاة طفلين صغيرين ، إلى متنزه يقع إزاء دارى ، ليس بينه و بينها سوى عرض الشارع ، وأرجو أن لا تبحثوا أهذان الطفلان من أبنائى ، أم من حفدائى : على أن من قال « أعز الولد ولد الولد » لم يبالغ كثيراً . وينقضى يوم واحد على نزهة الفتاة ورفيقيها الصغيرين ، ثم يزف إلينا نبأ تتلقاه الفتاة فى ظاهر من الحياء والخفر ، تحته باطن من السرور والتيه ، ذلك أن خاطباً يريد أن يخطبها إلى ولى أمرها فى المدينة : أعنى محدثكم .

---

(١) أذيعت فى سنة ١٩٤٦

لعله خير ! نعم ، إن الفتاة لم يكتمل تدربها على تعهد منزل . لكن لا بأس بما تعرف . إن لها معرفة بالطهى . وهى تغسل الثياب فتحسن ، وتكويها فتحسن ، ولها مرانة على تجهيز المائدة والقيام بأمرها وعلى تنظيف الغرف ، وتنسيق الأثاث ، ولها فوق هذا كله تاج ثمين تزينه درتان : بساطة ونقاء ! .

قلنا لأنفسنا ، والله لو كان الخِطب لها صالحاً ، وبها جديراً ، لآثرنا لها الهناءة فى دارها على العمل فى دارنا ، ولأسهمنا فى إسعادها بنصيب .

وضربت للخِطب موعداً استقبلته فيه . جاء ومعه صاحب دكان قريب يبيعنا لفائف التبغ وأعواد الثقاب ، وما تحتويه فى العادة متاجر الطباق من ملحقات . قريت الضيفين بفنجانتين من القهوة وبدأت الاستجواب .

هو فى أواخر عقده الرابع . يعمل فى إحدى المكتبات الحكومية خارج الهيئة . مرتبه مع علاوة الإنصاف خمسة جنيهات . كانت له زوجة من بنات عمه رزق منها طفلا ، وطلقها منذ أربعة أشهر ، فعادت إلى أهلها فى الصعيد . إنه لايخشى أن تتقاضاه نفقة لأن المطلقات من نساء الصعيد يأبين مطالبة المطلقين بشىء من حقوقهن أو حقوق أطفالهن تعالياً وشمماً. أما تعاليه هو وشممه هو فإنى لم أسأله عنهما ، لأنى لم أرد إرهاقه فى دارى . وإنما أردت أن أصرفه بالتى هى أحسن ، فطلبت إليه أن يوافينى بتاريخ مكتوب عن أصله وفصله ، واسم أقليمه وبلدته ، وما الذى حمله على خطبته . وفى الغد مررت بتاجر التبغ لأشترى ما أدخن ، فتقدم إلى شخص ، قال التاجر إنه من رجال البوليس السرى . تفضل رجل الدخائل والأسرار فأفضى إلىّ بمعلومات جديدة هى أن لذلك الخِطب زوجة أخرى ، لاتزال فى عصمته ، ولكنها غضبى لا تساكنه منذ عام ونصف عام . وإنما تطوع رجل الخفايا والأسرار بهذه الخدمة الخيرية حتى لاتقع الفتاة البريئة فى فخ هذا المزواج المطلاق . وهى فى حِمى رجل يعرف له حضرة المنقذ المتطوع من الصفات والخدمات كيت وكيت — فما كاد يسمع بأمر هذه الخطبة من حضرة التاجر ، حتى جد فى البحث والتنقيب ، إلى أن عرف ماعرف ، وها هو ذا يبادرنى بالتقرير والتبليغ .

وفى اليوم التالى جاءنى من حضرة الخِطب كتاب طويل جداً ، ضخم الحروف مزخرف العبارة — بصرف النظر عن قواعد النحو وما إليه — وهو تاريخ مفصل لأسرته ونشأته . ناس طيبون من أواسط أهل الصعيد . ينتهى الخطاب بالعبارة الآتية :—

« وأما من ناحية مخطوبتى ، فكيف وقع عليها اختيارى نظراً لأنى « قاطناً » بجواركم ، دائماً أتردد بالمنتزه . ففى أحد الأيام كنت خارجاً من مسجد كذا بعد صلاة المغرب وإذا بهذه الفتاة تسب وتشتم أحد المارة بقلب قوى فعرفت أن أحد الشبان كان يغازلها فأيقنت أنها على جانب من العفة وليست من الفتيات الساقطات ، فسر قلبى لمثل هذه الفتاة ففكرت أن أقدم على سعادتكم لأحوز هذا العفاف النادر فى مثل هذه الأيام التى اختلط فيها الحابل بالنابل وأصبح الناس لايفكرون إلا فى جمع المادة بأى طريق غير مشروع ، فلا حول ولا قوة إلا بك ياعلى ياعظيم وختاماً تفضلوا » — إلى آخره ! .

* * *

هذه طبقة العاجزين عن تبعات الزوجية ، وهم عليها يهجمون ، وبحقوقها يعبثون ، وفيها يسرفون . ولولا أن عددهم يتناقص ، وخطبهم يتضاءل ، بما ينتشر من أسباب الوعْى والمعرفة فى صفوف السواد لخشينا الخطر كل الخطر على مجتمعنا من هذا العبث الذى يقضى على كرامة الأبوة وحرمة الأمومة وبر البنين وعزة البنات .

لكنه خطر آخذ فى الزوال بحمد الله ، وآية ذلك مانراه من إعراض المعاصرين عن تعديد الزوجات إلا فى القليل النادر، بهذا يشهد الإحصاء ، كما يشهد العيان بأن الفتى المستنير قل أن يقدم على الزواج فى زماننا الحاضر ، إلا بعد تروية وتفكير ، وحساب عسير ، مادخله اليوم ؟ وماذا ينتظر أن يكون فى الغد وما وسائل إنفاقه على البيت والخدم وعلى الزوج والولد ؟. حتى أصبح خوفنا من غلو الشباب فى التشاؤم والاحجام ، يزيد على خوفنا من غلوهم فى التفاؤل والاقدام . بل إحجامهم ملحوظ بالفعل منذ سنوات ، حتى نجمت فى مجتمعنا ناجمة رهيبة يسمونها أزمة الزواج لها أسباب كثيرة لكن أهمها وأكبرها لاريب ، مسألة اليسر والعسر . مسألة الوسائل والنفقات .

فإذا صح ذلك فما بال كثير من أبناء مصر المثقفين المرزوقين الموفورين القادرين على تكوين الأسر المثالية من زواج هنىء وعيش رغيد ، وذرية سليمة من الأمراض ما استطاعت العناية واستطاع الطب ، مبرأة من الجهل ما استطاع المربيات والمربون والمعلمات والمعلمون ، منزهة عن الصغائر والرذائل ، ما استطاعت البيئة العالية والمحيط الكريم ، ما بال هؤلاء القادرين على إسداء هذه اليد العظمى إلى الوطن بالزوجية الصالحة والأسرة النقية والذرية الزكية القوية ، ما بالهم لا يقدمون ؟ إنها تكون نعمة على مصر من حيث هى نعمة على أنفسهم . فلماذا لا يقدمون على خطبة الفتيات المثقفات من أهل البيوت الطيبة ، وهى تحصى بالألوف ؟ لايفعلون لأنهم يجهلون تبعات الحياة ، إذا كان صاحبنا المطلاق المزواج يجهل تبعات الزواج . بل جهلهم أشد إيذاء من جهل صاحبنا المسكين . ذلك بأن مسلكهم لو عم الدنيا لأورثها العقم والعدم . فأما مسلكه فلو عم الدنيا لأورثها نوعا من الفوضى قد يصلحه مرّ الزمان ، وارتقاء الوعى والمعرفة .

إن التبعة التى غرستها الفطرة فى كل كائن حى ، هى أن يستديم نوعه . تلك جبلة يستوى فيها أدنى الخلائق ، من ذوات الخلية الواحدة ، وأسمى خلق الله من رسل وملوك وعظماء . ولكنها فى الحيوان الأدنى آلية جبرية . فأما فى الإنسان فقد كرمت بموهبة العقل والاختيار — فهل يكون العقل فى الإنسان مصدر فنائه على حين تكون الغريزة فى الحيوان مصدر بقائه ؟ لو أخذ الناس كلهم إخذ هؤلاء المضربين عن الزواج لفنى الناس . لذلك نعود فنسألهم ماذا يحملهم على الإضراب عن نصيبهم فى بناء مصر الحديثة ، بما يضربون عن نصيبهم فى انشاء الأسر المصرية الجديدة ؟ أيقولون ما قال أبو العلاء « هذا جناه أبى على ، وما جنيت على أحد » — باطل فى باطل . إن أبا العلاء لم يقل هذا القول ليتخذه أبناء القرن العشرين من خريجى جامعات مصر والغرب منهاجاً وديناً . لم يقله أبو العلاء إلا وهو ضائق بالدنيا ، يائس من بهجتها ، لعلل فى جسمه وعلل فى نفسه . وليس أصحابنا بالمرضى ولا اليائسين بل يملأون الأرجاء ضجيجاً ومرحاً وطرباً . ولم يقله أبو العلاء إلا وهو أشبه بالنساك

الزاهدين . وما بأصحابنا من زهد ولا نسك ولاورع . أقول قولى هذا وأستثنى كل رجل مسؤول له عذر قائم وحجة ناهضة. فقد يكون من القادرين على الزواج الممسكين عنه شقيق شفيق يقف حياته على إسعاد أخت له أيم ، أو أخ له يتيم ، وهو يخشى إن تزوج أن تشوب سعادته شائبة — وذلك هو الإيثار فى منتهاه .

إنما نريد من لا دافع له سوى الأثرة الرخيصة والمتاع المبتذل . نريد من يهرب من احتمال التبعات وهو عليها قادر ، نريد من لا يرى نفسه جديراً بأن يكون والد لمواطن مصرى يملأ فراغه فى أرض الكنانة بعد موته ، ويحيا فيها ، فيزيدها حياة ، ويمدها بأسباب البقاء . يرفع راية النصر فيها يوم الجهاد ، وراية المجد والسؤدد يوم السلام .

سعد زغلول والخطابة [1]

ربما كان الأستاذ محمد توفيق دياب أول من درس فن الإلقاء فى بلاد الغرب من شبان مصر وقد مارسه هنا فى جملة محاضرات أظهر فيها كفايته وتفوقه فى الخطابة . وهو فى هذا المقال يقفنا على بعض أسرار هـذه الصناعة التى سنحتاج إليها كثيراً كلما تقدمنا فى مضمار الحياة النيابية .

المحـرر

إذا تحفزت الأمم للنهوض بعد الفتور ، أو ثار ثائرها حفاظاً وغيرة على حقوقها وكرامتها بعـد الخضوع ، فيومئذ تغلى القلوب غليان المراجل ، ويومئذ تنفتق الألسنة بالخطب الحارة تعمل فى المظالم كالبراكين. وليس فى التاريخ صفحة من نهضات الشعوب أو ثوراتها إلا وفيها من آثار الخطباء نور ونار: نور الهداية إلى الحق والإقناع بوجوبه: ونار الحماسة للحق والاستبسال فى سبيله . يومئـذ تتعلق مصائر الأمم بألسنة الخطباء فلا يصدها عن الغاية أحياناً سوى قوة من البطش الغشوم — ولكن إلى حين .

ولقد كانت مصر فى فترة أو شبه فترة حتى سنة ١٩١٩ ، فكانت الخطابة كذلك فى فترة أو شبه فترة . وإنما كان الصوت الذى يتردد صداه فى الأرجاء بين حين وحين هو صوت المرحوم مصطفى كامل باشا . لكنه على قـدرته الخطابية وفؤاده المتأجج لم يبلغ مراده ، لأن رجة الحرب الكبرى لم تكن قد هزت مصر تلك الهزة العنيفة التى أيقظتها من سُباتها منزعجة . فلما أيقظتها الكارثة العالمية تفتحت عيونها تنظر ما حولها من دماء سالت أبحراً فى سبيل الحرية وإعزاز الإستقلال . هنالك أحست مصر أنها أمة ويجب أن تكون كالأمم : أنها شقية ويجب أن تكون سـعيدة ، أنها مستعبدة ويجب أن تكون حرة ، أنها تعامل معاملة القصَّر المملوكين ويجب أن يعترف لها العالم وانجلترا ببلوغ الرشد والإستقلال .

شعور عام بلغ من الحرارة درجة الغليان . ولابد لهذا الشعور الملتهب من ألسنة فصيحة عضبة — وقد كان — تعددت المنابر وانطلق المداره وانبرى الشباب والشيوخ

---

[1] (١) الهلال سنة ١٩٢٦

والعذارى من ربات الخدور والعقائل من مكنونات القصور — انبرى هؤلاء جميعاً يخطبون الجماهير فى المجامع والحفلات ، وفى الميادين العامة أيام المظاهرات القومية الكبرى ، فكانت أصوات الأوانس من طالبات المدارس تختلط بعقائر الشبان من طلاب الأزهر والمدارس الثانوية والعالية . وكان لكل قرية خطباء من أبنائها ، ولكل مصنع خطباء من عماله ، ولكل هيئة من هيآت مصر أفئدة تفور وألسنة تقول .

لكن منذا يكون خطيب مصر الأكبر ؟ منذا ينبغى أن يكون صوته فوق الأصوات وقلبه مداد القلوب ، و بيانه الخطابى مثالا للبيان ؟ كل الناس يخطب وكلهم يتفاصح . لكنهم فى ضعفهم وقوتهم سواسية . ليس يمتاز بعضهم من بعض بميزة بارزة تخضع لها الرقاب . والوقت وقت ثورة شاملة . ويجب لكى تنجح أن يرتفع صوت هائل يسمعه أبناء مصر فيتأثرون به وينقادون إلى الغرض الأسمى . تلك هى القيادة العليا ، قيادة القلب العظيم المستقل ، والصوت الذى إذا علا علت معه الآمال وقويت العزائم واشتد الكفاح . منذا يكون خطيب مصر الأكبر فى يوم محنتها الكبرى ؟

كان سعد رئيس الوفد منذ بداية الثورة . فكان طبيعياً أن تتجه إليه الأبصار حين اشتدت الحاجة إلى خطيب عظيم . كيف لا والوفد لسان الأمة وسعد لسان الوفد .

نظرية سليمة . لكن ... لكن هل يحققها بالفعل سعد إذا التفّت عليه المحافل وأحاط به ألوف السامعين المتلهفين العِطاش الى الحماسة والإلهام ... من يدرى ؟ ثم عاد سعد من أوروبا عودته الأولى . واستقبلته الأمة بما لم تستقبل به أحداً من الملوك أو القياصرة فيما نقل إلينا التاريخ . ومنذ بلغ الثغر وغادر السفينة والتفت به عشرات الألوف من المستقبلين ، لم يعد سعد رئيس الوفد فحسب ، بل انعقدت له فوق زعامته السياسية زعامة نفسية أخرى هى أبقى وأمتن . زعامة الخطيب العبقرى الفذ ، زعامة العاطفة القوية الجبارة تنقاد لها عواطف السامعين ، زعامة النفس الحساسة الفوارة ، يبكى السامعون لبكائها ، ويضحكون لضحكها ، ويثورون لثورتها ، حتى ليهون عليهم بذل الحياة راضين .

لكن كيف انطوى هذا السر العظيم فى جوانح هذا الشيخ العظيم حتى

سنة ١٩١٩ ؟ نعم لقد كان محامياً ممتازاً ومستشاراً ممتازاً ووزيراً ممتازاً ووكيلا للجمعية التشريعية ممتازاً فصيح العبارة قوىّ الهجوم قوى الدفاع . بيد أن هذا البعد الشاسع الذى يفصل اليوم بينه وبين كل قائل وخطيب فى العالم العربي لم يكن مشهوداً قبل أيام الثورة . فأين كانت موهبته الكبرى التى امتلك بها نفوس ألوف الألوف من مواطنيه .

كانت قوة كمينة أثارتها محنة الوطن . كانت سراجا ينقصه الثقاب ليشتعل وينير . وقد كانت الثورة القومية ثقابا لهذا السراج فاشتعل وأنار . وهل تبدو الكواكب وضاءة إلا فى الليلة الظلماء ؟ كم من عظماء تمخضت عنهم حوادث التاريخ فجاءة . ولم يكن العالم من قبل يقدِّر عظمتهم قدرها الحق .

فإذا سألتنى أن أصف لك خطابته وعوامل سحرها وخلابتها فقد كلفتنى شططا ذلك هو موضع الإعجاز فى المواهب النادرة . إنك لتحس آثارها الفعالة فى نفسك ثم لا تستطيع إلى وصف كنهها سبيلا . على أنى أحاول أن أنقل إليك بعض خوالجى وأحاسيسى حين أسمع هذا الخطيب العظيم وأراه ماثلا على المنبر .

أحس أن سبعين عاما من تجاريب الزمان وعبره ، وحلوه ومره ، تخاطبنى . وتخاطبنى على لسان مَن ؟ على لسان شيخ يعلوه المشيب والجلالة . وتكاد تخشع له أعواد المنابر إكباراً . وأحِسُّ أن هذه الشخصية لا تلقى إلىّ أقوالا من اللفظ ولكن قطعاً من الروح ، من روح غنية بالذكاء والفطنة ، غنية بالشعور والعاطفة ، غنية بالعزيمة وشدة البأس . ثم أحس أن هذه الروح قد أوتيت من وسائل الخطيب ما لم يؤته أحد ممن رأيت . وجه قد ارتسمت فيه مخائل القوة وأقصى درجات الثقة بالنفس ، وقامة مع هذه السن معتدلة لا تنحنى للأيام ، وإشارة باليدين فى مواطن التوكيد أو الاستعانة على أداء الغرض لم أشهد مثلها سداداً وحسن دلالة . وقد يومىء الإيماءة فتجىء أبلغ من الجُمَل ذات الطنين والرنين . وصوت ... ! ياله من صوت! قوى فى حنان . عميق دون أن يكون أجوف . مرتفع إذا شاء دون أن يكون حاداً يحز فى الآذان . صوت مرن فى الدرجة القصوى من المرونة . يعلو به ويهبط ويوسع

من حجمه و يضيق كما تشاء له عواطفه ومعانيه دون تعمُّل ولا قصد . كالموسيقار النابغ يجرى قوسه على أوتار القيثارة فيروعك بالمُطرب والمُعْجِب دون أن يتكلف لذلك جهداً . وإن سعداً ليتكلم فتحس أن خلجات فؤادك متصلة بنبرات صوته . ذلك أن نبرات صوته متصلة بخلجات فؤاده . وخلجات فؤاده صادرة عن عواطف حية قوية بين سارة تسر السامعين ، وحزينة تحزنهم ، وثائرة تثيرهم ، فلا ممسك لحفائظهم إلا هو !

وهل بهذا الوصف المقتضب أزعم أنى وقفت القارىء على سر هذه الموهبة التى أودعها الله سعدا . كلا ولن أستطيع مهما أطلت . تلك المواهب لطائف ربانية قبل كل شىء . هى موهبة معنوية خفية قبلها لفظا يصاغ أو يداً تومىء أو صوتا ينخفض ويرتفع . هى نار مقدسة ونور مقدس . وتلك الوديعة الربانية هى التى تلهم سعداً رصف ألفاظه هذا الرصف البليغ يبادهه وهو يخطب ، فتنبعث منه العبارات جزلة متينة يأخذ بعضها برقاب بعض . و يأخذك وقعها إلى حيث يريد خطيب العربية الأعظم غير منازع .

أما بعد فمعذرة إلى حضرة صاحب الهلال . لقد تفضل فدعانى إلى كتابة شىء فى العدد الممتاز من مجلته عن الخطابة والخطباء فى مصر . فإذا بى قد كتبت شيئاً يسيراً وعن خطيب واحد . ولكن ماذا تقول يا سيدى إذا كان هذا الخطيب الواحد يكاد يكون هو الخطابة كلها فى مصر لعهدنا الحاضر ؟

الإحسان [1]

سيداتي وسادتي : —

حدثكم صديقي الأستاذ مصطفى عبد الرازق [2] عن صلة الإحسان بالحسن والجمال ، وعن صلته بالمحبة ، وعن إحسان الفرد و إحسان الجماعة . فاسمحوا لي بأن أتناول الموضوع من ناحية أخرى قد تبدو غريبة لأول وهلة ، لأنها غير مطروقة ، أو هي دعوى تحتاج إلى شيء من الإثبات .

إني أدعي ، أني أزعم ، بل إني أقرر أن ما يناله المحسن من إحسانه ، أعظم شأناً مما يبذله . وسأضرب لحضراتكم أمثالا لعل فيها دليلا أو شبه دليل على ما أدعي لكني أبدأ بمثل قد يحسبه بعض حضراتكم تافهاً وما هو بتافه : و إذا كان الله لايستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فهل أستحي أنا أن أضرب مثلا حيواناً فوق البعوضة درجات لا تحصى . أريد تلك الهرة الصغيرة العرجاء التي لقيها أطفالي في بعض الطريق بمصر الجديدة منذ شهرين . وأكبر ظني أنكم لا تعرفون قصتها . . إذن أستأذنكم فأقصها عليكم لأن لها اتصالا بالمعنى الذي أقصده .

عاد أطفالي ذات يوم من المدرسة يحملون قطة . قلت يا بنيّ ما بالكم تحملون هذه المخلوقة ولا حاجة بنا إليها . قالوا يا أبانا إنها صغيرة مسكينة صادفناها في الطريق لا تستطيع حراكا . وكأن ضربة قاسية أصابت يدها فلا تحركها إلا في ألم . ونريد أن نتعهدها فنواسيها ونغذوها حتى تصح و يعاودها النشاط . قلت مرحباً بضيفكم الصغير فاصنعوا ما تشاءون . فما زالوا بها تغذية وتدليلا حتى شفيت يدها وامتلأ جسمها وعادت لا تستطيع السكون من شدة المراح بعد أن كانت لا تستطيع الحركة . وأحبتهم وأحبوها وأصبحت وأمست لهم سلوة ورفيقاً .

والآن أسائل نفسي ما بذل الأطفال لهذه الهرة ؟ وماذا كسبوا ؟ بذلوا لها فتاتاً

---

(١) محاضرة ألقيت في طنطا سنة ١٩٢٧

(٢) حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر « الآن »

من فضول ما يأكلون . فإن بالغوا فى السخاء اختصوها بشطر مما يصيبون ما أقله وما أتفهه . ولكن ماذا كسبوا ؟ لم يكسبوا مالا . ولم يكسبوا من هذه القطة الخرساء حمداً مسموعاً ولا ثناء ، وإن كان عرفان الجميل يفيض من عينيها ولاء وحباً ، وإن كانت تمسح أقدام الأطفال بخديها غلواً فى الحب ، وتجعل أصابعهم بين أسنانها الحادة تداعبها كما يداعب الطفل الرضيع ثدى أم حنون . لكن ماذا كسب الأطفال ؟ أمجرد ولاء القطة ؟ ما لهذا أقصد . لقد كسبوا شيئاً هو فوق هذا بكثير . لقد كسبوا معنى من معانى الإنسانية لم يعرفوه من قبل .

كانوا من قبل يقصرون حبهم على أمهم وأبيهم وأختهم وأخيهم ومن إليهم من ذوى القربى والعشراء . أما الآن فقد اتسعت قلوبهم لحب جديد . إن الطفل يحب أباه حباً مصحوباً بالهيبة والإعجاب . ويحب أمه حباً مصحوباً بذكريات عطفها وحدبها فى كل حين . ويحب خالته أو عمته لأنها تخصه بالحلوى والقبلات كلما زارته . لكن هذه الهرة ! لقد علمته شيئاً جديداً . علمته أن يحب مخلوقاً ضعيفاً لا يملك له ضراً ولا نفعاً . علمته أول درس : كيف ينبغى أن تحنو القوة على الضعف . كان الطفل حيال أمه أو أبيه ضعيفاً يحب قوياً . أما الآن حيال هذه الهرة فهو قوى يحب ضعيفاً . ومحبة الضعيف للقوى أشبه ما تكون بالعبادة . أما محبة القوى للضعيف فهى الإحسان .

بذل الأطفال فتاتاً من الطعام لهذا الحيوان المسكين فكسبوا علماً بقدرتهم على أن ينفعوه أو يضروه ، أن ينفعوه بالتغذية أو يضروه بالحرمان ، فآثروا نفعه على ضره . وهذا فوز للجانب الأسمى من نفوسهم الناشئة . كانوا حتى الآن مجرد رعية . أما منذ الآن فقد أصبحوا رعاة ولو لقطة ، رعاة أى هداة ومرشدين إلى منابت الكلأ والمرعى الخصيب . رعاة بالمعنى الذى يجب أن يفهمه المحسنون . أصبح أطفالى رعاة لأنهم أخذوا يرعون الضعيف ويحنون على العجماء ، ومن أشبه أباه فما ظلم « تصفيق وضحك »

سيداتى وسادتى :

لا تخطئوا فهم ما أريد . إنما أبوتى لأطفالى أبوة جثمانية ، وأنا أريد أنهم وجميع المحسنين فى أقطار الأرض يشبهون المحسن الأعظم والمصدر الأول لكل خير

وكل جميل ، تلك الأبوة الروحية الشاملة لكل شيء ، تلك الربانية الكبرى ، الله ، هو الذى أعنى حين أقول « من أشبه أباه من المحسنين فما ظلم »

***

خبرونى سيداتى وسادتى . لماذا يولد طفل الإنسان شديد العجز ، و يظل فى عجزه أعواما ؟ لماذا يظل عاجزاً عن النهوض شهوراً طويلة ، عاجزا عن دفع الأذى وتحصيل الرزق سنين ؟ ذلك فى حين أن أطفال الحيوان والطير بل أطفال الحشرات والهوام تولد مستقلة أو عما قريب تستقل . ألم يكن الله قادراً ، أو الطبيعة ، أو ما شئت فسم تلك القوة المدبرة الكبرى ، ألم تكن قادرة على أن تخلق أطفال الإنسان وفيهم من الكفاية والغناء ما لهذه الخلائق الدنيا ؟ بلى كانت قادرة . لكنها لو فعلت لانعدمت عناصر الإنسانية فى مهدها الأول ، لانعدمت عاطفة الأبوة والأمومة . وهى التى تُلين القلوب الغليظة وتشقق الأحجار الآدمية الصلدة فيخرج منها ماء العطف والحنان .

أى شرير قاتل لا تفترّ شفته عن بسمة الاغتباط والشفقة حين يبشر بمولد طفله المنتظر ؟ أى فقيرة تاعسة لا تستقبل جنينها الوليد بذراعين مبسوطتين بالأمل والمحبة ومزيج من القبلات والدموع ! إن هـذا المهد الذى يحوى الطفل الصغير ، إن هذه الأرجوحة التى يحف بها الأبوان يهزان فيها الطفل مداعبين ذات اليمين وذات الشمال تلك المناغاة وهذا الترقيص ، وتلك اللغة الرقيقة التى تصطنعها الأم فى لثغة محبوبة تحاكى بها صغيرها وهى تحاوره ، وآلامها حين يمرض ، وشغلها الشاغل حين يغيب ، وابتهاجها حين ينمو ويترعرع ، واهتمام الوالد برعاية بنيـه ، وسعادته حين يسعدون وشقاؤه حين يشقون — كل هذا وما فى معناه إنما هو المدرسة الأولية التى تتعلم فيها الإنسانية أول درس من دروس الإحسان .

ولماذا تعنى الطبيعة أو الخالق كل هذه العناية برياضة الناس على الإحسان ؟ لأنه أول بذرة يجب أن تنبت من بذور الروح ، لأنه النَّوْرَة الأولى التى يجب أن تتفتح من أزاهير النفس الراقيـة . كأن الطبيعة قد فرغت أو كادت تفرغ من ترقية الجسم البشرى وتريد أن تشرع فى تنمية الروح البشرية . ونمو الروح هو اتساع وارتفاع .

اتساع فى مدى الحياة النفسية بحيث تتصل مشاعرى وعواطفى بحياة الآخرين ، بحيث أشاركهم فى السراء والضراء . لأنى لا أحيا فى شخصى وحده ولا لشخصى وحده . ولكن أحيا فى أبناء نوعى كذلك وأحيا لهم ، فإذا تألمت النفس الراقية لم تألم بقلب واحد ولكن بقلوب المتألمين جميعاً . وإذا سعدت النفس الراقية لم تسعد بقلب واحد ولكن بقلوب السعداء جميعاً . إنها نفس كريمة فسيحة الأرجاء واسعة النطاق أزالت ما بينها و بين غيرها من حجب . ولقد كانت فى أول أمرها ، كانت قبل هذه المرتبة بحاجة إلى أن تخرج من سجن الأنانية رويداً رويدا ، نخرجت من هذا السجن إلى روضة الأبوة والأمومة تنفخ فيها أول نسمات المحبة ، ثم منها إلى حديقة الأهل والأقرباء تختصهم بالعطف والإحسان ، ثم منها إلى بستان القوم والعشيرة تشمل بالمحبة والإحسان كل إخوانها فى القومية .ثم منها إلى وادى الانسانية الفسيح لا تفرق فى محبتها و إحسانها بين إنسان و إنسان ولا لون ولون ولا دين ودين ثم منه إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فيها تسمو النفس عن الشهوات ولا تجد للحياة لذة إلا فى المبرات ، ولاينبض القلب إلا نبضات الحب للكائنات كلها من شجر ونبات وزهرة ضاحكة وقطرة متحدرة وفلك دائر وقمر ونجوم وشمس وغيوم — ذلك أن هذه النفس قد بلغت أوجها وقاربت كمالها ، وصارت ربانية تحس الحياة الإلهية تسرى فى كل شىء وتصل كل شىء بكل شىء . فمثل هذه النفس تشفق أن تدوس النملة السارية وتشفق أن تهصر الغصن الرطيب . ومثل هذه النفس تبلغ من عاطفة الإحسان مبلغ الملائكة الذين هم صنائع الله سخرهم للخير دون سواه . تلك النفس قد أصبحت شعاعة لامعة من شمس الروح الأعظم ، وجدولا صافياً من كوثر الروح العذب : شعاعة أينما اتجهت طَهّرَتْ وأضاءت ، وجدولا أينما جرى روى وأحيا .

سيداتى وسادتى :

هذه مرتبة عالية جداً ترد الطرف وهو حسير ، وأرجو ألا أكون قد أدخلت على قلبى أو قلوبكم اليأس من بلوغها ولو طال منا العمر . على أنه مهما يتعذر الكمال علينا فلا أقل من أن نحاول القرب منه قدر المستطاع . بين إحسانى إلى ولدى وهو

أدنى مراتب الإحسان لأنى مدفوع إليه بفعل الغريزة ، بين ذلك و بين الإحسان المطلق من كل قيـــد ، الشامل لـكل أنواع الخلائق ، بين هذين الطرفين مراحل لا تعد ولا تحصى . وكل يد بيضاء نسديها تخطو بنا نحو كمالنا المنشود خطوة . والذى نبذله فى سبيل هـذه الخطوة نحو الكمال شىء تافه بالقيـاس إلى الـكسب الروحى الذى نجنيه .

إن الطبيب الذى يرد إلى الكفيف بصره قد بذل نصف ساعة ، ولم يبذل من مهارته شيئاً بل زادها تمكيناً ، لـكنه ازداد يقينـاً بأنه جندى من جنود النور . إن المنقذ الذى نجى من الغرق صبياً مشرفاً قد أنفق بعض وقته و بلل بعض ثيابه ، وقد يكون استهدف لبعض الخطر ، لـكنه خرج من اليمّ و بين يديه نفس زكية نجاها من الموت فـكأنما تضاعفت فى نفسه هو عزة الحياة .

والعريان الذى تـكسوه ثوبا سوف يذوب ثوبه لأنه من نسيج يبلى ، أما نشوة السرور التى داخلتك حين رأيت هذا العريان كاسياً ، فأثرها لن يزول لأنها من نسيج الروح ، ونسيج الروح لا يبلى . والدرهم الذى تلقيه فى يد المقعد والعاجز ، والدواء الذى تشتريه للمريض ، والرسوم المدرسية التى تدفعهـا لليتيم ، والقماط تشتريه للطفل الوليد لا يجد أبواه ثمن القماط ، والـكفن تشتريه لشيخ كبير عانى الحياة الدنيا مائة عام ولم يخرج منها بثمن الـكفن — ما قيمته المادية إذا قيست براحة الضمير ، و إذا قيست بعاطفة الإخاء والرحمة التى أجدها بين أضالعى — برداً وسلاما — كلما أحسنت !

أجَلْ أيها السادة ! ما أهون المال إلى جنب اللذة النفسية التى يجدها المحسنون حين الإحسان . ولا عجب ، فإن تجفيف العبرات من عين اليتيم فى يوم عيد ، يساوى أكثر من درهم أو دينار ! و إن ابتسامة الشكر تضىء ثغر المريض المعْوز لأشد إسعاداً للنفس الحساسة من كل مباهج الغنى والنعيم .

سيداتى وسادتى :

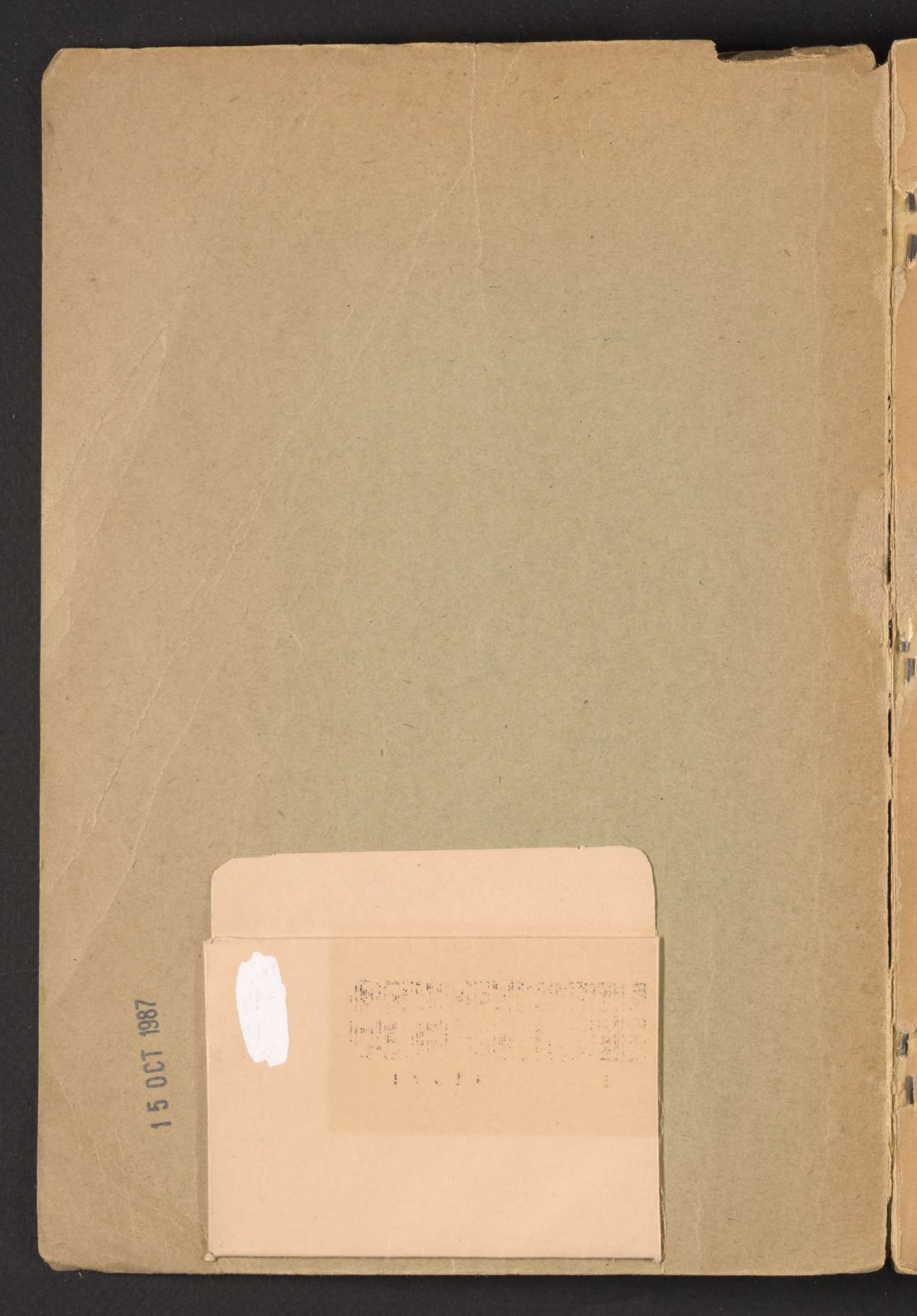
لقد سمعتم من صديقى الأستاذ أن جماعات الإحسان أقوى على الإحسان وأكفل لدوامه من الأفراد . وإن لـكم فى مدينـة طنطا الزاهرة لجماعتين للاحسان كريمتين

إحداهما جماعة السيدات والأخرى جماعة الرجال . فطوبى لسيدات طنطا المحسنات وطوبى لرجالها المحسنين ، وإن خيراً تكفله أياديهم البيضاء لا بد باق ومتضاعف مع الأيام .

الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	١٦	تتفتح	تنتفخ	٤١	٦	أم رمح	أو رمح
٢	٢١	احفادك	حفداؤك	٤٦	٧	إحيا	أحيا
٤	٩	تزداد	تزداد	٤٦	١١	عزيت	غربت
١٤	١٩	الوظائف	اللطائف	٥١	٦	بالعاقبة	بالعافية
١٥	١٧	احوال	أصول	٥٢	٢٠	رقيق	رفيق
١٧	٠٤	الانفاق	الاتقان	٦٥	٨	إخواتك	أخواتك
١٨	٠٣	تبيض	تبيضان	٦٦	٢	نستحذى	نستخذى
١٨	٠٩	نوقن من أن	نوقن بأن	٦٧	٩،٨	ايامك	زمانك
١٩	١٤	لاتغنى	لاتفنى	٧٨	١٧	إخواتنا	أخواتنا
٢٠	١١	تقيد	تقييد	١٠٢	١٤	من	فى
٢١	١٢	طلعتها	طليعتها	١٠٧	١٣	والترفية	والترفيه
٢٢	٢٣	وفقهاؤه	وفقهائه	١٦٧	٨	نفسى	نفسه
٢٧	٠٥	من جرائم	فى جرائم	١٦٨	١٤	معان	تدمعان
٣١	٠٦	حيال	صيال	١٧٦	—	الشرطة الأخيرة لاغية	
٣٥	٠٨	من تتقيف	فى تثقيف	٢٠٠	١٠	هذا	هذه
٣٨	١١	فنفعتَ	فنفعتُ	٢١٣	٧	ولمحاتنا	ولمحتنا هذه

فهرست اللمحات


15 OCT 1987

مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية
بالقاهرة

الثمن ٤٠ صاغاً — بتخفيض ٥٠ مليما